

المختار
من
ريدرز دايجست
في كل مقالة لذة دائمة

بعض ماتقرأ فى عددنا القادم نوفمبر ١٩٤٦

الحياة فى الغابات : كتاب إنسانى خالد ، هو بيان عن تجربة عيشة راضية مطمئنة ، وعن مغامرة فى طلب البساطة والنظام ، لا تزال كما كانت منذ مئة سنة مطابقة لحاجة الإنسان . وهو كتاب سمع به أكثر الناس ولكن لا يقرؤه اليوم إلا قليل . ومع ذلك فيخيل إلينا أنه كلما ازدادت الحضارة تعقيداً على تعقيد ازداد هذا الكتاب علواً وخلوداً عام بعد عام .

هل تحس بالتعب دائماً ؟ ما هو أكبر سبب للتعب المزمن ؟ وهل الراحة علاج له ؟ وهل يفضى إرهاق العمل إلى الإعياء وانهيار الأعصاب ؟ هذا المقال النافع يبطل الأوهام الشائعة عن التعب وأسبابه وعلاجه .

المدمر : ظل مكتب المباحث الجنائية سنتين يقتفى خطو هذا المجرم الفتاك ، الذى نشر الإرهاب فى منطقة واسعة آهلة . هذه قصة رجل نشىء فى الإجرام ، وكانت أمه هى التى نشأته . . . . ولكنه ارتكب الخطأ الذى نم عليه . قصة بوليسية حقيقية فيها عبرة لرجال التربية والحكم وعلم الاجتماع على السواء .

علموا أولادكم الحياة : ظل الصغار يشى بعضهم ببعض فأعطاهم أبوهم سلة وقال : اكتبوا قصصكم على بطاقات وارموها فى هذه السلة ، فإذا ما امتلأت ، فاقرأوا ما كتبتم ، واحفظوا منها ما كان جديراً بالحفظ — هذه أمثلة جديدة رائعة نافعة على أساليب الآباء فى تربية أبنائهم .

أسطورة السلالة المتفوقة ؟ أى سلالة من الناس أضخم البشر مخاً ؟ وهل ضخامة المخ تؤثر فى الذكاء والعبقرية ؟ وهل تجد فئات الدم فى جميع السلالات ؟ وأى سلالات البشر أسدى أعظم يد لأصول الحضارة ؟ هذا أستاذ عالم يبين فساد القول بتفوق السلالة البيضاء ، ويستقصى أصل هذه الخرافة .

AL MUKHTAR min Reader's Digest — Vol. 7, No. 38, OCTOBER 1946.

رؤساء التحرير : ده ويت ولاس ، ليلى أتشيسون ولاس — سكرتير التحرير : كنيث باين .
مدير التحرير : ألفرد داشيل — المدير العام : أ . ل . كول . — المدير المساعد : فرد طمسون .
مدير الطبعات الدولية : باركلى أتشيسون — المدير المساعد : مارفن لوز .

الطبعة العربية

المدير العام ورئيس التحرير : فؤاد صروف . مدير التحرير : محمود محمد شاكر . مدير الإدارة ولم ف . جايسى .
مصر والسودان : النسخة ٣ قروش ، الاشتراك السنوى ٣٠ قرشاً — شرق الأردن وفلسطين ٣٥ ملا العراق ٣٥ فلساً — سوريا ولبنان ٣٥ قرشاً . الاشتراك السنوى فى سوريا وشرق الأردن والعراق وفلسطين ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ما يعدل ٤٠ قرشاً مصرياً ، وفى سائر أقطار العالم ما يعدل ٧٥ قرشاً أو ثلاثة دولارات أو ١٦ شلناً .

العنوان : ١٤ شارع القاصد ، القاهرة — تليفون : ٤٢٢٦٤

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

السنة الرابعة

المجلد ٧
العدد ٣٨

من ريدرز دايجست

خواطر عن سياسة السوفييت الخارجية

جون فوستر دليس

مختصرة من مجلة "لايف"

خبير أمريكي في الشئون الخارجية يشرح عناصر سياسة السوفيت الخارجية وحقائقها، وكيف يتم التوفيق بينها وبين سياسة السلام العالمية.

أهم عمل ينبغي على أقطاب الدول أن يتمّوه، هو الاهتداء إلى خطة تحول دون وقوع تصادم خطير بين دولهم وبين الاتحاد السوفيتي. وليس هناك اليوم أقل شك في أن مثل هذا الاصطدام محتمل الوقوع، بل إن هذا الخطر يزداد وضوحاً كلما تعمقنا في دراسة السياسة السوفيتية.

وسنحاول في هذا المقال أن نبين شيئين: الأول، السياسة السوفيتية على حقيقتها، والثاني، مايقتضيه هذا من توجيه في سياسة أمريكا وأعمال هيئة الأمم المتحدة.

ويزعم قادة السوفيت أن السلم والأمن يتوقفان على الوصول بالعالم سريعاً إلى اعتناق المذهب السياسي السوفيتي الذي يقضي على بعض الحريات الفردية من أجل تحقيق التناسق الاجتماعي. وهذه الحريات الفردية التي يريدون اغتصابها إنما هي أغلى ما نعتز به من تراث سياسي وديني. وقد ذُدْنا في الماضي عن هذه الحريات بالسلاح حينما بدت عُرْضة

للخطر . والأساليب التي يتبعها قادة السوفيت بغيضة إلى معتقداتنا في الإنسانية والعدل .

ومن الحمق أن نعلّق آمالنا في السلم على قيام مصالحة صادقة بين عقائدنا وعقائد قادة السوفيت اليوم ، فالفروق بيننا جوهرية . والواقع أن السلم لايتطلب أن يعتنق الناس جميعاً عقيدة واحدة ، كما يرى قادة السوفيت اليوم فيما يبدو ، بل يمكن أن يسود العالم السلمُ على مابيننا من فرق ، لو عدل قادة السوفيت عن وسائل العسف التي يتوسلون بها اليوم لمحو هذه الفروق .

وهذا هدف يمكن تحقيقه ، فقادة السوفيت ساسة أهل حصافة وحسن تقدير للأمر الواقع ، فإذا أقمنا لهم الدليل على أن حرياتنا عزيزة علينا ، متأصلة فينا بحيث يستحيل استئصالها، صح لنا أن نتوقع عدولهم — من باب الحكمة السياسية — عن أساليب هيهات أن تنجح، بل ربما أفضت إلى كارثة.

البرنامج السوفيتي

ولا يتسنى إدراك السياسة الخارجية لدولة ما من أقوال رجالها فحسب ، بل أدلّ من ذلك مذاهب قادتها ومظاهر هذه المذاهب في أعمالهم ، فإذا ضمت هذه العناصر بعضها إلى بعض أمكن أن نستخلص نتيجة يمكن الاعتماد عليها . فإذا نظرنا في أمر روسيا السوفيتية وجدنا هذه العناصر أجزاء مترابط تؤلف كلا واحداً له منطق وفيه اتساق .

إن الذين يرسمون السياسة الخارجية السوفيتية يؤمنون إيماناً وثيقاً بالمبدأ القائل « إن هذا العالم عالم واحد » وإن « السلم لايتجزأ » . وهاتان العبارتان تجريان على ألسنتنا مجرى الحكم والأمثال ، ولكنهما هما أركان السياسة السوفيتية الخارجية ، وأهم أغراضها أن يتحقق للاتحاد السوفيتي السلم والأمن والفرص العادلة المؤاتية — وهذه هي الأهداف المألوفة التي تتوخاها كل سياسة خارجية . بيد أن قادة السوفيت حين يرون أن العالم واحد وأن السلم لا يتجزأ ، تجدهم يعدُّون السلم والأمن رهناً بمحو كل الأوضاع الاجتماعية غير الموسومة بطابع سوفيتي، إذ هي في نظرهم تعرض العالم للخطر بشطره شطرين متنافرين . وهم يرون أيضاً أن مايتوخونه هو خير للعالم ، فهم يعدّون المثل الأعلى للحكومات هو النمط السوفيتي القائم على ديكتاتورية الطبقة العاملة ، التي نشأت لزيادة رخاء الشعب ، والقضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان . فهذا في رأيهم هو الديمقراطيـــة الحقة ، وكل مايعارضها من أفكار سياسية أو معتقدات روحية يطلقون عليها وصف « الفاشي » أو « العدائي »

وينبغى لنا أن ندرك المعانى التى يفهمها الناطقون بلسان السوفيت من كلمات « الديمقراطية » و « الفاشية » ، كما ينبغى أن نفهم معنى « الود » عندهم .

وإخفاقنا فى بلوغ هذا الفهم يفسّر لنا لماذا نوافق فى أحيان كثيرة على أقوال قادة السوفيت ، ثم نجده من العسير أن نوفق بين أعمالهم وأقوالهم كما فهمناها . فإذا قال قادة السوفيت إن غرض سياستهم الخارجية هو أن تقوم فى كل مكان حكومات « ديمقراطية » تكون صديقة لهم ، وعاملة على محو التفكير الفاشى، فهذه غاية معقولة وليس لنا اعتراض عليها حتى نتبين أن :

« الديمقراطية » معناها عند الروس النمط السوفيتى من ديكتاتورية الطبقة العاملة ، و « الفاشية » هى عندهم كلمة قدح توصف بها كل المذاهب غير المذهب السوفيتى .

و « الود » عندهم كلمة تنم على رضى عن كل من يؤمن بالمثل العليا السوفيتية ، وعلى كل من يبرهن على إخلاصه لها بالعمل على نشرها والنهوض بها .

والسياسة السوفيتية، بحسب هذا التفسير، سياسة عنف بلا جدال ، فهى تسعى إلى القضاء على المبادىء الأساسية التى نراها نحن لازمة للمجتمع الحرّ ، وهى تسعى حثيثاً إلى تلك الغاية ، لأن قادة السوفيت يؤمنون بأن العالم سيظل معرضاً للخطر حتى يدرك هذا الغرض أو يحققه .

والصبر على المبادىء غير السوفيتية هو فى نظرهم ضعف ينطوى على خطر .

وقد قال فشنسكى فى خطابه القوى عن مشكلة المهاجرين فى أول دورة لهيئة الأمم المتحدة :

« إننا لن نرضى بالتسامح، فقد لحقنا منه أذى كبير .. » ولهذا — كما جاء فى ختام خطبته — فإن المهاجر الهائم على وجهه ، وإن هان شأنه ، يكمن فيه خطر على سلم الاتحاد السوفيتى وأمنه ، إذا كان من المؤمنين بمبادىء معادية للشيوعية السوفيتية .

ويرى قادة السوفيت أن أقرب الطرق لمحو هذه الأخطار الكامنة هو أن تقوم فى كل مكان حكومات تعتنق مذهب الاتحاد السوفيتى فى السياسة

وستفرض مثل هذه الحكومات رقابة دقيقة ، وتستعين بالبوليس السرى لتكشف عن كل من لا يزال يؤمن بمذاهب سياسية أخرى وتنزع شوكتهم بإقصائهم عن مكانهم المعهود فى المجتمع . ولهذا يرى قادة السوفيت أن إقامة مثل هذه الحكومات فى جميع أرجاء العالم يتيح تناسقاً عالمياً وهدوءاً سياسياً شاملا تحت لواء « السلم السوفيتى »

جون فوستر دليس محام مشهور وخبير فى الشئون الدولية ، وقد قضى معظم حياته فى تأييد قضية السلام . كان طالباً فى الجامعة حين عين سكرتيراً لوفد الصين فى مؤتمر لاهاى الثانى للسلام . ثم كان مستشاراً قانونياً للرئيس ولسون فى فرساى ، وعاون على تنظيم مالية تسع دول بعد الحرب العالمية الأولى . وألف قبيل هذه الحرب كتاباً عنوانه « الحرب والسلام وتطوّر العالم » فعُدّ أفضل ما كتب فى أسباب الحرب وبواعث السلام . وقد كان عضواً فى الوفد الأمريكى فى مؤتمر سان فرنسسكو ، ثم فى اجتماعى هيئة الأمم المتحدة ، وقضى وقتاً طويلاً فى مفاوضة ممثلى روسيا، فاطلع على آرائهم أحسن اطلاع .

وهم يقسمون العالم — لتحقيق أغراض سياستهم الخارجية — إلى ثلاث مناطق :

(١) منطقة داخلية وهى الاتحاد السوفيتى ذاته .

(٢) منطقة متوسطة ، وهى « نطاق واق » يحيط بالمنطقة الداخلية .

(٣) منطقة خارجية وهى باقى العالم كله.

وهى تشمل الأراضى التى أدمجت فى الاتحاد السوفيتى، فهى تضم الاتحاد السوفيتى « كما كان فى بدء تكوينه سنة ١٩١٧ » ويضاف إليه كل الأرض المجاورة التى استولى عليها فيما بعد : شمال فنلندة ، والمناطق ذات الشأن الحربى فى جنوبها وهى متحكمة فى مداخل بحر البلطيق ، وإستونيا ، ولاتفيا، وليتوانيا ، والقسم الشمالى من روسيا الشرقية، والنصف الشرقى من بولندة ، والقسم الشرقى من تشيكوسلفاكيا ، ومقاطعة بسارابيا وبيكوفينا . (وكانتا من قبل تابعتين لرومانيا) وتانوتوفا، وبورت آرثر، والنصف الجنوبى من جزيرة سخالين ، وجزائر الكوريل .

وقد وضع الدستور السوفيتى على أساس الاتحاد ، فيسهل أن تدمج فيه شعوب جديدة ومناطق جديدة . وليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن توسع الاتحاد السوفيتى قد بلغ نهايته ، فإن روسيا تسعى اليوم إلى استرداد ولايتى قرص وأردهان من تركيا . وأغلب الرأى أن ينتهى الأمر بأن يضم بعض الولايات شبه المستقلة فى المنطقة الوسطى إلى الاتحاد السوفيتى .

وهى متاخمة للمنطقة الداخلية ، ولم تندمج بعد فتدمج فى الاتحـاد السوفيتى ، ولكنها لقربها منه تتأثر بنفوذ السوفيت العسكرى ، وقوات السوفيت تحتل اليوم — أو كانت تحتل إلى عهد قريب — هـذه المنطقة . وما من جهة من جهاتها نجت من الاحتلال إلاوهى اليوم فى خوف منه ، وتلاقى حكومات هـذه المنطقة إغراءً شـديداً لكى تضع سياستها الخارجية وجيوشها ـ وأهم من ذلك كله ـ بوليسها السرى ورقابتها ، فى أيدى رجال يسترشدون برأى موسكو . وهكذا يضمن لقادة السوفيت أن تصبح هـذه الحكومات « صديقة » لهم .

وأحـوال المنطقة المتوسطة سائدة أيضـاً على تفـاوت بينها ، فى الجهات الآتية من أوروبة :

بولندة ، ألمانيا الشرقية ، تشيكوسلفاكيا ، النمسا الشرقية ، المجر ، رومانيا ، بلغاريا ، يوغسلافيا ، ألبانيا . وكذلك الجهات الآتية فى آسـية : منغوليا الخارجية ، منشوريا ، كوريا الشمالية ، ولاية سنكيانج فى الصين . وليس هناك ما يدعـو إلى الاعتقاد بأن المنطقة المتوسطة قد عينت حدودها تعييناً نهائياً ، فترى اليوم مساعى تبذل لتوسيعها : فى اليونان حيث ينشب نضال مرير من أجل الحكم بين جمعيـة « إيام » التى تعضدها روسيا وبين سائر الأحزاب ، وفى إيران (حيث تنشب الثورة فى أذربيجان التى كان يحتلها الروس) ، وتركيا (التى تعانى ضغط روسيا) ، وكردستان (حيث يشجع الكرد على إقامة دولة مستقلة استقلالا داخلياً تحت حماية السوفيت) ، وكوريا الجنوبية (حيث يعضد الروس بعض الجماعات السياسية) .

وهى تشمل باقى بلاد العالم . وهى بلاد حكمت عليها الطبيعة بأن تكون بعيدة عن التأثر بقوة روسيا البرية ، فلا يتسنى لها التدخل بالقوة فيها لإقامة حكومات موالية ، وتختلف الأساليب التى تتبعها روسيا لإقامة مثل هذه الحكومات الموالية باختـلاف البلاد حين تكون مستقلة أو غير مستقلة .

ففى مناطق المستعمرات التى يبلغ مجموع سكانها ٧٥٠ مليوناً ، يحض قادة السوفيت أهاليها على الثورة للمطالبة بالاسـتقلال ، ويؤيدونهم ويظاهرونهم ، ويطالب هؤلاء الأهالى بأن ترفع عنهم مظالم لا سبيل إلى إنكارها ، وأن تحقق أمانيهم القومية ، وقد ساعدت ظروف الحرب ودعاية اليابان وألمانيا على تأجيج هياجهم . ويعمد قادة السوفيت

— فى هذه الأحوال — إلى تشجيع اللجوء إلى العنف بدلاً من الاعتماد على أساليب المسالمة الواردة فى ميثاق الأمم المتحدة .

ولقد أبوا فى الدورة الأولى لهيئة الأمم المتحدة أن تمتدح الجمعية العمومية عمل الدول المنتدبة من قبل عصبة الأمم ، حين أرادت بمحض اختيارها أن تسلم البلاد الواقعة تحت انتدابها إلى مجلس الوصاية التابع لهيئة الأمم المتحدة . أما فى اجتماعات وزراء الخارجية فى لندن وباريس ، فقد عارضوا الخطة التى وضعتها الولايات المتحدة للمستعمرات الإيطالية ، والتى تتضمن التعهد بمنحها الاستقلال فى وقت قريب ، وتجعل إدارتها — إلى أن يحين ذلك الوقت — موكولة إلى مجلس الوصاية .

أما البلاد المتمتعة بالاستقلال التام ، فهى النصف الثانى من المنطقة الخارجية . ففى بعض هذه البلاد — كما فى فرنسا — أقيمت أحزاب شيوعية قوية تتعاون هى وقادة السوفيت . أما فى البلاد الأخرى فمن العسير إقامة أحزاب شيوعية أو أحزاب يسار متطرفة يبلغ من قوتها وحدها أن تبسط نفوذها على الدولة . ففى مثل هذه الأحوال يستعان فى بسط النفوذ بأقليات صغيرة متقنة التنظيم . وتسعى هذه الأقليات حتى تظفر بمقام ذى شأن فى كتل الأحزاب الكبيرة ، بل قد يبلغ بها أن تصبح فى يدها القدرة على ترجيح الكفة حينما يتقارب عدد الأصوات التى تنالها الأحزاب الكبيرة .

وينتفع أعوان السوفيت فى بلوغ أغراضهم بحرية الصحافة والخطابة للتشهير بالذين يعتنقون مبادىء قوية تعارض المذهب السوفيتى ، ويخشى نفوذهم الأدبى والسياسى . وقد اتبع هذا الأسلوب مثلا فى انتقاص السنيور باديلا الذى كان إلى وقت قريب وزيراً للخارجية فى المكسيك لأنه ناصر سياسة الولايات المتحدة فى مؤتمر سان فرنسسكو ، وساهم بقسط وافٍ فى العمل على وحدة القارتين الأمريكيتين ، فلما عاد إلى وطنه هاجمته صحافة اليسار مهاجمة شديدة ، واتهمته بأنه قبل الرشوة من الولايات المتحدة ، وباع نفسه لها ليظفر بتأييدها السياسى . فكان من نتائج هذه الاتهامات أن تخلى فوراً عن وزارة الخارجية . ووضع خلفه نصب عينيه فى اجتماع هيئة الأمم المتحدة فى لندن أن تقترع المكسيك فى أغلب الأحيان مع روسيا وضد الولايات المتحدة ، وبهذا أمن المصير الذى لقيه سلفه .

ويريد الاتحاد السوفيتى أن يمنع قيام اتحاد سياسى أو اقتصادى بين دول أوربة الغربية التى تتاخم المنطقة الوسطى ، مثل فرنسا وبلجيكا وهولندة وبريطانيا ، لأنها

إذا اتحدت فقد تصبح ذات نفوذ يوازن نفوذ الاتحاد السوفيتي في المنطقة المتوسطة الأوربية. وقد قامت في هذه البلاد أحزاب شيوعية تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الشيوعية السوفيتية. ومنذ أشهر قال أحد الموظفين الفرنسيين وهو يتحدث عن تعزيز الوحدة الاقتصادية بين فرنسا وبعض جيرانها، إن هذه الوحدة متعذرة لأنها تغضب السوفيت، وفي طاقتهم، بفضل النفوذ الشيوعي، أن يثيروا في فرنسا حركة من الإضرابات المخربة المدمرة.

ومنطقة البحر الأبيض المتوسط جزء من المنطقة الخارجية، وقد وجهت إليها السياسة والدعاية السوفيتية كثيراً من عنايتها وجهودها. فهي طريق الحياة المفضى ببريطانيا إلى الهند والشرق الأقصى، ويسعى الاتحاد السوفيتي إلى نزع السيطرة على هذا البحر من يد بريطانيا، وتمتد محاولاته هذه إلى جميع شواطىء هذا البحر.

وتسيطر إسبانيا والمغرب الأسباني على مداخله الغربية، وقد أصبحت إسبانيا اليوم مسرحاً لنضال سياسي خطير، فجميع الدول الكبرى متفقة على وجوب إسقاط فرانكو، ولكن المسألة هي كيف يتم ذلك؟ وما هو النظام الذي يخلفه؟ أما بريطانيا وأمريكا فتسعيان معاً حتى يخلفه بالطرق السلمية نظام يستند إلى مبادىء الأحرار لا الشيوعيين. وأما قادة السوفيت فلا يحجمون عن إثارة حرب أهلية ترفع الشيوعيين إلى مناصب الحكم. وقد ترددت فرنسا بين هاتين الإرادتين.

ويبذل قادة السوفيت جهوداً قوية للسيطرة على سياسة فرنسا الخارجية. وقد قام الاتحاد السوفيتي أخيراً بتدبير استثنائي فقدم قمحاً إلى فرنسا مع أنه يتلقى هو نفسه العون من هيئة الإعانة والتعمير، وفعل ذلك عن طريق الشيوعيين الفرنسيين لمساعدتهم على اكتساب نفوذ سياسي.

والشيوعية في إيطاليا تلقى تأييداً تطاول به أحزاب الوسط، وتبذل جهود متصلة للانتفاع بأخطاء الحكومات العسكرية التي أقامها الإنجليز والأمريكيون.

وتسعى روسيا إلى اكتساب العالم العربي كله، وتشجع قيام القلاقل في مراكش الفرنسية والجزائر وتونس.

أما جمهوريات أمريكا اللاتينية فكثير منها يواجه مشكلات اقتصادية نشأت في أعقاب الحرب، وعدد كبير من عمالها لا ينعم بمستوى حسن في معيشته. وقد أتاحت هذه الأحوال للدعاية الشيوعية فرصة سانحة انتهزها المشاغبون من أحزاب اليسار المتطرف ليقوضوا دعائم وحدة القارتين

الأمريكيتين التى عملت الولايات المتحدة على تعزيزها .

ويسعى الاتحاد السوفيتى إلى شدّ أزر اتحاد النقابات العالمى الذى تألف أخيراً ، حتى تتخذه أداةً للنفوذ السياسى فى العالم كله . ولهذا الاتحاد اليوم هيئات عمال ذات شأن فى أكثر من ٥٠ أمة ، وهذه الهيئات تضم فى أغلب الأحوال الجناح الأيسر لأحزاب العمال فى كل بلد ، وترى الشيوعيين وأنصارهم من أعضائها يبذلون من الجهود المضنية إلى بسط نفوذهم على الوجه الذى يرضى الاتحاد السوفيتى .

...

إن أساليب السوفيت هى أساليب مجتمع من الناس يعامل أقواماً من وراء حدوده يعتقد فيهم الفساد ، ويتوقع منهم الخطر ، فالامتناع عن مخالطتهم هى القاعدة العامة ، والتآخى محرم ، اللهم إلا إذا كان جزءاً من خطة موضوعة للتغلغل السياسى .

وقد أسدل ستار حديدى بين المنطقة الداخلية والخارجية لا يرفع أبداً . وهذا يحقق غرضين : أولهما يتعلق بالداخل ، والآخر بالخارج .

فهذا الحجاب مطلوب فى الداخل للاحتفاظ بنقاء المعتقدات التى لم ترسخ إلا بعد ثلاثين سنة تقريباً من الدعاية والتطهير ويحول هذا الستار أيضاً دون سخط خليق أن ينشأ إذا أتيح للشعب السوفيتى أن يعرف أن عمال بلاد كثيرة — كالولايات المتحدة وبريطانيا — ينعمون بعيشة أفضل من عيشتهم

أما فى الخارج فالستار الحديدى يعين الدعاية السوفيتية على أن تكون أجدى تأثيراً مما لو عرف الناس حقيقة الحال فى الاتحاد السوفيتى . ولا شك أن الحالة الاقتصادية فى بعض أجزاء الاتحاد السوفيتى أفضل منها فى بعض المناطق المتخلفة فى الشرقين الأوسط والأقصى ، غير أن الإلمام بحقيقة الحياة فى الاتحاد السوفيتى يدعو فى مجمل الرأى إلى الحطّ من سمعة السوفيت . والواقع أنه يسهل على الأفراد الساخطين على الاجتماع وعلى أصحاب المثل العليا ، أن يبالغوا فى تقدير تجربة السوفيت وقدرتها على تحقيق ما يصبو إليه الناس من آمال . وهم يحكمون على هذه القدرة بخيالهم وببعض الأمثلة التى أحكم عرضها لا بالحقيقة الواقعة . وهذا ربح للاتحاد السوفيتى لا يقدّر بمال .

ويقال للشعب السوفيتى إن هذا ستارٌ لا غنى عنه ، يعينهُ على أن يقف موقف الدفاع حيالَ عالم خارجى لا يضمر له الودّ . ويرحب قادة السوفيت بالحوادث التى قد تنم فى ظاهرها على أن جفاء العالم الخارجى

متأصل فى طبعه ، بل إنهم يتلمسون هذه الحوادث ويجرون فى طلبها . ففى مؤتمر سان فرنسسكو واجتماعات الجمعية العمومية ومجلس الأمن ، دأب الوفد الروسى على المطالبة بعرض مقترحاتهم للمناقشة العامة والاقتراع عليها فى الأحوال التى كان الإخفاق فيها لا محيص عنه ، لأن ذلك يتيح لهم أن يطنطنوا لشعبهم ولأتباعهم فى الخارج بالموقف العدائى والفاشى " - كما يقولون - الذى يقفه العالم الخارجى حيالهم .

وتفرض السياسة الروسية على كل من يسافر إلى الخارج فى بعثات دبلوماسية أو تجارية أن يتمسك أشد تمسك بالمبدأ القائل بأن الديموقراطية السوفيتية لا تصبر على المعارضة والجدال . فالدبلوماسيون الروس ، بل قل جميع الروس خارج بلادهم ، محظور عليهم أن يخالطوا أنصار المذاهب المعارضة مخالطة غير مقيّدة . ويحدث أحياناً أن يشاركوا مبتهجين فى بعض الحفلات ، ولكنهم قلما يتباحثون فى المسائل السياسية والاجتماعية والثقافية . فإذا شذ أحدهم وخالط أتباع مذهب مخالف مخالطة الأصدقاء ، فهو خليق بأن يردّ إلى بلاده .

وتنفيذاً لهذه السياسة ، يسير الاتحاد السوفيتى بخطى وئيدة نحو الانضمام إلى المؤسسات التى تعمل للتعاون الدولى . فهو حتى اليوم لم ينضم إلى صندوق النقد الدولى ولا إلى البنك الدولى للتعمير والإنشاء ، ولا إلى هيئة الطعام والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، ولا إلى الهيئة الدولية المؤقتة للطيران المدنى ، ولا إلى لجنة التربية والعلوم والثقافة التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، ولا إلى لجنة الطوارىء الاقتصادية فى أوربة ، ولا إلى هيئة لجنة الفحم الأوربية .

أما انضمامه إلى هيئة الأمم المتحدة فاستثناء ، فمنذ مؤتمر موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ شارك الاتحاد السوفيتى فى المراحل التى أفضت إلى إنشاء هيئة عالمية يكون هو من أعضائها المقدّمين . وقد تلقى الوفد الروسى فى مؤتمر سان فرنسسكو تعليمات من المارشال ستالين بأن يقبل بعض أحكام الميثاق ، بعد أن كان هذا الوفد ينفر منها كل النفور . (ونخص بالذكر تلك الأحكام التى تبيح المناقشة العامة فى مجلس الأمن والجمعية العمومية ، وتسوية المنازعات بالوسائل السلمية المادة ٤١) وذلك لتفدى الإخفاق فى إنشاء هيئة دولية ، أو إنشاء مثل هذه الهيئة دون أن يشترك فيها الاتحاد السوفيتى .

وتدل الدلائل على أن قادة السوفيت قد رأوا فى الهيئة العالمية ، فى مبدأ الأمر ، وسيلة لاستمرار استئثار الدول الثلاث الكبرى بالسلطان ، كما كانت الحال زمن

الحرب ، غير أنهم اضطروا إلى نبذ هذا الرأى ، ومع ذلك رحبوا بتأليف الهيئة لكى تحول دون إنشاء رابطة مقصورة على الديمقراطيات الغربية ، ثم لكى تعين السياسة السوفيتية على نشر رأيها فى السلم العالمى فى بلاد المنطقة الخارجية .

ويرجو قادة السوفيت أن ينزعوا من الديمقراطيات الغربية مالها من نفوذ غالب فى هيئة الأمم المتحدة ، وهم يسعون تحقيقاً لهذا إلى تقوية اتحاد نقابات العمال العالمى فى هيئة الأمم المتحدة ، وفى كل أمة مشتركة فيها . أما هيئة الأمم المتحدة فلا تستطيع أن تلحق أى ضرر بخطط السوفيت ، لما لروسيا من حق الاعتراض ، إذ هى عضو دائم فى مجلس الأمن . وقد دأب قادة السوفيت على السعى إلى تعزيز هذا الضمان بجعل حق الاعتراض شاملا جميع المسائل ، حتى المناقشة فى مجلس الأمن .

والسند الأخير الذى تعتمد عليه السياسة الخارجية السوفيتية هى قوتها العسكرية ، فقد تم تسريح بعض القوات الروسية ، ولكن قادة السوفيت بينوا بوضوح أنهم عازمون على الاحتفاظ بجيش كبير ، وعلى تعزيز قواتهم الجوية والبحرية ، وهم يبذلون جهوداً عظيمة لمعرفة وسائل الانتفاع بالطاقة الذرية ، فالقوة العسكرية ــ فى رأى هؤلاء القادة ــ هى قِوامُ سيادة الدولة . وقد قال المارشال ستالين فى الخطبة التى ألقاها يوم أول مايو سنة ١٩٤٦ إنه يجب أن يحرص عليها كما يحرص الإنسان على « نور بصره » . وقد دأب قادة السوفيت فى مباحثات معاهدات الصلح على الاعتراض اعتراضاً قوياً على مبدأ الإشراف الدولى ، حتى الإشراف على دول الأعداء .

وتطبق السياسة الخارجية السوفيتية بطريقة صارمة دقيقة لا تسامح فيها ، وتوضع جميع خططها القريبة والبعيدة فى موسكو ، وهى التى تشرف على تنفيذها . وأمرها موكول على الأكثر إلى رجال يجهلون أحوال العالم وشعوبه ، فهم يرسمون الخطط طبقاً للمنطق السوفيتى ، فكأنهم يلعبون الشطرنج والرقعة هى العالم كله ، والقطع هم الدبلوماسيون والعمال الروس فى الخارج ، يتحركون كما تحركهم يد اللاعب الماهر فى موسكو . فلا يتاح للدبلوماسى الروسى أن يتصرف فى شىء من تلقاء نفسه وبحسب رأيه ، حتى أن رؤساء وزارة الخارجية كمولوتوف وفشنسكى لا يستطيعون اتخاذ قرار فى أية مسألة عالمية هامة دون أن يرجعوا إلى موسكو ، أى إلى ستالين وأعضاء المكتب السياسى أيضاً .

قوة السياسة الخارجية السوفيتية

إن السياسة الخارجية السوفيتية قوية لأنها هى المظهر الخارجى الطبيعى للسياسة الداخلية السوفيتية ، فالتناسق السياسى داخل الاتحاد السوفيتى قد تم بلوغه على يد فئة من الحكام عاهدوا شعبهم على نشر الرخاء بين العمال ، وصار لهم فى مقابل ذلك حق القضاء على حرية الفكر التى قد تؤدى إلى التنافر السياسى .

ولكن السياسة السوفيتية تتسامح فى بعض الأمور ، وبخاصة فى فروق الجنس بين أفراد الشعب ، وهؤلاء الأفراد أحرار فى الاتفاق أو الاختلاف فى مسائل العلم والأدب وأشباهها ، ولهم أيضاً حريتهم فى الدين ، إذا قصروا دينهم على أداء العبادة ، ولكن ليس هناك أى تسامح فى مسائل السياسة ، فكلمة الدولة فيها هى العليا ، وإذا نطقت كان كلامها هو القانون ، وهو قانون خلقى لا وضعى فحسب ، فكل تفكير سياسى أو دينى يعارض رأى الحكومة يعدّ شراً لا يمكن التسامح فيه . وهكذا تم التناسق السياسى الداخلى فى روسيا بفضل الدعاية والإرهاب والقمع .

ويسعى قادة السوفيت اليوم إلى تطبيق خططهم الداخلية على نطاق عالمى ، وهذه هى السياسة الخارجية السوفيتية ، فهى سياسة طبيعية ، بسيطة ، ماضية ، وتلك هى عناصر قوتها العظيمة .

وتستمد تلك السياسة قوتها أيضاً من كونها ثورية ، لأن التبدل هو قانون الحياة ، والذين يسعون إلى التبدّل تغمرهم نشوة الابتهاج لشعورهم بأنهم يسايرون تطوّر العالم الذى لا سبيل إلى صدّ تياره . وتجتذب هذه السياسة بما فيها من قوىً فوّارة دافعة ، أولئك الذين يرون السعادة فى الجهاد لتحسين أحوال العالم ، كما تجتذب أيضاً أولئك الذين يظنون أنهم قد يظفرون بالمغانم من قلب النظام السائد ، وتجتذب أخيراً كل أولئك الذين يستبدّ بهم السخط على نصيبهم فى الحياة الدنيا .

ومما يزيد فى جدوى هذه الناحية من السياسة الخارجية السوفيتية أنها تعمل فى عالم يبدو أنه خِلْو من الإيمان والنظام ، فليس فى شعوب آسية وإفريقية وأمريكا الجنوبية نظام اجتماعى سليم . وأوربة تعانى هذا الانحلال الخلقى الذى يعقب الحروب ، ويزيده سوءاً ما نراه من تردد وتناقض فى معاملة ألمانيا . وقد تكشفت عيوب كبيرة فى الدول الرأسمالية ، وبخاصة فى الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة ، وأحد هذه العيوب هو شهوة الاستعمار وما يعقبها من

اضطهاد الأجناس . وثانيها هو الإخفاق فى مواصلة الإنتاج والقضاء على البطالة . أما الروس فشعارهم فى هاتين المسألتين هو « الاستقلال » و « العمل لجميع العمال » ، وقد حاولوا إدماج هذين اللفظين فى ميثاق هيئة الأمم المتحدة فلقيت محاولتهم معارضة قوية ، ولكن وجهة نظرهم تغلبت بعد إدخال بعض التعديل عليها . ومثل هذه الحوادث من شأنها أن تعزز رأى قادة السوفيت فى أن العالم الخارجى يفتقد الزعامة الخلقية ، وأنه من السهولة حمله على اعتناق مذهبهم الفتىّ الجديد .

وأخيراً فإن للسياسة السوفيتية تلك القوة الدافعة التى تنبثق من النجاح العظيم . ففى الداخل رسخ الولاء والنظام فى قلوب الشعب الروسى الباسل الشديد البأس ، فاستطاع بما أدهش الناس أن يصدّ عدوان القوة الألمانية الهائلة العنيف . أما فى الخارج فقد وقفت السياسة الخارجية إلى مدّ رقعة الاتحاد السوفيتى حتى أصبح يشمل معظم البلاد التى كان يطمع فيها غلاة القياصرة ، بل نال أكثر منها فى بعض الجهات ، وهو لا يزال يوسع رقعته . وفى المنطقة المتوسطة المحيطة بالمنطقة الداخلية تقوم حكومات خاضعة لإرادة قادة السوفيت . وفى المنطقة الخارجية يتمتع السوفيت بنفوذ قوى فى كل مكان .

ويندر من بين ساسة الدول من يقدم على عمل دون أن يسأل نفسه أولا : هل يرضى هذا العمل قادة السوفيت أم يغضبهم ؟ ولم يسبق فى التاريخ أن تمتعت فئة قليلة من الرجال فى بلد واحد بمثل هذا النفوذ العالمى . وقد تم للسوفيت كل هذا فى بضع سنين ، فأصبحت لقادتهم هيبة عظيمة .

ضعف السياسة الخارجية السوفيتية

ومن المفهوم أن يطمئن قادة السوفيت وأتباعهم فى كل مكان إلى مقدرتهم على نشر لواء السلم الروسى على العالم كله بالوسائل السلمية ، ولكن هذا المنطق يخطىء فهم الموقف العالمى على حقيقته . وفى هذا خطر كبير ، فهو يبالغ فى تقدير شأن الانتصارات الأولى التى نالها السوفيت بفضل الحرب ، وما أعقبته من فوضى يعانى فيها الناس إعياء يتحلل بأجسامهم ونفوسهم ، كما يقلل من شأن جوانب الضعف فى الداخل وعوامل المقاومة فى الخارج .

إن النظام السياسى السوفيتى لا يلائم القيام على تنفيذ خطط كبيرة عالمية النطاق كل الملاءمة ، لأن حق إصدار القرارات النهائية مقصور على عدد قليل من كبار السادة ، ويندر أن ينزلوا عن بعض سلطانهم لمن يليهم . وهناك أيضاً نقص فى عدد الموظفين

الذين يحسنون معالجة الشئون الخارجية .

وقد سارع الروس إلى إقامة نظم الحكم فى البلاد الأوربية الواقعة فى المنطقة الوسطى تحت ظل الحرب، ولذلك فهى لم تصطدم بعد اصطداماً شديداً بالمنازعات القومية العنيفة . وقد استعان بعض ذوى الطموح بالروس فى الوصول إلى الحكم أو للاحتفاظ بمقاليده، ولكنهم لن يسعدهم أن يظلوا طويلا أتباعاً للروس ، وقد أخذ بعضهم يكشف القناعَ عن هذا الشعور المضمر .

وفى المنطقة الخارجية تغالى السياسة الخارجية السوفيتية فى الاعتماد على سخط الجماهير ، فهذا السخط يفيد على الدوام فى الإعانة على هدم الأنظمة الاجتماعية القائمة . ولكن ينبغى أن تعقب فترة الهدم فترة بناء، فإذا حلت هذه المرحلة فقدت السياسة الخارجية السيوفيتية كثيراً من أتباعها فى الخارج .

واعتماد السياسة السوفيتية على الستار الحديدى هو من أبلغ أسباب ضعفها . إنه يعين قادة السوفيت على أن يزعموا إلى حين أن الإتحاد السوفيتى قد وفق إلى حلّ المشاكل الاقتصادية والاجتماعية كافة، ولكن مثل هذه الدعوى لن يسلم لهم بها طويلا ، لأن هذا الستار يبث الريبة وسوء الظن فى القلوب بثا مطرداً، وسيزداد عدد الناس الذين يرغبون فى النفوذ إلى ماوراء الستار، فإذا تعذّر عليهم ذلك قالوا إن النظام السوفيتى لم يبلغ من النجاح مبلغاً ينزهه عن النقد والمقارنة المحايدة .

وحساب الروس فاسد بلا جدال ، لأنه يقلل من شأن نفوذ العالم الغربى من أن يرى الإنسانية تسامُ سوء العذاب ، ويقلل من شأن تمسكه بالحريات الفردية .

فالنظام السوفيتى لا يعرف الرحمة ، وقد تجلى ذلك فى فترة الانتقال خاصة ، حين قضى على معارضيه، وهكذا كثرت فى المنطقة المتوسطة حوادث الاغتيال السياسى وخطف الناس من بيوتهم على يد البوليس السرى ، لأن آراءهم السياسية موضع شبهة .

وقد أخرج ملايين من الناس من ديارهم ، ومصيرهم المحتوم هو الحرمان فالهلاك . وتحاول ملايين أخرى أن تفرّ من مناطق الاحتلال السوفيتية ، ويفضل كثيرون من المهاجرين الانتحار على أن يردّوا إلى المنطقة المتوسطة أو الداخلية . والذين ألفوا نوعاً من المدنية الراقية ، ينفرون من الاستخفاف بالأرواح البشرية وقلة الاكتراث بالبؤس الإنسانى — أى مايلازم مايتوسل به الروس من وسائل لتحقيق الاتساق السياسى .

والسبيل إلى الحكم على خطة ما لا يكون بالنظر إلى نتائجها فحسب ، بل إلى وسائلها

أيضـاً . ولما كانت الشعوب السوفيتية قد استبسلت في القتـال حين هاجمها هتلر ، فإننا نميل اليوم عند الحكم عليها إلى تذكر شجاعتها وتضحيتها ، وأن نسدل ستاراً على أفعال جيوشها وساستها وبوليسها السرى في البلاد المجاورة لها . ولـكن إذا ماتجلت هذه الأساليب للأنظار ، أثارت بلا جدال مقاومة عنيفــة . ففي النمسا والمجر ، حيث جرب الشعب هذه الأساليب، ترى الأحزاب الشيوعية قد هزمت في الانتخابات هزيمة منكرة .

وستبلغ المقاومة أشدها حين يتطلب تنفيذ الخطة الروســية نزول الناس عن حقهم في حرياتهم . ولم يلق السوفيت نجاحاً إلى اليوم إلا في البـلاد التي لم تتمتع شعوبها بهذه الحريات على نطاق واسع . أما في البلاد التي ألفت هذه الحريات ومارستها ، فإن أبواق السياسة السوفيتية لا تجرؤ إلا على التحدث عن وجوب التحرر من خوف الفقـر ، ولا تذكر شيئاً عن الحريات السياسية والأدبية التي سوف يهدرونها .

ويعمل السوفيت جاهدين على نشر مبادئهم في هيئات العمال المنظمة ، فيسرفون في بذل الوعود لها ، ومع ذلك فإن هذه الأوساط نفسها هي التي بدرت منها المقاومة الشديدة ، والحكومات التي تقف في وجه طغيان السياسة الروســية هي حكومات العمال في جامعة الأمم البريطانية ممثلة ، في بيفن في بريطانيا العظمى ، وإيفات في أســتراليا ، وفريزر في نيوزيلندة . أما زعماء العمال في الولايات المتحدة الذين يعرفون الحريات الفردية الأمريكية ويعتزون بها ، فيجاهدون جهاداً باسلا — لا يقدره الناس حق قدره — كي يمنعوا تسرب الشيوعيين إلى مناصب القيادة في هيآت العمال . وبعبارة أخرى نجد في البلاد التي نعمت بالحرية الفردية ، أن أشد الناس معارضة للخطط السوفيتية هم اولئك الذين خبروا أساليبها خُبْراً وثيقاً .

ولا ريب في أنه حينما يزداد الأمريكيون إدراكاً للمعاني التي تنطوى عليها النظم السوفيتية ، فإن هذا الإدراك يبتعث فيهم تلك الروح التي دفعت أسلافهم إلى المخاطرة بدمائهم وأموالهم من أجل أن تكفل لهم حرياتهم الفردية .

فيجب أن نستند في عملنا إلى فرض أن السوفيت ، إذا دأبوا على خططـهم ، فلن ينجحوا في بلوغ غايتهم بالوسائل السلمية .

الحاجة إلى بذل مجهود عاجل

إذا شرع زعماء دولة كبيرة في تنفيـذ سياسة قد تدفعنا إلى مقاومتها بالعنف ، وجب علينا أن نضع منذ اليوم خطط هذه المقاومة .

وكلما سارعنا إلى إقامة الدليل على أن هذه السياسة لا يرجى لها نجاح، كان تبدل مظاهرها أقرب وأرجى.

وليس بيننا أحد يسُره أن يواجه نزاعاً دولياً كبيراً يقع فى الوقت الذى نشعر فيه بعد النصر أننا فى حاجة إلى فترة من الراحة، ولا يسرّ أحداً منا كذلك أن يسلم بأن الخطر قد يجيء من أمة ساهمت بأوفى نصيب فى إدراك هذا النصر. وسيحاول بعض الناس الفرار من مواجهة هذه المشكلة، ويكتفون بالنظر إلى الأغراض المحمودة التى تسعى إليها السياسة السوفيتية فيما تزعم. ويدرك بعض الناس ما فى السياسة السوفيتية من مظاهر العسف والقسوة، ولكنهم يتعلقون بالأمل فى أن تكون هذه الظواهر محصورة النطاق أو عابرة لا تلبث أن تتغير، وبعضهم يركن إلى الاعتقاد السائد بأنه ليست هناك أمة تريد أن تشن حرباً أو تكون سبباً فى إثارتها، وبعضهم لا يريد أن يشغل باله بأمور كريهة قد تقع فى المستقبل، مادام الدليل القاطع على أنها ستحدث، لم يقم فعلاً.

وهذه المواقف هى التى تؤدى إلى الحرب إذ يسهل معها الخطأ فى التقدير الذى تنشأ منه الحروب الكبيرة.

صحيح أنه ليست هناك أمة تريد حرباً كبيرة أو حرباً لا تعلم نتائجها. وهذا ما يحدث فى الأعمّ، فالحروب تنشب فى الغالب من جراء بعض الأخطاء، فإن الزعماء يعملون على توسيع رقعة بلادهم ودائرة نفوذها حيث يحسبون أنهم لا يلقون مقاومة. فإذا صدق حسابهم ولم يصادفوا معارضة قوية تابعوا سيرهم. ويومئذ يلقى الرجال الذين نصحوا بالتريّث وضبط النفس ازدراء واستخفافاً، وتنحصر القيادة فى أيدى المغامرين المتهورين فلا يحجمون عن انتهاز كل فرصة سانحة للمغامرة. وأخيراً يتبين لهؤلاء القادة آسفين أنهم أخطأوا التقدير.

وإذا قدر لنا أن نشهد حرباً أخرى فإنها ستقع على هذا المنوال، فلن يثيرها أحد عن خطة موضوعة، ولكن سوف يجرها خطأ فى التقدير.

وقد حُملت الولايات المتحدة فى مدى خمسة وعشرين عاماً على الاشتراك مرتين فى حرب عالمية، لأن الشعب الأمريكى انتهى به الأمر إلى الشعور بأن سياسة العدوان فى أوربة وآسية تهدد مبادئه الديمقراطية ومثله العليا فى حرية الفرد. ولو كان الزعماء فى البلاد الأخرى قد بكّروا وأدركوا أن الشعب الأمريكى يهبّ إلى العمل كما حدث فعلا، لاتبعوا فى الغالب طريقاً غير الذى اتبعوه. فتقصير الشعب الأمريكى فى إظهار

إخلاصه لمثله العليا فى الوقت المناسب ، يجعله مسئولا من جراء إهماله عن تهمة التسبب فى إثارة الحرب — وينبغى له أن لا يرتكب الخطأ ذاته ثلاث مرات فى جيل واحد .

احتمال تبديل السوفيت لخططهم

وعسى أن يسأل سائل : هل فى مقدورنا أن نقوم بعمل يحمل قادة السوفيت على تبديل خططهم الخارجية باختيارهم ؟

لايستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال إجابة دقيقة ، فالسياسة الخارجية السوفيتية لا تحيد فيما يبدو عن مبادئها ، إذ يؤمن قادة السوفيت بأن منح الأفراد بعض الحريات فيه خطر ، وقد قضوا على هذه الحريات فى بلادهم كما تقضى حكومات البلاد الأخرى على حملة الجراثيم الخطيرة . ولكن الحريات التى يخشونها مزدهرة خارج بلادهم ، وهى سريعة الانتشار . وقد أقام قادة السوفيت حول بلادهم حواجز تقى بلادهم عدوى هذه الحريات ، وليس هذا بعلاج دائم ، بل هو نوع من الاحتماء بسجن من السجون ، ولا يطيقه الرجال المقتدرون الطامحون الذين يدركون عظمة بلادهم ويحبون لها أن يكون لها شأن عالمى ، ولذلك تراهم يسعون إلى الظفر بتأييد الحكومات الأجنبية لمعاونتهم فى القضاء على هذه الحالة .

وقد يقال إن السياسة الخارجية السوفيتية لامفر لها من أن تظل كما هى مادامت الحالة الداخلية فى روسيا باقية أيضاً كما هى ، ولكن قلما تتتابع الحوادث فى حياة البشر على منوال منطقى بحت ، فإن قادة السوفيت اليوم أقل تعصباً من أسلافهم ، وقد أدخلوا على سياستهم الداخلية تعديلات كثيرة قضت بها الحكمة . فالشيوعية كما هى اليوم فى روسيا تختلف — من الوجهة الاقتصادية — اختلافاً بيناً عن الشيوعية التى نادى بها ماركس وطبقها لينين وتروتسكى . وكذلك تغيرت السياسة الخارجية السوفيتية ، فقد كان المسوّغ لها فى الماضى هو أداء رسالتها المقدسة لتحقيق الثورة العالمية ، أما المسوغ لها اليوم فهو كفالة أمن الاتحاد السوفيتى .

ويبدو على الحركات السياسية السوفيتية فى الخارج — إبان عهد ستالين — أنها تحاول أن تزن بميزانها احتمال النجاح واحتمال الخطأ . وقد غالى بعض الممثلين السوفيتيين فى مواقفهم أحياناً ، ولكن ستالين أمرهم بالتراجع حين لقى معارضة غير منتظرة ، فخفت بذلك حدة التوتر . وكل هذا يدل على أن السياسة الخارجية السوفيتية قابلة للتبدل إذا اتضح لقادة السوفيت بجلاء أنها غير مجدية ، وأنها لن تؤدى فى الواقع إلى تعزيز سلامة الاتحاد السوفيتى .

ومع ذلك فلا يجدينا أن نتجادل فيما عسى أن تكون نيات الكرملين ، فهذه ملهاة عقلية ولكن لا نفع فيها ولا جدوى منها . أما العمل فسبيله واضح، ينبغى أن يكون أساسه أن نعمل ما يفيد فى حمل قادة السوفيت على تبديل خططهم الخارجية . وإذا لم نمض قُدُماً فى سبيلنا على هذا الأساس كان إخفاقنا محققاً ، لأننا إذا فرضنا أن قادة السوفيت مثلا لا يمكن أن يحملوا على تبديل سياستهم الخارجية ، أفضى ذلك بنا إلى التسليم أو إلى الحرب . وإذا أخذنا بالقياس على الماضى، فإنها هى الحرب. ولذلك لا يبقى أمامنا — من الوجهة العملية — إلا أن نفرض أن قادة السوفيت يمكن أن يبدلوا خططهم .

ولكن يجب علينا أن نفرض أيضاً أنه من العسير جداً إحداث مثل هذا التبدل ، لأننا لا نستطيع أن نتوقع أن تطيب نفوس قادة السوفيت بتبديل سياسة تتجلى فيها روح الشيوعية السوفيتية وفلسفتها الأصلية ، وما بعثته من نجاح عظيم فى أول عهدها . ومما يزيد فى الصعوبة أن قادة السوفيت لا يحيطون إحاطة كافية بأحوال العالم ، ولهذا فكل خطة موضوعة لحملهم على تبديل سياستهم يجب أن تدبر بحكمة ، وأن تكفل لها الوسائل القوية اللازمة ، وأن يتحد فى تأييدها الشعب الأمريكى كله .

هيئة الأمم المتحدة

لم نتحدث إلى الآن عن هيئة الأمم المتحدة من حيث هى أداة قائمة لمنع التصادم العنيف الذى نخشاه .

وقد تكون هذه الهيئة ذات نفع كبير فهى قادرة على العمل ولكنها عاجزة عن كثير ، ويجب أن نفهم أوجه عجزها حتى لا تضيع جهودنا أو يخيب اعتمادنا عليها .

وهناك اليوم ثلاثة أساليب تهدد صلات الود بين الأمم ، وتراها هذه الأمة أو تلك خطراً ، ولا تستطيع هيئة الأمم المتحدة أن تسيطر عليها :

(١) تتوسل الدول الكبيرة بوسائل العنف أو الأساليب الخفية لكى تسيطر على الحكومات فى الدول الضعيفة .

وقد عرضت على مجلس الأمن قضيتان تمثلان هذه الحالة : الأولى وجود قوات روسية فى إيران ، والثانية وجود قوات بريطانية فى اليونان . وقد أدت المناقشات العامة فى مجلس الأمن إلى الوعد بسحب هذه القوات عاجلاً ، ولكن المجلس لم ينفذ إلى صميم الموضوع، ألا وهو الإجابة على السؤال الآتى : هل تعرضت الحكومات المعترف باستقلالها لضغط خارجى غير مشروع ؟

وقد ينجح مجلس الأمن فى إثارة الرأى

العام إلى حد يمنع التوسل بسياسة القوة أن تتخذ مظهراً جافياً . وهـذا ربح ليس بقليل ، ولكنه لايجدى إذا كان أثره مقصوراً على حمل هذه الدول على إخفاء أساليبها فهى تستطيع إخفاء أساليبها بوسائل كثيرة ، وقد توسلت بها الولايات المتحدة فى أول عهدها بالتوسع ، ثم صارت على الأيام أشد إتقاناً وإحكاماً .

إن مجلس الأمن مكتوف اليد فى أمرها ، وإذا نجح نفوذ دولة كبيرة فى التسرب إلى دولة صغيرة ، فإن حكومة تلك الدولة تعلن تحت ضغط هذا النفوذ ، أنها راضية عنه . أما إذا نجح هذا التسرب بعض النجاح ، فإن مظهره الخارجى يكون قيام حرب أهلية . وفى كلتا الحالتين لاتستطيع هيئة الأمم المتحدة أن تتدخل فى الأمر ، لأنها تكون فى ظاهر الأمن متدخلة فى الشئون الداخلية للدولة . وهذه الحال تقلق البلاد الكبيرة والصغيرة ، لأن الشعوب الصغيرة قد تفرض عليها حكومات تخضع فى الأمور الهامة لرأى دولة أخرى ، وهذا هو لباب الخطة التى يتبعها الاتحاد السوفيتى فى المنطقة المتوسطة. وكذلك ترى الدول الكبرى فى هذه الطرق خطراً يهدد مكانتها فى العالم ، فإن سياسة روسيا فى البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط تبعث زعماء بريطانيا على الشعور بأن أمتهم معرضة لخطر كبير لا يقل عن الخطر الذى تعرضت له حين دقَّ روميل أبواب مصر . ويرى الشعب الأمريكى أيضاً فى النشاط الشيوعى فى جمهوريات أمريكا اللاتينية ، أول تحدٍّ خطر لمبدأ مونرو واتفاق شابلتبيك ، وكذلك يشعر الروس أنهم إذا كفوا عن مساعيهم فى المنطقة المتوسطة فإن دولاً أخرى تبذل مثل هذه المساعى . وهكذا يجثم الخوف على قلوب الناس بسبب هذه الأساليب الدولية التى تعجز هيئة الأمم المتحدة عن معالجتها .

(٢) وهناك أسلوب آخر يخشاه قادة الروس فيما يذهبون إليه ، ألا وهو ماننتمتع به من حرية فى إثارة البغضاء . وقد قال فشنسكى إن سوء استعمالنا لهذه الحرية « يؤدى إلى ارتكاب جرائم ضد أعضاء هيئة الأمم المتحدة » . وقد اتهمنا مولوتوف فى اجتماع وزراء الخارجية فى لندن أننا نريد من وراء المطالبة بحرية الصحافة فى رومانيا إثارة الرأى العام فى رومانيا ضد الاتحاد السوفيتى ، لاتقرير مبدأ حرية الرأى . وقد ذكر أن دستور الاتحاد السوفيتى يعاقب كل من يسعى لنشر الكراهية العنصرية ، وطالب بأن توفر الدول الكبيرة للاتحاد السوفيتى حماية تحميهم من الكراهية والاحتقار .

وقد نستغرب مثل هذه المطالب إذ كانت

الشيوعية نفسها تعتمد على إثارة الكراهية بين الطبقات . ولكن مخاوف الشيوعيين قد تكون صادقة ، لأنهم عاشوا دائماً فى خطر ، وهم داخل بلادهم فى حمى من مهاجمات الصحافة والخطابة ، فلا عجب بعد أن عاشوا ثلاثين سنة فى كل هذه الحماية أن ينمو فيهم اليوم خوف من عالم يتمتع بحرية توجيه الانتقاد إليهم وإلى الأنظمة التى يدافعون عنها . وليس فى ميثاق الأمم المتحدة نصوص تتعلق بشأن حرية الصحافة والانتقاد وحسن استعمالها أو سوء استعمالها.

(٣) والأسلوب الثالث الذى يثير النزاع الدولى ، هو استخدام الحرية فى القضاء على الحرية . فإن الدعوة السوفيتية تستخدم ما عندنا من حرية الصحافة والخطابة والمراسلات ، لتتمكن من تحويلنا إلى أمة تقضى على هذه الحريات . ويضيق الشعب الأمريكى صدراً حينما يرى الأجانب ينتفعون كل الانتفاع بهذه الحريات التى عنده ، وينكرون عليه أن يكون حراً فى أن يختبر حقيقة ما يدعون أنه كائن فى بلادهم . ولو أقمنا بيننا وبينهم سداً كما يفعلون ، لأدّى هذا إلى زيادة الريبة واتساع شقة الخلاف بيننا. وليس العلاج الصحيح تضييق هذه الحريات بل مدّ نطاقها حتى يتسنى لكل شعب أن يعرف أحوال غيره على حقيقتها . ولكن ليس لهيئة الأمم المتحدة سلطان فى فرض هذا الحل النافع .

وكذلك ترى أن هيئة الأمم المتحدة عاجزة اليوم عن السيطرة على أساليب الدول التى تُعدّ السبب الأول لما يثير الخوف والكراهية فى العالم . فالدول الصغيرة قد تتعرّض للإرهاب ، والدول الكبيرة للخطر ، وحرية الرأى والصحافة لسوء التوجيه ، « والستار الحديدى » قد يسدل للحيلولة دون تنوير الأذهان .

ولا ريب فى أن هيئة الأمم المتحدة ، ستتخذ وسائل لمعالجة هذه المشكلات ، ولكن ذلك عمل بطىء .

وقد ظلت أبصار العالم إلى اليوم شاخصة إلى مجلس الأمن ، فرأت نزاعاً دائماً بين أمريكا وروسيا وبريطانيا ، وهذا النزاع لامفرّ منه ، بل قد أدى إلى نتائج حسنة ولكن لو بذلت الفروع الأخرى لهيئة الأمم المتحدة بعض المجهود لنشر الإخاء بين البشر لقلّ إذن اضطراب التناسق الدولى .

فيجب إذن أن يتخذ أعضاء الهيئة من الجمعية العمومية ندوة عامة يقومون فيها بمناقشة المشاكل التى تشغل أذهانهم فى جو من المجاملة والصراحة ، وجدير بهذه المناقشات أن تعمل على محو سوء التفاهم وعلى التقريب بين وجهات النظر . ولكن لن

يصبح السلم مكفولاً إذا أصبحت هيئة الأمم المتحدة مجرد ندوة تكاشف فيها الأمم بعضها بعضاً بما بينها من خلاف ، بل يجب أن تكون هيئة تنظم فيها جميع الدول جهودها وتضع مشروعاتها لرقى البشر وللنفع المتبادل . فمن مثل هذا يتولد الإخاء وتزيد الثقة والتسامح مما يقتلع جذور الشر التى نذوقُ نكالها اليوم . والسير فى هذا السبيل عسير ، لأن الاتحاد السوفيتى يأبى الاشتراك فى المؤسسات التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، ولكن لا ينبغى أن نرى فيه عدولاً نهائياً بل ينبغى أن نجاهد ونستعين بكل حيلة لحمل الروس على التعاون مع بقية الشعوب . ولكى نيسّر ذلك ينبغى أن يكون لهيئة الأمم المتحدة شأن أعظم فى تهيئة هذه المهامّ ، ولا ينسينّ أحد أن المجالس التابعة للهيئة ، قد وضع أصولها رجالٌ ، بعضهم بعيد عن التسامح بُعْدَ رجال السوفيت أنفسهم عنه . فروسيا لم تشترك فى تأسيسها بل دُعيت لقبولها أو رفضها .

وينبغى أن يفهم كلُّ إنسان أن الأمم المتحدة ليست أداة بلغت الكمال ، وأن قدرتها على صون السلام لا يتطرق إليها خطأ أو وهن . فالحرب لم تلغ بعد ، وسلام الناس وأمنهم رهنٌ بما يفعلونه ، وبقدرتهم على إقامة الدليل على أن المجتمع الديمقراطى فيه قوة وحياة لا يريد أحد أن يقضى عليهما لو قدر ، ولن يقدر لو أراد .

الخلاصة

لم نتعرض إلى بحث بعض حالات معينة كإيران وبولندة والطاقة الذرية ، لأن غرضنا الأول هو إيجاد تفاهم عالمى يعين على حل مثل هذه المشاكل .

والخلاصة أن مشكلة حقوق السلم لا تحل إذا جعلناها مرتبطة بضرورة احتفاظ كل أمة بوضعها الراهن ، كما يتعذر حلها إذا سعت دولة كبيرة إلى فرض أنظمتها بالقوة على غيرها .

فإذا دأب الاتحاد السوفيتى على سياسة التوسع للمحافظة على سلامته ، فإن الولايات المتحدة لن تجد مفراً من مقاومته . فمشكلة إيران ليست مشكلة اقتصادية مرجعها إلى الخلاف على آبار الزيت ، بل هى مشكلة سياسية ترى فيها أن الاتحاد السوفيتى يخطو خطوهُ فى طريق بسط نفوذه على العالم .

أما أسرار الطاقة الذرية ، فالمسألة التى تواجه الشعب الأمريكى هى : أيكشف هذه الأسرار لبلد لا يؤمن زعماؤه بما يؤمن به هو من التسامح والإخاء ؟

إن الاتفاق مع الاتحاد السوفيتى يسهل إذا أثبت زعماؤه أنه يقبل عالماً تعيش فيه الأمم جنباً إلى جنب رغم اختلاف أنظمتها .

حواس خارقة

ألن ديفو

يرجع سر كثير من غرائب أفعال الحيوان إلى الحدة الخارقة فى إحساسه المرهف . ونحن وإن كنا قد أوتينا مواهب عقلية مختلفة ، إلا أن هناك طائفة من « المدركات » يفوقنا الحيوان فى إدراكها بفضل ما عنده من حواس مرهفة دقيقة التصور ، وبفضل قدرته على أن « يحس » الأشياء .

إذا كنت قد قضيت بضع ساعات قبل أن تقرأ هـذا ولم تنظر إلى سـاعتك ، فاجتهد وخمّن الوقت ، ثم انظر فى ساعتك . فكم كان فرق ما بينهما ؟ نصف ساعة ؟ ربع ساعة ؟ إذن فالنحلة أدق منك . فقد أجريت تجارب دقيقة فى إنجلترا تبين منها للعلماء أنهم إذا ظلوا أياماً يقدمون للنحل طعاما فى ساعة معينـة ، ألِفت ذلك ، ورأوها آتية من كل فجّ فى ساعة الطعام . ويبلغ من دقة توقيتها أن موعد وصولها لايختلف إلا اختلافا يسيراً يبلغ نحو خمس دقائق . وإن لها لبراعة دقيقة فى الإحساس بمرور الوقت تجعلنا نخجل لعجزنا ، على كل ما عندنا من ساعات متقنة معقدّة التركيب .

وقد يخدّر النمل أو النحل سـاعات عديدة، ومع ذلك تراها تحافظ على مواعيدها. وتبلغ غايتها المحددّة فى وقتها المحدّد .

يضع أكثر الناس فى فنجان القهوة ملعقة من السكر ، فإذا وضع فيها مقداراً أقل فقلما يدرك اختلاف حلاوة القهوة . وغاية ما يبلغه ذوق البشر من القـدرة على تبين الحلاوة فى السائل المحلّى ، هى حين يكون مزيجاً من جزء من السـكر و ٢٠٠ جزء من السائل ، فما أبعد هذا وما أقصاه عن دقة ذوق الذباب ! فبعض الذباب يتبين الحلاوة إذا كان السكر المذاب جزءاً واحداً فى ٤٠٠٠٠ جزء من الماء . بيد أن الذباب يكاد يكون عديم الذوق إذا قورن بكثير من صنوف الفراش التى دلت على أنها قادرة على أن تتبين حلاوة جزء من السكر مذاب فى ٣٠٠٠٠٠ جزء من الماء .

إذا أخذت فراشة أنثى من الفراش الضخم وأدنيتها من أنفك ، فما تحنث إذا أقسمت أنك لم تجد لها رائحة . ولـكن خذ هذه الفراشة الأنثى وادخل الغرفة ثم ضعها على باطن الستر الشبك المسدَل على نافذة

مفتوحة ، ثم انتظر قليــلا . فإذا بك ترى سرباً حاشداً من الفراش الذكر قد تهافت على ظاهر الستر . وربما كنت لم تر قبل ذلك فراشة واحدة فى هذا المكان أو فى الحى كله ، غير أن ريح الأنثى قد جذبَ الفراش فملأت الجو كأنها ظهرت بسحر ساحر . وقد جرّب هنرى فابر تجارب على طائفة من الفراش يسمى فراش الطاووس ، فوجد أن ذكورها يستروح الرائحة الخفية التى تنفَح من إناثه وهى على بعد ميل منه، هذا على أننا لانستطيع أن نتبين هذه الرائحة وهى على بعد بوصــة من أنوفنا . ولعل أعظم عجيبة فى حدّة حاسة الشم هى أن كثيراً من ذكور الفراش تستطيع إذا شمت إحدى الإناث منها أن تعرف أتزوّجت هذه الأنثى من قبل أم لاعهد لها بالذكور.

ما مبلغ دقة شعورك بالحرارة أو البرودة؟ الحقيقة أنه لابدّ من أن ترتفع درجة حرارة مايحيط بك بضع درجات أو تنخفض بضع درجات حتى تلاحظ هــذا التغير ، على أننا وجدنا أن إحساس كثير من الحيوان بالحرارة يبلغ مبلغاً لايصدّق . فقد أجرى بعض العلماء فى متحف التاريخ الطبيعى فى أمريكا ، تجارب على حيّات من طائفة « الأفاعى المضرّســة » التى منها ذوات الأجراس ، والتى أخذ اسمها من الضروس أو البثور الخشنة الصغيرة الموجودة على ظهور التماسيح . وهــذه الضروس هى الأعضاء التى تحسّ بها حرارة الجو .

وقد أجريت سلسلة من التجارب استعمل فيها مصباحان كهربائيان متشابهان لافرق بينهما سوى أن حرارة أحدهما أعلى من حرارة الآخر بقدر طفيف ، (ومن طباع الحيّات إذا رأت شيئين أن تأوى إلى أدفأ الشيئين) . ثم أخذ المجربون يقللون فرق مابين درجة حرارة المصباحين شيئاً فشيئاً ، فرأوا أن الحيات لم تزل تأوى إلى أدفأ المصباحين صادفة عن أبردهما حين قلّ الفرق بين درجة حرارتها حتى بلغ أقل من خمُس درجة . فبلغت الدهشة منهم كل مبلغ ، وأخذوا يوغلون فى التجربة حتى استعملوا جثث الفيران الميتة . فمن أجل ذلك عصبوا أعين الحيّات وسدّوا مناخيرها ، وأطلقوها ليعرفوا مبلغ قدرتها فى تبين جثث الفيران من شىء واحد هو ما تشعّه الجثث من الحرارة . وليست قدرة الحيات مقصورة على أنها تتبين الحرارة ولا تخطئها من مسافات بعيدة لايستطيع الإنسان من عندها أن يتبينها البتة ، بل إنها تتبينها على مسافة عجز عندها أدقّ مقاييس الحرارة وأحكمها عن أن يدلّ على أىّ تغير .

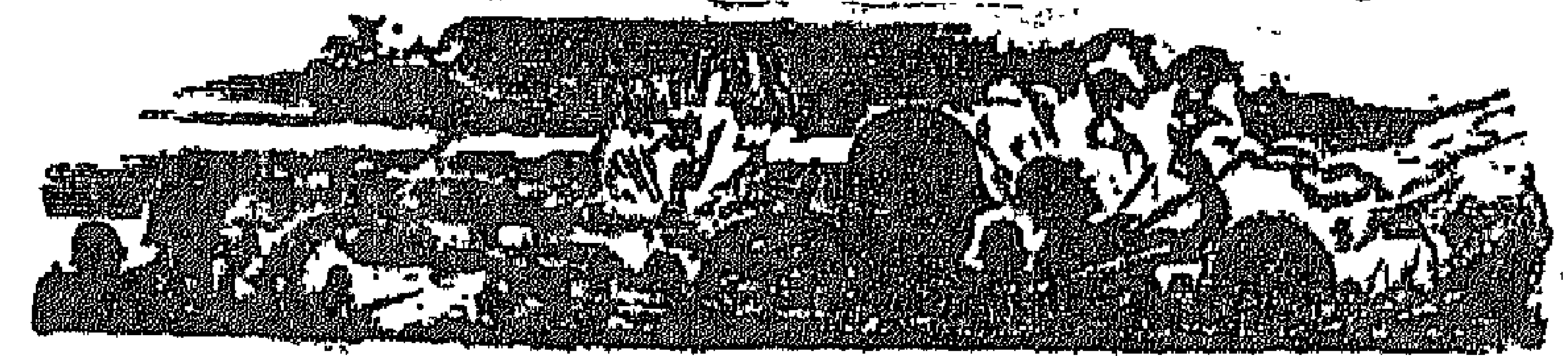
إذا راقبت طائر الصيف الأحمر المعروف بأبي الحنّاء وهو يتواثب صيفاً على المروج الخضر يلتمس دود الأرض الذى يدبّ فى بطنها ، لرأيته يقف ساكناً لاحراك به بين الحين والحين ، ويميل برأسه جانباً كأنه يريد أن يدقق النظر إلى الأرض . بيد أن علماء الطير قد وجدوا أنه يفعل ذلك لأنه « يُصغى » ويتسمّع ذلك الحسّ الدقيق الذى تحدثه الدودة وهى تخشخش متحركة فى مساربها . ويشبه هذه العجيبة فى دقة السمع هو ما يكون من الخُلْد الأعمى فى تبين الحشرات التى يغتذى بها . فهو يقف ساكناً فى وجاره فيسمع أخفى طنين أو نبْأة تحدثها حشرة فى طرف قصىّ من جحره .

والكلاب أيضاً قد أوتيت حاسة سمع عجيبة ، كما ثبت بالاختبار ، فقد وجد العلماء أن الكلب يستطيع أن يسمع طقطقة الساعة أحسن سمع وهو على بعد ٤٠ قدماً ، فى حين أن الرجل الحاد السمع يسمعها بشِق النفس من بعد أربع أقدام . ومعنى هذا أن الكلاب تعيش فى عالم تبلغ فيه قوة الصوت عشرة أضعاف ما نسمع نحن .

كان علماء التاريخ الطبيعى ورجال الغابات يعتقدون منذ قديم أن الحيوانات تستطيع أن « تشعر » بالأشياء و « تحسّ » بها بأساليب يعسر علينا أن نتصورها . وحسبنا القدرُ الذى بلغه علمنا بالإحساسات الخارقة فى عالم الطبيعة ، فهو يجعلنا ندرك شيئاً من سرّ النشاط العجيب الذى نتبينه فى حركة الحيوان ومعيشته . وقد وجد العلماء أن فى السمك خطاً ممتداً على كلا جنبيه ، وفى هذا الخط أعضاء بالغة الدقة لاتراها عين ، وهى التى يعرف السمك بها مقدار ضغط الماء . وصغار الأسماك التى تنطلق سابحة فى ظلمة الماء وتياره لاتعثر أو تصطدم البتة بصخرة قائمة فيه ، لأنها « تشعر » بالصخرة فى تَبَجّ البحر . وأما ذبّان الثمار أو النحل فإنها حين تنطلق ساعية إلى التماس أرزاقها بين الزهور ، فأكبر ما تهتدى به فى طريقها هو الأشعة فوق البنفسجية التى يخرج تبيّنها عن طاقة الإنسان جملةً من بين ألوان الطيف .

ومهما تطوّح بنا الخيال نحن البشر فلن يبلغ بنا أن نتصور أن نشارك شيئاً من الحيوان فى عالم الحس العجيب ، ولو كان هذا الحلزون الحقير ، فهو يستطيع أن « يرى » ببدنه كله ، فإذا نزعت عيونه بقى كما كان شديد الإحساس بالنور والظلمة ، حتى إنه ليجد للظلّ السارى مسًّا على بدنه .

تمهيد لغزو إفريقية الشمالية لم تنشر قصته من قبل . كيف خدع « نائب قنصل » أمريكي « أبله » ، جاسوساً ألمانياً كبيراً .



"كنا ننتظركم في دكار"

دونالد كوستر
مختصرة من مجلة "ذي أميركان ليجيون"

توطئة بقلم فردريك سوندرن : في ليلة من أواخر سنة ١٩٤٢ تلقت أسراب الغواصات الألمانية الهائلة في جنوب المحيط الأطلسي ، أمراً ملحاً بأن تتجه بأقصى سرعتها إلى مكان يناوح مدينة دكار . ولم تكد تمضي أيام حتى كانت مئة غواصة ألمانية أو أكثر تحوم حول الطرف الغربي لقارة إفريقيـة . وتأهبت جنود فيشي للقتـال في حصون الساحل المنيعة ، التي ردّت منذ سنتين هجوم البريطانيين والفرنسيين الأحرار بقيادة الجنرال ديجول . وكانت عمارة الغزو الأمريكية تشق عباب المحيط الأطلسي إلى كمين ينزل بها كارثة فادحة — أو هكذا ظنت القيادة الألمانية العليا .

ولكن في مساء اليوم السابع من نوفمبر ١٩٤٢ طيرت محطات الإذاعة الألمانية هذه الرسالة : « اسمعوا ! اسمعوا ! لقد نزل جيش كبير للعدوّ ، على ساحل إفريقية الشمالي... » ، ذلك بأن جيوش الحلفاء فاجأت الألمان، بنزولها في مكان من إفريقية يبعد ألفي ميل عن المكان الذي كان الألمان ينتظرونها فيه . لقد نجحت « خدعة دكار » التي كانت من أبرع خدع الحرب وأجداها .

ولقد صاغ دونالد ك . كوستر إحدى الحلقات الخطيرة في هذه الخدعة . وهو شاب رقيق الحديث كان قبل الحرب مديراً في إحدى شركات الإعلان، فلما كانت سنة ١٩٤٠ ألفى نفسه يسوق سيارة إسعاف أمريكية في الجيش الفرنسي، فأسر وقضى في ضنك الأسر عدة أسابيع ، ثم أطلق سراحهُ وعاد إلى أمريكا حيث انضمّ للأسطول . وقد أفضى به حذقهُ اللغـــة الفرنسية إلى مكتب المخابرات البحرية ، ثم نقل إلى مكتب المخابرات الذي يتولاهُ الكولونيـل وليم دونوفان . ولندع دونالد يروي روايته :

دُعيت فى يوم أحد إلى مكتب الكولونيل دونوڤان فقال : « إنك موفد إلى إفريقية إلى مدينة الدار البيضاء . إنها أهمُّ موقع فى العالم الآن » فطرفت بعينى ، فقال : «سوفَ تُغـْزى إفريقية الفرنسية فى يوم ما ، فإما أن يغزوها الألمان ، وإما أن نغزوها نحن ، فعليك أن تتأهب لمواجهة الاحتمالين . وينبغى لنا أن نعرف خطط الألمان ساعة يستقرُّ رأيهم عليها » .

فقلت : « سمعاً وطاعة » وبلعت ريقى .

فقال : « إن فى الدار البيضاء لجنة ألمانية للهدنة تسهر على تنفيذ الشروط التى فرضها النازيون على فرنسا فى سنة ١٩٤٠ ، فيحسن بك أن تحملهم على أن يعتقدوا أننا إذا ما غزونا إفريقية فسوف نغزوها من دكار ، أما الوسيلة لتحقيق ذلك فأترك تقديرها لك » .

فغصّ حلقى حين أدركت مغزى الكلمات التى فاه بها الكولونيل دون اكتراث .

ثم قال : « ومن الخير لك أن تمكث قليلا فى لندن ولشبونه وجبل طارق ، لتلتقط ما يتيسر لك من أنباء من رجال المخابرات البريطانية . هذا كل ما فى الأمر » .

فخالجنى مثل شعور صبيّة الأسطورة حين همّت باقتحام غابة تعجُّ بالذئاب فى منتصف الليل ، وتلاحقت فى خيالى صور السفّاحين من الجستابو والجواسيس المجرّبين ، ووسائل النازى البارعة فى الاغتيال .

ولم تكد تمضى أيام حتى ألفيت نفسى « نائب قنصل » يأخذ مرتبهُ من وزارة الخارجية . وقد لجأ دونوڤان إلى هذه الوسيلة ، لكى يستر أمر رجالهِ العاملين فى أرض تابعة لحكومة فيشى ، فهى تعدُّ على الحياد .

وفى وشنطن درّبت تدريباً حثيثاً على الرموز التى ينبغى أن أستعملها ، وعلى قليل سواها . فمدرسة الجاسوسية المحكمة التى درّبت رجالنا فيما بعد على كل شىء ، من فتح الخزائن إلى أساليب الاتصال بجاسوس آخر على ناصية الطريق فى بلد العدو دون أن يتعرّض أحدهما للخطر — تلك المدرسة كانت لا تزال فى ضمير المستقبل ، وما كنت يومئذ أعرف شيئاً من فنون الجاسوس ولا التحايل على فتح درج فى مكتب . فأحسستُ يوم أخذت طريق الجوّ إلى لندن بعجزى وقلة حيلتى .

ثم هجمت على مصادفة من تلك المصادفات الغريبة ، فقد لقيت فتاة إنجليزية عند بعض أصدقائى ، وكان قد طرق سمعها أننى مسافر إلى شمال إفريقية ، فتوسّلت إلىّ أن أعينها فى البحث عن صديق لها عزيز عليها ، وهو نمسوىٌّ يُدعى « فريدى » ، كان قد تطوع فى الكتيبة الأجنبية الفرنسية ، وأغلب

الظن أنه معتقل فى مكان قرب الدار البيضاء . فارتبك الجاسوس الغرُّ ارتباكا شديداً ، لأنّ أمر حـلّى وترحالى كان ينبغى أن يكون سرًّا مكتوماً ، فوعدتها وعداً فاتراً بأن أجرب أن أعرف مكان صديقها النمسوى.

ولقيت فى لندن ولشبونة وجبل طارق كبار رجال المخابرات البريطانية فألفيتهم ، رجالا يمتازون بالحاشية الرقيقة والطلعة المهيبة ، وقد رأيت من ثقتهم واعتدادهم بأنفسهم ماردّنى جزعاً على ضعفى وقلة حيلتى ، فكنت ألتزم الصمت حين يأخذ الكبار يتحدثون . وقد أنبأونى عن الجنرال تيودور أوَر رئيس لجنة الهدنة الألمانية ، فبدا لى من كلامهم أنه خصم خبيث عنيد ، وكان لهُ هيئة لمقاومة الجواسيس منظمة أحسن تنظيم ، لا يعرف رجالها معنى الشفقة.

وقد هزَّ الإنجليز رؤوسهم ليدلّوا على شكّهم فى نجاحى فى إقناع الجنرال بأى أمر ذى شأن إن لم يكن أمراً صحيحاً ، لأنهُ يعرف حيل الجواسيس جميعاً . ونبهونى إلى وجوب السهر على سلامتى ، فللألمان أسلوب خاصٌّ بهم فى معالجة من يضايقهم من الناس ، إذ يستدرجونهم إلى الأزقة ثم يطعنونهم بالمدى . وقبيل قيام طائرتى من جبل طارق أقبل علىّ رجل إنجليزى كالح الوجه ، وربّت على كتفى وقال : « أتمنى لك الخير ياصاح ، لن تبرح فكرنا » ، قالها كأنه يشيّعنى إلى مثواى الأخير .

أما فى الدار البيضاء ، فقلَّ بين ممثلى أمريكا السياسيين من كان يعلم ما يفعلهُ رجال الكولونيل دونوڤان ، وكان رجال القنصلية شديدى البَرَم بهؤلاء المعاونين الشبان الذين لا يعنون أقلَّ عناية بأعمال القنصلية ، ويسيرون على نهج لا يليق بمناصبهم فى محادثة عمال الميناء والصيَّادين وغيرهم من شذَّاذ الآفاق . وكنا نجهد ونشق فى إخفاء أجهزتنا اللاسلكية الخاصة عن بعض زملائنا الفضوليين .

وقد يسّر لى وسام صليب الحرب الفرنسى الذى فى عروة سترتى، وحذقى اللغة الفرنسية، أن أوثق عرى الصداقة مع بعض الناس ، وأن أتسقط الأخبار . وقد أعاننى فريق ممن أثق بهم من خصوم ڤيشى على الاستيثاق من صدق مراجعنا ورسم لى صاحب أسطول من سفن الصيد خريطة تبيّن مسالك الماءِ المأمونة إلى ساحل مراكش . ودبر مهندس فرنسى فرّ من السخرة فى ألمانيا ، أمره حتى يتبعنى إلى الكنيسة ، وسلّمنى ونحن جلوس فيها رسوماً تبيّن أحدث أبراج المدافع المضادة للطائرات ، وهى أبراج أرغمه الألمان على المشاركة فى تشييدها . وقيد كانت هذه

المعلومات ذات شأن عظيم، ولكننى وجدت أننى لا أدنو شيئاً من جناب الجنرال أوَر.

ثم حدثت لى ذات ليلة مصادفة غريبة ثانية: فقد كنت جالساً مع نائب قنصل آخر فى مقهىً سيىء السمعة على رصيف الميناء، حيث كنا نسمع أنباء السفن الغادية والرائحة، فمرَّ بنا شابان، فصاح صاحبى، « ولتر »، فوقف الرجل، فقال صاحبى: « تفضل أقدم لك صديقى دونالد كوستر، فهو فى القنصلية أيضاً » فجلس الشابان، فرويا لنا أنهما نمسويان كانا فى فرنسا يوم غزاها الألمان، وأنهما التحقا بالكتيبة الأجنبية الفرنسية، ثم اعتقلا فى معتقل تابع لحكومة ڤيشى، فاستطاعا أن يفرَّا إلى الدار البيضاء. ومضى ولتر روايته فقال: « وإذا بى أرى فى أحد الأيام تيدى أوَر الذى يدير لجنة الهدنة الألمانية، وقد كنت أعرفهُ فى باريس قبل الحرب ».

وختم ولتر كلامه بقوله: « فاتفقنا معهُ على أن نزوّده بالأخبار، فى مقابل أن يتركنا أحراراً. فنحن كلانا أعدى عداة النازيين، ولا مطلب لنا سوى هلاكهم ».

فجعلت الخواطر تتزاحم على فكرى: إما أن يكون أوَر قد بعث ولتر وصديقه ليقتفيا أثرى، وإذن فأنا حيال شرك، وإما أن يكون وجودهما فرصة من فرص الدهر.

وكنت لا أزال مستغرقاً فى التفكير حين التفت إلى النمسوى الذى فاتنى اسمه، وقال: « أوصلت من لندن منذ عهدٍ قريب؟ »

وتنهد وقال: « لى صديقة رائعة هناك. آه لو كنت أستطيع أن أعود ... » وأخرجت حافظتى لأدفع الحساب، وإذا بالنمسوى يكاد يثب علىَّ، وصاح: « هذا خطها » وأشار إلى ظرف فى حافظتى، وقد كان ظرف رسالة تلقيتها من تلك الفتاة الإنجليزية التى لقيتها فى لندن، وكان خطها كبير الحروف ينم عليها. أما هذا الرجل فهو طبعاً « فرياءى » الذى سألتنى أن أبحث عنهُ.

وفى هدأة الليل تكونت فى ذهنى خطة واضحة، أساسها أن أبدو شاباً عابثاً ثرثاراً ضعيف العقل، وأن أزوّد النمسويين، فى ساعات المعاقرة بأخبار دقيقة ولكنها ليست ذات شأن خطير، فينقلانها إلى أوَر. وكنت قد قرأت فى الكتب عن مثل هذه الخطة، ولكننى لم أظنَّ أنها خطة يُرجى لها أقلُّ نجاح، بيد أنى عجزت يومئذٍ عن أن أفكر فى أية وسيلة أخرى.

ومضت أيام فإذا أوَر لم يكتف بأن يصدّق رواية النمسويين وحسب عن هذه اللقطة التى هى أنا، بل فتح لهما زجاجة شمبانيا.

قال: « أجل. هؤلاء الأمريكيون جميعهم بله. أسكروهم يبوحوا بما عندهم ».

لم يكن أول ما طلبهُ أوَر من المعلومات مطلباً عسيراً ، فقد كان الجنرال يمتحن هذا المصدر الجديد بما يتبينه من دقة فى التافه من الأمور .

ثم لقيت الرجلين ذات يوم فوجدتهما فى كرب شديد ، ذلك بأن الجنرال ثارت ثائرته فى الليلة السابقة ، وصاح بهما : « أيها الخنازير . إنكما لاتعرفان هؤلاء الأمريكيين وإنما تحتالان على سرقة مالى » . وقد أقسم له ولتر وفريدى أنهما يعرفان الأمريكيين معرفة وثيقة ، وأنهما يستطيعان أن يقيما الدليل . فقال : « إذن أقيما الدليل على أسرع وجه ، فإن لم تفعلا بصّرتكما بما يكون مصير من يخدع قائداً ألمانياً » .

فرأيت خطتى تنهارُ بين يدىَّ ، فقد ساورت الريبة الجنرال أوَر ، وسوف يطلق علينا رجال مقاومة الجاسوسية ، فيتعرّض عملنا كله للخطر بعد أن سرنا فيه دون اعتراض الألمان أو تدخلهم، مما أثار دهشتنا . وإذا ضوء من الأمل قد أشرق : « لِمَ لا تقولان للقائد ، إنه إذا أراد أن يرى بعينيه صدق صداقتنا ، فليحضر غداً مساء إلى مطعم السوق السوداء الذى نؤمهُ قرب البحر ، ويرانا نتعشى معاً »

ثم قلت : « وسيرى منى ما يقنعه » . فارتدّ اللون إلى وجهى النمسويين المتقعين ، وقال ولتر متوقراً : « وعلى الجنرال أن يدفع ثمن العشاء ! »

لن أنسى تلك الليلة ما حييت . كانت أعصابنا متوفزة ، وما كدنا نهمّ بأكل لحم السوق السوداء حتى أقبل الجنرال النحيل الأشقر ، الحاكم المستتر لإفريقية الشمالية الفرنسية ، وكان يحفُّ به كبار رجال اللجنة ، واتخذوا مجالسهم على مقربة منا ، ولزمنى إحساس غريب بأن الجنرال يحدّق فىّ بين كتفى .

ثم تظاهرت بالسكر ، وجعلت أضرب المائدة بيدى ، ورويت روايات تفضح بعض أسرار وزارة الخارجية ، وصحت طالباً المزيد من النبيذ ، وجعلت أناقش الندل ، وظللت أربّت على ظهر ولتر وفريدى ، وأسدد فى الحين بعد الحين نظرة عداء إلى الألمان ، وأحبس أنفاسى جزعاً على ما يكون من أمرها . وإذا النمسويان قد أخذا يسترخيان شيئاً فشيئاً ، وهمس ولتر فى أذنى فقال : « أحسنت ، الجنرال راض ! فأنا أعرف علامات رضاه . لقد أخذ يطمئن ، وقد وقع هذا من نفسه موقعاً عظيما » .

ولكى أبلغ الغاية من الخطة ، وقفنا فى سياراتنا خارج القنصلية الألمانية بعد قليل ، وصرنا نغنى بأصوات منكرة .

وفى اليوم التالى قدم فريدى للجنرال

بياناً بضعة آلاف من الفرنكات ثمناً للعشاء، فتألق وجه القائد بشراً، ودفع المبلغ وأضاف إليه مكافأة كبيرة . وقال وهو يضحك : « أما الآن فعليكما أن تستخرجا من هذا المعتوه أخباراً هامة عن الأمريكيين وتعودا إلىّ بها » . أما أنا فلم أكد أصدق ما كان من حسن حظى ، فقد بدأ الجنرال يدعو النمسويين إلى حفلاته الفاخرة، وكان يستمعان إلى أحاديث تدور فى موضوعات يهمنا أمرها : فرجال الكيمياء من الألمان مكبون على تحضير مقادير كبيرة من غاز جديد ، والقيادة الألمانية العليا قد صرفت همها عن غزو شمال إفريقية من إسبانيا . وكنا فى كل ليلة نرسل هذه الأخبار بالراديو أو فى الحقائب السياسية .

ولبثت ألمح لولتر وفريدى، فى الحين بعد الحين، أن الأمريكيين يهيئون غزواً، فما وافى شهر يوليو حتى كان القلق قد أخذ من الجنرال أور مأخذه ، فأمر النمسويين أن يقفا كل جهدهما على استطلاع مكان الغزو الأمريكى.

فقلت : « قولا لأور إن خطة الهجوم قد أقرت . وسوف ننزل فى دكار فى أواخر الخريف » . ثم سهدتُ ليلى . أيصدق أور هذا القول ؟ أنصب القائد الألمانى ولتر وفريدى ليخدعانى كما أريد أن أخدعهُ ؟ وإذا أسأت التقدير ، فقد وقع علىّ إثم قتل ألوف من جنود الحلفاء .

لقيت النمسويين فى صباح اليوم التالى، فإذا هما فى نشوة ، فقد صاح الجنرال مبتهجاً « سنتمكن من الخنازير الأمريكيين . سوف يقعون فى شرك جميل . ينبغى أن يطيَّر هذا النبأ إلى القيادة الألمانية فى الحال » .

وضغط على زرّ فجاء معاونوه ، وأملى رسالة طيرت إلى فيزبادن مقرّ لجنة الهدنة ، ثم فتحت زجاجات الشمبانيا، وشربوا تحية هتلر ومجد السلاح الألمانى ، وتحية أصدقاء أور النمسويين ، وأيضاً تحية « المعتوه الأمريكى » ، ومنح ولتر وفريدى مالاً كثيراً.

لقد تمّ نصيبى فى تنفيذ خدعة دكار على أوفى وجه ، وقد عزّزته خدع أخرى ، مثل « تسرُّب أخبار » كان غرضها جميعاً تأييد الظن بأن دكار هى هدف الغزو .

وقد راعنى بعد بضعة أشهر أن نزلت مع القوات المتحالفة على ساحل وهران ، على ١٩٠٠ من دكار . لقد تم غزو إفريقية الشمالية بعد قتال يسير ، ودون أن تغرق سفينة واحدة من عمارة الغزو . وقد مضت إلى مطار تفراوى ، حيث أسرنا ٦٠٠ أسير وأمرت أن أتصل بالقائد التابع لفيشى .

فلما دنوت منه تلهب وجهه ومدّ إلىّ إصبعه متهماً وانفجر فقال : « لمَ نزلتم هنا ؟ لقد كنا ننتظركم فى دكار » .

لا تعكّر صفو طعامك

إدوارد ڤنسنت أوبراين

مختصرة من صحيفة "شيكاغو ديلي نيوز"

زرت أحد معامل البحث منذ عهد قريب ، فجعلت أطوفُ في أحشاء قطةٍ ناعمة الملمس راضية العيش ، وكانت قد فرغت لساعتها من وليمة شهية أكلت فيها الكبدَ وسواها من أطايب طعام القطط . وبينما هي مستلقية على مائدة المختبر ، مغفية تهرُّ هرير الرضى ، نفذ العلم إلى أحشائها مستطلعاً بجهاز « الفلوروسكوب » .

كان هضمها على ما يبدو سائراً سيراً مطرداً لا يعوقه عائق ، وكانت القطة ساكنة سكون صفحة البحر في ليلة صيف ، وإذا أسطوانة تدور على جراموفون مستتر ، فتردِّد في دورانها نباح كلب سُجِّل عليها ، وإذا القطة المغفية قد وثبت إلى قدميها ، فتقوس ظهرها ، وقفَّ شعرها ، واتسعت حدقتاها ، وبرزت مخالبها .

بيد أن هذا التحول العجيب في مظهرها لم يكن شيئاً يذكر حيال ما حدث في أحشائها . فقد تدفق الإفراز من غدَّتيها الكظريتين (فوق الكليتين) ، وغمرت معدتها عصارات الهضم ، وانقلب انقباض العضل في الأمعاء ، وباتت قطعة الكبد اللذيذة ، كأنها في جوفها قطعة حجر .

رأيت ذلك كلَّهُ ، فتأملت تأمل المشفق على ما ارتكبته من خطأ — وهو خطأ لم يزل معظم الآباء يرتكبونه فيما أخشى .

ما من أحد يشك الآن في أن الجوَّ الهادىء على مائدة الطعام ضرورة لا غنى عنها للهضم ، فالطعام ينبغي أن يؤكل في جو يسوده السلام ، وإلا كان ضرره أكبر من نفعه . ولكن النظام العجيب الذي نسير عليه في الحياة ، قضى أن يكون وقت الطعام هو الوقت الوحيد الذي يتيح للأب أن يرى أبناءه ، وهو فرصته الوحيدة التي تسنح له لنصحهم وزجرهم وتأنيبهم .

فبدلا من أن يقبل الصغير على طعامه بحماسته المعهودة ، تراه يتوقع أن يسمع من أبيه بين أول الطعام وآخره ، تقريعاً ولوماً على سلوكه في المدرسة .

ولو تهيأ لك أن تفحص جوف هذا الصغير بجهاز الفلوروسكوب ، لألفيت أمعاءه يتلوَّى بعضها على بعض ، ولرأيت معدته يغمرها فيض من الحامض الهيدروكلوريك .

وتنظر إلى أخته التي تستبدُّ بها شهوة الطعام ، كجميع أترابها ، فتراها تصيب من الطعام لِماماً وهي سارحة العقل يستبد بها الوَجَل مخافة أن تسمع أباها يلقي عليها آراءه في نقد سلوك البنات في هذه الأيام .

وحتى الأم التي ألفت منذ سنين أن تسمع

بحث نقائصها وقت العشاء ، ترى غدتيها الكظريتين تفرزان مقداراً خطراً من الأدرينالين ، تأهباً منها لتدفع عن نفسها تهمة سوء تدبير البيت .

فأحشاء هؤلاء الناس ، شأنها كشأن أحشاء القطة حين سمعت نباح الكلب ، ولا تستثني من ذلك أحشاء الأب . فالأب المسكين يعاني أثر القضاء في شئون أسرته في غير وقت القضاء ، فيثقل الطعام عليه ، وقد يشكو في بعض الأحيان ألماً يحمله على الظن أنه مصاب بقرحة في المعدة أو بما هو شر من القرحة .

وليس في وسع أحد من الناس أن يسدي يداً كبيرة لحل مشكلات العالم الضخمة ، ولكن لو راض كل واحد من الناس نفسه على أن ينحّي المناقشات البغيضة عن مائدة الطعام ، لقلت المشكلات التي كتب على الناس أن يلتمسوا لها حلاً .

٥٥٥٥

ثأر الرجل

دُعي المركيز دل جريلو إلى حفلة ساهرة في دار سيدة مشهورة من سيدات لندن ، فاعتذر بأنه ذاهب إلى الريف ، ولن يعود إلا في ساعة متأخرة من مساء الحفلة . فقالت : « لا بأس . شرفنا ساعة تستطيع » . فلما عاد من الريف سار في سيارته تواً إلى دار السيدة .

فلما دخل ذهبت لتستقبله ، فما إن رأته حتى صعدت نظرها فيه وصوّبته ، وقطّبت أساريرها وقالت : « ولكنك يا مركيزي العزيز لست لابساً ثوب السهرة ! إن هذا مستحيل » .

فعاد إلى داره ولبس ثوب السهرة وتزين بجميع أوسمته ونياشينه ، فلما دخل هُرعت إليه مضيفته وهي تبتسم . فانحنى على يدها وقبّلها ، ثم دنا من مائدة العشاء وأخذ بإحدى يديه كوباً من الحساء البارد ، وأخذ بالأخرى حفنة من الثلج الناعم ، ودلق الحساء ونثر الثلج على ثوبه ، فدهش الجميع ، فقال : « ليس المدعوّ إلى هذه الحفلة هو أنا ، بل المدعوّ هو أنت أيها الثوب الفاخر ، فلذلك أطعمك وأسقيك » . ثم انحنى وخرج . [المركيزة ستيلا فيتسلسكي]

لمسة وكفى!

ألبرت ادوارد ويجام
مؤلف "علامات الجيل المتعلم" و "ثمرة شجرة الأسرة" الخ

مختصرة من مجلة "اليوم"

حدث في عصر يوم أن دخل صبي صغير خجول في الحادية عشرة من عمره، عيادة الدكتورة جريس فيرنالد الطبيبة النفسانية بلوس أنجلوس، وناولها رقعة من إحدى المشرفات على المدارس العامة تطلب فيها من الطبيبة أن تشهد رسمياً بأن الصبي ضعيف العقل، وأنه ينبغي أن يرسل إلى إحدى المدارس التي أنشئت لضعاف العقول. فوجدت الدكتورة فيرنالد أنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكنه في الاختبارات التي لاقراءة فيها نجح كأي صبي من الأوساط، فكتبت على بطاقته أنه « طبيعي » وردته إلى المدرسة.

وبعد ساعة عاد الصبي بنفس البطاقة وعليها هذا التعقيب الوجيز: «إذا كنت ترين أن هذا الصبي ليس بضعيف العقل فحاولي أن تعلميه شيئاً » .

أما كيف قابلت الدكتورة فيرنالد هذا التحدي، وكيف استطاعت أخيراً بفضل اهتدائها إلى أمر عجيب، أن تعلم هذا الطفل «الناقص العقل» كيف يقرأ وأعادته لينجح بسرعة في المدرسة — فهذا بعض مايقول عنه الأستاذ لويس ترمان رئيس قسم علم النفس بجامعة ستانفورد: إنه « أروع ما هو حادث الآن في التربية في أي مكان في العالم » .

إن أكثر من نصف تلاميذ المدارس يخفقون قبل أن يصلوا إلى الصف الثامن، ويرجع السبب في إخفاق ربعهم إلى نصفهم إلى أنهم لايستطيعون أن يتعلموا القراءة، ومع ذلك ليس في عيونهم أو عقولهم عيب، ومن بين كل سبعة من الشبان والفتيات يدخلون الجامعة يتخرج اثنان ليس إلا. وكثيرون من هؤلاء يرجع إخفاقهم إلى السبب نفسه — أنهم لا يستطيعون أن يقرأوا إلا بصعوبة عظيمة. ويقدر علماء النفس المتخصصون أن في الولايات المتحدة عدداً يتراوح بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليوناً من البالغين الأذكياء الطبيعيين لا يستطيعون أن يقرأوا على على الإطلاق، ولا يستطيعون تبعاً لذلك أن يتعلموا، أو هم يقرأون ببطء وبغير فهم،

ومن أجل هذا يخفق هؤلاء البالغون فى كل مايتطلب القراءة .

غير أن هذه المأساة الإنسانية الهائلة المستمرة هى مما يمكن تفاديه، فإن كل امرىء يمكن أن يتعلم القراءة ويجيدها بسهولة. وفى وسعنا الآن أن نقول هذا ونحن مطمئنون إلى صحته، بفضل الاستكشاف الذى تم فى قسم علم النفس بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس على يد الدكتورة فيرنالد ومساعدتها السيدة هيلين باس كيلر .

وكان هذا الكشف ، ككثير غيره من المكتشفات العلمية ، وليد المصادفة فى ظاهر الأمر . حدثتنى الدكتورة فيرنالد قالت : « ظللنا ثلاثة أشهر كاملة نحاول أن نعلم هذا الغلام شيئاً ، ولكننا لم نستطع أن نجعله يقرأ حتى اسمه، وكان لايستطيع أن يقرأ المكتوب على اللوحات أو أسماء سيارات النقل، وكان لايعرف الطريق إلى الجامعة إلا من ألوان السيارات العامة . وقد جربنا معه طريقة البطاقات كل بطاقة عليها كلمة مفردة مكتوبة بحروف كبيرة ، ثم نغير ترتيب البطاقات ونبرز له التى عليها الكلمة ، ولكنه على كثرة ما كنت أريه الكلمة ، كان لا يستطيع أن يتذكر أنه رآها من قبل .

« وحدث ذات يوم أن أبرزت له بطاقة عليها كلمة « أرض » ، فقال على الفور « هذه أرض » فظننت أنها مصادفة. ثم عرضت عليه البطاقة مرة أخرى ، فأدهشنى أن قال ثانية « هذه أرض » فسألته : كيف عرف ؟ فقال لا أدرى سوى أنى عرفت أن هذه « أرض » .

« فسألت مساعدتى عن هذه الكلمة ماذا صنعنا بها مما لم نصنعه من قبل ، فقالت : « لا أدرى ، إلا إذا كان أنك لما ضقت صدراً أمس كتبت اللفظة على السبورة وتناولت يده ومررت بإصبعه على حروفها » .

« فتذكرت طريقة مونتسورى فى إمرار الإصبع على الحروف المفردة ، وهى طريقة أراها ضارة بالطفل ومعوّقة له عن تعلم الكلمات . فمضيت بالغلام إلى السبورة وجعلته يمر بأصبعه على عدة كلمات — من مثل منزل ، ومائدة وغيرها — فوجدته يتذكر فيما بعد كلّ كلمة يمر عليها بإصبعه .

« وتحمسنا لما اهتدينا إلى ذلك، وواصلنا العمل فى زيادة محفوظه ، وبعد خمسة شهور دعونا معلميه السابقين إلى الحضور والاستماع إلى تلميذهم الخائب « الناقص العقل » ، فأبوا فى البداية أن يصدقوا أنه يستطيع أن يقرأ . ثم أعطوه كتباً فى التشريح والتاريخ والآثار وعلم وظائف الأعضاء ، فقرأ الكلمات الفنية قراءة أدهشت كل من كان حاضراً . وبعد هذه الحفلة عاد إلى المدرسة التى كان فيها

من الخُباب ، واجتاز فيها ثمانية فصول فى خمس سنوات » .

وقد كانت هذه حفلة تاريخية لافى التربية وحدها بل فى حياة آلاف من الأطفال قضوا حياتهم فى سجن من الجهل ، وفى حياة كثيرين عانوا السجن الحقيقى لا المجازى ، لأن قصورهم العقلى دفع بهم إلى الإجرام . إن الذين يعدون أصفاراً فيما يتعلق بالقراءة ليسوا كثيراً فى أية مدرسة ، ولكن الضعاف فى القراءة يقدرون بنحو ربع التلاميذ على الأقل .

وأمثال هؤلاء الأطفال يعدون لسوء الحظ ناقصى العقل ، ولكن الحقيقة أنهم يحصّلون مايتعلمون بطريقة مختلفة ــ الطريقة الحسية ، فبدلاً من أن يتعلموا بعيونهم وآذانهم يتعلمون بعضلاتهم وأعصابهم ، أى أنهم يتعلمون بأن يعقلوا ويحسوا بكل جوارحهم البدنية ، وبهذا يكون تعلمهم أحسن ، لأن ذكراه تعمق فى نفوسهم . ومتى عرفوا هجاء كلمة فإنهم يتهجونها دائماً هجاء صحيحاً ، ويتعلمون الحساب بهذه الطريقة فيبدون كأنما يتحسسون طريقهم إلى حل المسألة ، وكأنما يدركونها بعضلاتهم ، ويصبحون أقدر على الحساب من الأطفال الأوساط العاديين .

وقد تلقت الدكتورة فيرنالد ومساعدتها السيدة كيلر ــ مذ وقع لهما هذا الاكتشاف ــ أطفالا عديدين من هذا الضرب ، لامن مدارس لوس أنجلوس وحدها بل من كل أنحاء العالم . (وقد وجدنا أن كل من يعدون أصفاراً فى القراءة هم من البنين ، وإن كان هناك عدد كبير من البنات يكدن يحسبن أصفاراً ، ومعظم الأصفار فيما يتعلق بالقراءة ممن يعملون بيسراهم دون اليمنى لسبب غير معروف) . وهؤلاء الضعفاء فى القراءة أو الذين لا يقرأون قد أخفقوا كلهم تقريباً مراراً ، وتعرضوا للسخرية والتقريع حتى جزعوا وأشفقوا أن يحاولوا التعلم ، ولكن الدكتورة فيرنالد جعلت منهم جميعاً قراء فى الذروة من الإجادة ، ومنهم رجل فى الثامنة والثلاثين من عمره لم يكن يستطيع قط أن يقرأ أكثر من بضع كلمات قليلة ، أكب على القراءة فى حماسة حتى اضطرت الدكتورة فيرنالد أن تكف عن تعليمه زمناً مخافة أن يصاب بانهيار عصبى .

وكان من بين من عالجتهم الدكتورة فيرنالد من يدعى ويللى ج . وكان فى إصلاحية حكومية للأحداث ، وكان معدوداً ممن لا أمل فيهم ، ولم يتعلم شيئاً مطلقاً فى خمس سنوات قضاها فى هذا المعهد ، وكان لا يستطيع أن يقرأ اسمه إلا إذا كان مكتوباً على هذه الصورة « Wm » ولا يعرفه إلا

بالخط الذى تحت m . فدربت الدكتورة فيرنالد غلاماً آخر فى المعهد على تعليم ويللى بطريقة إمرار الإصبع على الكلمات ، فبلغ من نجاحه أن اجتاز ويللى ثلاثة فصول فى ثلاثة شهور ، وسرعان ما أعيد إلى بلدته فصار من خير التلاميذ فى المدرسة بدلا من أن يظل صبياً شريراً ينتهى به الأمر على الأرجح إلى الإجرام .

وخير ما أصف به طريقة الدكتورة فيرنالد أن أقص عليكم قصة غلام كنت أراقبه وهو يتعلم على هـذا النهج ، وهو فتى فى السابعة عشرة من عمره اسمـه دونالد ، وكان له معلمون خصوصيون ، وقضى فى المدرسـة أحـد عشر عاماً ولكنه لم يتعلم شـيئاً على الإطلاق ، ولم يستطع أن يحصل على وظيفة لأنه لم يكن يستطيع أن يقرأ بطاقات الأسعار أو غيرها .

فبدأت الدكتورة فيرنالد بأن اختبرت ذكاءه فألفته فوق المتوسط ، ثم قالت له : « إن لنا طريقة نعلمك بها القراءة كما يتعلمها أى إنسان ، فما من أحد يخفق . فماذا تهتم به على وجه الخصوص ؟ » فقال دونالد على الفور : «الجاسوسية» ، فكتبت الدكتورة الكلمة بحروف ارتفاعها نحو ثلاث بوصات وأمر عليها دونالد إصبعه نحو خمسين مرة ، وشجعته على أن يدير الكلمة فى رأسه ، وأن ينطق بها بصوت عال وهو يمر عليها بإصبعه — حرفاً بعد حرف ، ومقطعاً بعد مقطع — وأن يكرر النطق بالكلمة فى آخر كل مرة .

وأخيراً أصبح دونالد قادراً على كتابة الكلمة ، فأخفيت عنه الورقة الأصلية فغلط فى هجائها ، فصاحت الدكتورة فيرنالد « جميل » ، ثم ردت إليـه النموذج ، فمر عليه بإصـبعه مراراً ، وبعد نحو ثلاث ساعات كتب دونالد هذه الجملة : « إن لى اهتماماً بالجاسوسية » كتابة صحيحة — وهذا أكثر مما استطاعه فى أحد عشر عاماً ! وبعد أن استطاع أن يكتب هذه الجملة ، كتبت الألفاظ له بالآلة الكاتبة ليقارنها بكتابته ، إذ لا بد أن يرى التلميذ الألفاظ مطبـوعة . ومضى دونالد فى تتبع ألفاظ جديدة بإصبعه . وهذه الفترة تمتد أسبوعين أو ثلاثة مع بعض الأطفال ، وبعضهم يحتاج إلى شهرين أو أكثر .

ووسع دونالد تدريجـاً أن يقرأ ألفاظاً جديدة من النسخة المطبوعة ، ثم تعـلم أن يعرف الألفاظ دون أن يكتبها أولا ، وشرع يقرأ فى الكتب ، ثم وصـل إلى المرحلة الأخيرة ، فقد اكتسب الثقة بنفسه وصار يحب أن يقرأ أى شىء وكل شىء ، وبعـد ذلك صار زمام رقيه العقلى فى يديه ، أو على الأصح رهناً بعقله المتحرر .

والدكتـورة فيرنالد تنبـه إلى ثلاثة

احتياطات مهمة ينبغى أن يتخذها الذين يستعملون طريقتها : فالطفل يجب إقصاؤه عن بيئته القديمة ، لأن كثرة إخفاقه أمام معلميه وأترابه تجعله يتهيب الاجتهاد . ثم إنه لا ينبغى أن يُكرَه على القراءة أمام الناس قبل أن يجيدها إجادة تامة . وأخيراً وفوق كل شىء ، يجب المضى بالطفل إلى نهاية المنهج ، أى إلى أن يتناول من تلقاء نفسه كتاباً ويقرأ فيه .

وتقول الدكتورة فيرنالد : « إننا لانعرف أبداً متى يجىء هذا اليوم ، وكثيراً مايجىء فجأة ، ولكن الأمر يبدو لنا وللطفل كأنه معجزة . وكثيراً ما يحدث أن نزيد محصول الطفل كلمة كلمة ، ونواظب على ذلك أسابيع وشهوراً ، وإذا به فجأة وعلى غير انتظار يشرع فى قراءة أصعب الكتابات وأطولها بصوت عال ، كما يقرأها أى متخرج فى الجامعة، وكثيراً مايصيح وهو جذل : «لقد قرأت هذا وحدى! اقرأته وحدى!» . وبعض الأطفال يبلغون هذه المرحلة فى خمسة شهور أو ستة ، وبعضهم فى عشرة شهور أو اثنى عشر ، ولكن الطفل الذى يبلغ هذه المرحلة لا يمكن أن يخفق بعد ذلك فى تعلم أى شىء يودّ تعلمه فى حياته كلها » .



لمحات من حياة العظماء

فى سنة ١٨٧٤ أشار الأطباء على الممثلة العظيمة سارة برنارد أن تنصرف عن التمثيل إذا شاءت أن يطول أجل حياتها ، ولكنها عادت إلى خشبة المسرح بعد ما تماثلت للشفاء . فلما سألها أحد المعجبين بها عن هدية يهديها قالت : « يقولون إن موتى قريب ، فالك أن ترسل لى تابوتا » .

وبعد أسبوع تلقت من حانوتى رسالة بأن أحد الناس أمره بأن يصنع لها تابوتاً ، فكيف تريده أن يكون . فوصفت له وصفاً دقيقاً ماتريد ، ثم وافقت على أن يصنع من خشب الورد وأن تجعل مقابضه من الفضة ، ثم غيرت رأيها فجعلتها من ذهب .

وقد ظلت خلال مابقى من حياتها لايفارقها هذا التابوت ، وكانت تأخذه معها حيث ترحل ، وتقيمه على قوائم عند مؤخر سريرها حتى تراه دون مشقة حين تستيقظ .

وكانت تقول : « أفعل ذلك لأنه يذكرنى بأن بدنى سيتحول إلى تراب ، وأن مجدى وحده هو الذى سيخلد على الزمن » . [كتاب «سارة برنارد الحقيقية»]

وقود ناعم كمساحيق التطرية والتجميل ، خليق أن يسير القاطرات والسفن ويدفىء البيوت ، ويصير ركنا من أركان الاقتصاد والصناعة فى هذا العصر .

الفحم المسحوق يدفع محركًا لا عهد بمثله

هارلند مانشستر

مختصرة من مجلة "سيئتفيك أميركان"

مضت خمسون سنة وكبار المخترعين فى العالم يتمنّون أن يبتكروا وسيلة تمكنهم من أن يديروا محرّكا من محركات الاحتراق الداخلى بالفحم المسحوق الوافر الرخيص ، بدلاً من البنزين أو الزيت ، فلم يتمكنوا من تحقيق ما يتمنون . ولكنّ الفكرة ظلّت كالأمل البرّاق أمام أعين المهندسين من ذوى الطموح ، الذين تبينوا أنهم سوف يحدثون ثورة صناعية جديدة إذا تمّ لهم أن ينتزعوا القوة من الفحم الرخيص وينتفعوا بها انتفاعاً مباشراً بدلا من حرقه تحت مرجل لتوليد البخار ، فيضيع جانب كبير من قوته جُزافاً .

وهذا الذى تمنّوه قد تمّ ، ففى الطابق الأسفل بمعمل فى جامعة جونز هبكنز فى مدينة بلتيمور ، تجد أول تربين يتحرك بالفحم المسحوق على أحسن وجه ، وما زال يتحرّك منذ شهر ديسمبر الماضى ــ يدخل فحم البيتومين الرخيص فى أحد طرفيه ، فيحوله جهاز بسيط مسحوقاً ناعماً كالسكر المدقوق ، ثم يقذف إلى حجرة الاشتعال التى تهدر فيها النار . وهو ينقّى من دقائق الرماد التى تأكل العدد بزوبعة من الهواء تولدها آلة ، وإذا غازات الاحتراق التى بلغت درجة فائقة من الحرارة تحرّك مراوح التربين ، ولن يمضى زمن طويل حتى يصبح التربين الجديد الذى يتحرّك بغاز الفحم المسحوق منافساً لمحركات الديزل والمحركات البخارية ، ولن تقتصر منافسته لها على السكك الحديدية بل تشمل السفن والمحطات الثابتة التى تولد القوة أيضاً .

من العسير أن يبالغ الكاتب فى قيمة محرّك يأخذ الفحم ويقسره على أن يفعل كما يفعل الزيت . فموارد الزيت آخذة فى النقصان ، على حين ترى موارد الفحم لا تزال عظيمة ــ تكفى ألوفاً من السنين . نعم إن فى وسعنا أن نولد البنزين وزيت الديزل من الفحم بأساليب كيميائية معقدة ، بيد أن حرق الفحم دون تحويله أقل نفقة ، لا ريب فى ذلك .

منذ ثمانيـة عشر شهراً وحسب ، كان التربين الذى يتحرّك بغاز الفحم المسحوق، أملا براقاً ترمقه عيون جماعة من مديرى شركات الفحم وشركات السكك الحديدية ، وكان يحضهم على المضى رجل يدعى روى هوايت ، رئيس شركة سكة حـديد بلتيمور أوهيو ، فاجتمعت الجماعة لتنظر فى الأمر : إن شركات السكك الحديدية تجنى جزءاً غير يسير من دخلها من نقل الفحم، فمصلحتها تقضى بأن تروّج للانتفـاع به ، ولكن معظم القاطرات التى تتحرّك ببخار يولده حرق الفحم ، ضعيفـة الكفاية من غير ناحية : فهى تحوّل ثمانيـة فى المئة أو أقلّ من حرارة الفحم إلى قوة محركة، وهى تضيع وقتاً فى الوقوف لملء المراجل بالماء ، وهى تهز الركاب هزّاً حين تبدأ تتحرك بالقطار ، وهى تدق الأرض التى مدّت فيها الخطوط دقاً عنيفاً ، وتنفث الدخان فى الفضاء، وتنثر الرماد على الأرض. أما محرّك الديزل الذى يتحرّك بقوة الزيت ، ويبدأ حركته فى رفق ولين ، وينتفع بقدر عظيم من حرارة وقوده ، فقد أخذ يحلّ محلّ القاطرة البخارية .

ومن ثمّ اتفقت طائفة من أكبر شركات السكة الحديدية مع طائفة من شركات تعدين الفحم ، على إرصاد مليون ريال للبحث ، ثم جعلت تبحث عن رجل يستطيع أن يصنع لها قاطرة تتحرّك بقوة الفحم المحترق ، وتفوق القاطرة القديمة .

فوجدوا ذلك الرجل حين وجـدوا جون إ . يلوت ، وهو من أكبر المهندسين الميكانيكيين ورئيس معهد «غاز تكنولوجى» فى مدينة شيكاغو . ومنـذ سنة أو أكثر قليلا، ذهب يلوت إلى بلتيمور ليتولى المهمة الجديدة الرائعة التى ألقيت على كاهله، وكان مستعداً أن ينفق خمس سنوات فى سبيل إنفاذها ، ولكن تربينـه بدأ يدور قبيل آخر السنة .

وقد قصدتُ يلوت فى جامعة جونز هبكنز فبين لى عمل التربين من ساعة يأخذ الفحم إلى ساعة تدور المراوح. وهو ليس اختراعا كما يقـول ، بل هى أجهزة شتى سبق اختراعها ، ضمّ هو بعضها إلى بعض .

يؤخذ الفحم الطرىّ من مخزنه ويوضع فى آلة تسحقه حتى تصير دقائقه كحبات الرمل غير أن حجمها أكبر مما ينبغى ، فتسحق الدقائق كالدقيق فى جهاز أسطوانى اخترعه يلوت حين كان معلماً فى شيكاغو . ففى هذا الجهاز تضغط دقائق الفحم التى فى حجم حبات الرمل ضغطاً شديداً بالهواء، ثم تدفع فى ثقب دقيق حيث يرفع ضغط الهواء ، وإذا الهواء الذى كان حبيساً فى مسامّ دقائق الفحم

ينطلق مسرعاً ، فتحدث ملايين الانفجارات الصغيرة فى الدقائق ، فتنسفها نسفاً يجعلها كالهباء الناعم لاتكاد ترى بالمجهر .

والفحم الذى سحق على هذا المنوال مسحوق ناعم هش ، إذا فركته بين أصابعك كان كسُخام المصباح . وقد بلغ من دقة أجزائه أنه حين يدفع فى حجرة الاشتعال ، يشتعل فوراً كأنه وقود من زيت ، فتستعر نار كأنها نار الجحيم ، وهى ما يتطلبه تربين الغاز . وسحق الفحم على هذا المنوال لايستغرق من القوة التى يولدها التربين سوى اثنين فى المئة .

إن أعصى مشكلة حيرت المخترعين فى صنع محرّك من هذا الضرب ، هى كيف يمكن أن تنبذ من الفحم المسحوق تلك الدقائق من الرماد التى تبرى المعدن ، وتستطيع أن تقطع مراوح التربين الدوّارة . وقد حل يلوت المشكلة بأن أزال هذه الدقائق من مسحوق الفحم قبل وصولها إلى المراوح . فقد استعان بجهاز « إيروتيك » الذى يرسب الغبار ، وهو اختراع تمّ فى خلال الحرب واستعمل فى الدبابات وسيارات النقل ومحركات الطائرات ، ليقلل ما يتآكل منها باحتكاك حبات الرمل التى تدخل مع الهواء . وهو قائم على مبدأ القوة الطاردة عن المركز ، وينقى الهواء على منوال لا تجاريه فيه أحسن مرسبات الغبار .

أنشأ يلوت طائفة من هذه الأجهزة المرسبة بين حجرة الاشتعال والمحرك . وقد أسفر ذلك عن أن الهواء الذى ينفثه المحرك أنقى وأصفى من الهواء الذى يدخله ، كما يقول يلوت . وإذا صاحبَ التوفيق تجارب أخرى تجرب الآن فى جامعة برديو ، كانت دقائق الغبار التى ترسبها هذه الأجهزة صالحة لطلاء حواجز خطوط السكك الحديدية ، فتوفر ما تحمله كلّ قاطرة من رمل تبلغ زنته طنين .

وقد اجتمع فى هذا المحرّك من المزايا ما يجعله منية رجال السكك الحديدية . وتدلّ الحسابات على أن التصميم الذى صنعه يلوت لقاطرة سوف تبنى قريباً ، يجعل قدرتها ثلاثة أضعاف قدرة القاطرة الشائعة التى تتحرّك بالبخار أو أربعة أضعافها . ولن يكون فى هذه القاطرة ماء — وهذه مزية عظيمة ، ولاسيما فى الفيافى التى لا ماء فيها ، ونفقة صيانتها أقل ، إذ ليس فيها مراجل تنبغى مراقبتها وتنظيفها ، وأجزاؤها المتحركة قليلة العدد . وهى مدمجة التركيب ، فإذا صنعت واحدة منها فى نصف حجم قاطرة ديزل الكهربائية ، كانتا متساويتين فى القوة التى تولدانها ، وهى تصلح لأى ضرب من الفحم ، حتى الفحم الرخو الرخيص .

ومن مزايا هذا المحرك أيضاً مزية ظفرت بإعجاب رجال السكك الحديدية، وقد لاحظها أولا قائدو الطائرات النفاثة في الأقاليم الشمالية. فحين يمتص تربين الغاز هواء بارداً تزداد قوته بمقدار ٥٠ في المئة، إذ كان الهواء البارد أكثف من الهواء الساخن أو الدافيء، ففي الوسع أن يضغط منه مقدار أكبر في جهاز الضغط بقوة أقل. وهذا يطابق ما هو معروف من أن جر القطار في الشتاء يقتضي قوة أكبر، لأن زيت التزييت يكثف أو يتجمد، وأحياناً يلصق الجمد عجلات قطار واقف بالخط الحديدي، فالمحرك الجديد يزداد قوة من تلقاء نفسه في الشتاء حين يأخذ الهواء البارد، فيعطي القاطرة الزيادة اللازمة من القوة لدفع القطار أو بدء الحركة به.

ولا يزال محرك الديزل أحسن المحركات قدرة في العالم، فيولد طاقة تبلغ ٣٦ في المئة من الطاقة الكامنة في وقوده، أما محرك الغاز فيولد ٢٤ في المئة، وأما القاطرة البخارية فلا تولد أكثر من ٨ في المئة. ولكن ثمن الفحم اللازم لتحريك محرك الغاز الجديد لا يزيد على ثلث ثمن الزيت اللازم لمحرك ديزل، وكذلك تتعادل المزايا في المحركين.

وتربين الغاز الذي يتحرك بمسحوق الفحم ينبغي أن يكون خير محرك يصلح لمحطات توليد الطاقة حيث يكثر الفحم ويقل الماء، ويمكن صنعه بحيث يولد قوة ٥٠٠ حصان أو قوة ١٠٠٠٠ حصان، فهو كفيل أو خليق بأن يعيد الفحم مصدر الطاقة الأول في السفن التي تمخر البحار السبعة. وقد أمرت شركات السفن ببناء تربينات البنزين لسفنها فإذا تحولت إلى تربينات الفحم وفرت مالاً كثيراً. وربما كانت الزوارق القاطرة في المرافيء هي أول منتفع بهذه القوة الجديدة.

والعلماء مكبون على دراسة ما للمحرك الجديد من منافع أخرى، وقد شرعوا يصنعون موقداً للبيت يغذى بتيار مندفع من الفحم المسحوق الذي يباع في علب محكمة الإقفال، وحين يوقد يحترق كله فلا يولد دخاناً، وأما دقائق الرماد فتزال بجهاز شبيه بجهاز أيروتياك، ويومئذ يكون للمواقد أنابيب يخرج منها العادم، لا مداخن تنفث الدخان في الهواء.

وإذا استثنينا الطاقة الذرية التي لم يتحقق الانتفاع بها في الصناعة حتى اليوم، كان صنع تربين الغاز أعظم ما تم في توليد الطاقة في القرن العشرين. فالمحرك الجديد الذي صنع للانتفاع بالفحم الكثير، وتوفير موارد الزيت الآخذة في النقصان، قد يكمل الانقلاب العظيم الذي بدأ باختراع تربين الغاز*.

---

* عاصفة في صندوق ـ المختار فبراير ١٩٤٤ ص ٤١

ملك الجزيرة العاصي

نويل ف. بوش • مختصرة من مجلة "لايف"



منذ سنوات، بينما كان عبدالعزيز بن سعود ملك الدولة العربية السعودية، ذاهباً إلى مكة حاجا على عادته فى كل سنة، انفجرت عجلة فى سيارته الباكار، فقعد جلالته على الرمل ريثما تصلح، فمرّ به راع على جمل وسأل عن الملك هل مر؟ فسأله ابن سعود، وقد رأى أن البدوى لم يعرفه، عن الباعث له على استفساره.

فقال الرجل: «إنى سمعت أنه فى طريقه إلى مكة، فقلت عسى أن يجود على بشىء من المال فأحج أنا أيضاً»

ففتح الملك كيساً فيه نقود ذهبية يحتفظ به لمثل هذا الطارىء، ونفحه بحفنة، فحدق الرجل فيها ثم نظر إلى الملك، وقال:

«شكراً لك يا عبد العزيز. لم أعرف وجهك ولكن جودك عرّفنى بك».

وهذه المقابلة تعد مظهراً دالاً على الملك وعلى بلاده كذلك. فإنه لما كان شبه جزيرة العرب ليس فيها سنما أو صحف سيارة، فإن رعايا ابن سعود لا يعرفون وجهه، غير أن هذا الراعى حين دعا الملك باسمه الأول لم يخرج عن العرف ولا خالف التقاليد.

فليست بابن سعود حاجة إلى المراسم الدقيقة التى تحجب فى الممالك الدستورية انعدام السلطة الحقيقية، ذلك أنه ملك مطلق، وأوسع أقرانه الأحياء سلطاناً فى هذا العصر. وهو يجمع فى يده وظائف الإمام، ورئيس الدولة، وقاضى القضاة، ورئيس الوزارة، ووزير الخزانة، والقائد الأعلى، والقاضى المركزى، ورئيس الشرط، وبابه مفتوح لكل امرىء تقريباً، وهو يستقبل جمهوراً كبيراً من رعاياه كل يوم فى قاعة العرش بقصره فى الرياض.

وتشبه قاعة العرش فى مظهرها قاعة الملك كول القديمة كما تبدو فى صورتها المألوفة، سوى أن على المنضدة إلى جانب الملك

نويل ف. بوش من كبار محررى مجلة «لايف». وقد كتب هذا الفصل بعد أن زار البلاد العربية السعودية ونزل ضيفاً على ابن سعود، وقد قضى خمسة أيام فى الرياض وحولها، مرتدياً الثياب العربية، وكان نازلا بقصر ولى العهد.

تلفوناً وجرساً كهربائياً . وإلى يمين جلالته « خلوة » يجلس فيها أكابر رجال البلاط وبعض أبناء الملك الكبار حيث يستطيعون أن يتحدثوا فيما بينهم ، ويكونوا على كثب منه إذا دعاهم . وقد بلغ ابن سعود السابعة والستين . وهو يمشى متمهلا قليلا لجراح قديمة فى بدنه من السيف والرصاص ، ولكنه على هذا يبدو أصغر مما هو. ومرجع ذلك من بعض الوجوه إلى صوته العميق وإيماءاته السريعة المعبرة ، وإلى هيئته التى تنم عن قوة الاستجابة ، ولعل ذلك راجع أيضاً إلى أنه من أبناء عالم جديد .

وإذا قيس ابن سعود بما فعل من ضم أكبر دولة عربيـة مذ ظهر محمد صلى الله عليه وسلم قبل ١٣٧٠ سنة ، فإنه يقف فى صف واحد مع أعظم رجال عصره ، وهو من أكبر رجالات العالم العربى . ولما كان فى يديه المدينتان المقدستان ، مكة والمدينة ، فان له المكان الأول، لا بين ثلاثين مليوناً من العرب فى الشرق الأدنى وحسب ، بل بين ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٥٠ من المسلمين موزعين فى أرجاء العالم .

وتعد الدولة العربيـة السعودية ، من الوجهة العملية ، بلاداً موصدة فى وجه العالم الغربى ، فما زار حصونها الصحراوية فى العصر الحـديث سوى مئة من الأوربيين والأمريكيين أو أقل . على أن موقع شبه الجزيرة وإشرافها على طريقين من الطرق الثلاثة إلى الشرق الأدنى جعلاها عاملا جوهريا فى خطط الأمم المتحدة لتموين روسيا والهند والشرق الأدنى أيضاً خلال الحرب . يضاف إلى ذلك أنه أنشئت فى جزيرة البحرين فى الخليج الفـارسى وعلى شاطىء بلاد العرب القريب منها محطات كبيرة لتزويد قوات الأمم المتحدة بالبترول .

وقد احتفظ ابن سعود فى الحرب العالمية الثانية بالحياد والمودة ، كما فعل فى الحرب العالميـة الأولى التى سبقت استيلاءه على البلاد المقدسة ، فكان هذا من حسن حظ البريطانيين ، لأنه لو كان ابن سعود قد انضم قبل الحرب إلى المحور الذى لم يدخر جهداً لحمله على ذلك ، لكان من العسير ، إذا لم يكن من المستحيل، إخراج الإيطاليين من الحبشة وإريتريا . ولو أن ابن سعود تردد ، لكان من المحتمل أن تفضى الثورة التى قامت فى العراق سـنة ١٩٤١ ، والتى تحولت فصارت تمهيداً لدخول العراق فى الحرب إلى جانب الأمم المتحدة ، إلى نتائج أخرى مختلفة جدا .

وقد أظهر ابن سـعود فى إيمانه بالأمم المتحدة وتأييده لها ، شجاعة وفطنة وبعد نظر ، لما بلغ روميل ضواحى الإسكندرية

فى سنة ١٩٤٢، وقد كفى الله الجميع السوء . وصار من أجل ذلك ينعم بشكر الولايات المتحدة وإنجلترا ، فى صورة شحنات من الذهب والغلال والسيارات بمقتضى قانون الإعارة والتأجير ، وبشكر رعاياه الذين ينتظرون منه، فى مقابلة السلطة التى يتولاها، أن يكون ركيناً حصيفاً لا خلل فى تدبيره ، وأن يجنوا هم ثمار عقله وحكمته .

ولم تبلغ بلاد العرب تحت حكم ابن سعود ما بلغته الأمم الأخرى من الرخاء والثقافة ، وقلما يحتفل رعاياه بالنعم المادية كالطائرة مثلا. وقد حدث منذ عهد قريب أن طيارا رأى إحدى مضخات البنزين القليلة فى الصحراء فهبط إلى الأرض ليتزود ، فلم يزد البدوى الذى ملأ له خزانه ، على أن قال فى تقريره: إن « إحدى السيارات » التى مرت به فى ذلك اليوم وقفت عنده ، واستأنفت سيرها جواً بدلاً من السير على الأرض .

وابن سعود رجل عصامى كوّن نفسه وسوّدها على غرار الأبطال ، ففى سنة ١٨٨٠ — عام ميلاده — كان شبه جزيرة العرب اسماً جزءاً من الدولة العثمانية ، وكان الواقع أن هذه الصحراء المتقاذفة معزولة عن العالم بأسره ، مُسوّرة دونه ، كأنها صحيفة مختومة . وكان الفرسان يثيرون المعارك فيما بينهم ، ويقتتلون فى السهول المبسوطة التى تضربها الشمس وتخترقها الرياح ، أو فى الدروب المظلمة فى المدائن المسورة ، ويتطاعنون بالسيوف أو الرماح، ويصيحون صيحات الحرب التى لم تسمعها أوربة منذ زمن بعيد .

وفى إحدى هذه الحروب استطاع الجد الأعلى لابن سعود أن يفتح معظم شبه الجزيرة . غير أنه لما كانت سنة ١٨٨٠ ، تضاءل ملك آل سعود حتى صار لاشىء ، وكان آل رشيد هم الذين انتزعوا منه ما كان له وقبل أن يبلغ ابن سعود العاشرة رأى جماعته كلها تطرد وتنفى من الأرض وتفتقر بعد غنى . وقد نشأ ابن سعود على أن عليه أن يسترد كل ما كان لآبائه من الأرض .

وقد خطا الخطوة الأولى لما بلغ الحادية والعشرين ، وأتى فيها بما لا يكاد يصدق من الإقدام والجرأة ، إذ استولى بعشرة رجال ليس إلا على مدينة الرياض ، وظل بعد ذلك خمسة عشر عاماً يدفع عنها آل الرشيد الذين ألحوا فيما حاولوه من إخراجه منها . وكانوا فى الحرب العظمى الماضية قد انضموا إلى الأتراك ، فانتهى بهم الأمر إلى زوال عهدهم ، وفى سنة ١٩٢١ أخذ ابن سعود من بقى منهم أسرى . ولما كان ابن سعود من أشد المؤمنين العاملين بمبدأ الإحسان إلى العدو المقهور ، فقد حمل

أسراه إلى عاصمته حيث لا يزالون يعيشون ، ويذهب الأمراء منهم إلى نفس المدارس التي يذهب إليها أبناؤه ، ويتسابق هؤلاء وأولئك على ظهور الجياد ، ولكنه لا يجوز لفتيان آل رشيد أن يتزوجوا من بنات آل سعود ، وإن كان لشبان آل سعود أن يتزوجوا من بنات آل رشيد .

وفي شبه الجزيرة ثلاث مناطق رئيسية . وقد استولى ابن سعود بعد قضائه على آل رشيد ، على المنطقة الوسطى في سنة ١٩٠١ وتسمى نجدا ، وبقي عليه أن يستولي على الأخريين — الحسا على الشاطىء الشرقي (وقد استخلصها من الأتراك في سنة ١٩١٤) والحجاز على الشاطىء الغربي (وقد انتزعها من ملك الحجاز في سنة ١٩٢٦) . وباستيلائه على الحجاز ، وفيه الأرض المقدسة على ساحل البحر الأحمر الأوسط ، أتم استرداد ما كان لآل سعود قديماً ، ونودي به ملكا على الدولة العربية السعودية ، ودخل مكة المحرّمة محرماً خاشعاً متواضعاً لله .

وكانت السيارة أول ما اتخذ ابن سعود وأدخل في بلاده من مخترعات الغرب ، ومع أن بقية أهل الجزيرة — ولم يجر في بلادهم إحصاء قط ، ولكنهم يبلغون زهاء أربعة ملايين — لا يملكون إلا بضع مئات من السيارات ، فإن للملك الآن ألف سيارة أو أكثر . فإذا قصد إلى مكة بأسرته الضخمة ، على عادته في كل عام ، سار في قافلة من السيارات تبلغ عدتها حوالى خمسمائة من أنواع شتى ، وفيها الخدم والحشم والحرس والطهاة وضاربو الخيام ، والميكانيكيون ، وقطع التغيير ، وقطعان الغنم وأسراب الدجاج والطيور ، وغير ذلك مما يؤكل أو يستهلك في الطريق .

وتستقبل مكة حوالى ٢٥٠٫٠٠٠ من حجاج المسلمين يفدون إليها في كل عام ، وذلك من أكبر شئون الدولة وهو أعظم مواردها . وكان الحجاج في الزمن القديم يعدون صيداً مباحاً للصوص وقطاع الطرق ، فكانوا لا يجرؤون على قطع المسافة بين جدة ومكة — وهي خمسون ميلا — إلا ومعهم حرس مسلح . وكانت العادة أن لمن يفتقر إلى شيء أن يغتصبه ممن عنده هذا الشيء . بفضل الله ، فأعاد الملك للحج كرامته وجلاله ، وقطع دابر اللصوص وقطاع الطريق ، وأحيى ما تقضي به الشريعة من قطع يد السارق وضرب عنق القاتل ، زيادة في الزجر عن العدوان .

وتؤدي كل من الحكومة البريطانية وشركة « كاليفورنيا أرابيان ستاندارد أويل » نحو ثلث جملة الدخل الملك ، ولما كانت الحرب قد أدت إلى نقص كبير في عدد الحجاج فإن العجز — إذا كان هناك عجز —



بيده هذان المصدران . ويتصرف الملك فى الأموال بغير ميزانية .

والطعام الشائع هو الأرز ، والشراب العام هو القهوة ، وكلاهما مما يستورد . ومن أجل هذا صار الهم الأكبر للملك فى الوقت الحاضر هو زيادة الثروة الزراعية للأمة. وقد ذهبت إلى شبه الجزيرة فى شتاء سنة ١٩٤٢ بعثة من وزارة الزراعة فى الولايات المتحدة برياسة المستر ك. س. تويتشيل ، وهو من أعرف الخبراء بشبه جزيرة العرب ، وطافت بأرضها وقطعت عشرة آلاف من الأميال ، لدرس التربة . ويقوم وزير مالية الملك فى الوقت نفسه بتجربة واسعة النطاق لإصلاح الأرض على مسافة غير بعيدة من الرياض حيث توجد آبار طبيعية تجعل من الميسور زراعة ٢٥٠٠ فدان أو نحو ذلك من أرض خصبة تنبت الحبوب والخضر .

وقد استعان ابن سعود بتحسين المواصلات فى مملكته على نشر إصلاحاته وتعميم الفائدة منها . وهو يتخذ من الراديو والتلفون اللاسلكى أداة للوقوف على ما يحدث والإحاطة بما يجرى فى بلاده بدقة عجيبة . ومع أن للبدو أن يذهبوا حيث يشاءون بقطعانهم ، إلا أن السياح لا يستطيعون أن يتنقلوا إلا بأذن من الملك نفسه ، ويقوم عماله بإبلاغه أخبار انتقالهم من مكان إلى مكان .

ولا شك أن إدارة شئون بلاد كبلاد العرب ، كأنها دكان فاكهة ، يكلف الملك جهداً جاهداً . فبعد أن يتلو القرآن ساعة أو حواليها قبل الفجر ثم يصلى الصبح ، يستحم ويتطيب بعطر الزهر الذى يحبه ويؤثره أشراف العرب ، ويشرب القهوة والشاى ، وبعد أن يفطر يذهب إلى البلاط ويدعو اليه وزراءه واحداً واحداً ليقف على ما جرى بعد آخر نهار . ويتفاوت ما يتلقاه من الأنباء ، من فتنة بين قبائل الشمال ، إلى سيارة تعطلت فى الوحل فى طريقها إلى الرياض .

وفى القصر الآن جماعة من المترجمين يستمعون إلى مايذاع من الأخبار الخارجية ويترجمونها ويحملونها إلى الملك فى أوقات منتظمة كل يوم . ولما كان الملك ذا خبرة عظيمة بالحرب فإنه كان يعرف، على الأرجح عن سيرها أكثر مما كان يعرفه معظم الموظفين فى وشنطن .

ويحسب العرب الوقت ابتداء من طلوع الشمس لا من نصف الليل ، فإذا كانت الساعة الثالثة ، أى بعد القيام من النوم بأربع ساعات ، فإن الملك يكون قد فرغ من الإشراف على الأعمال الإدارية المستعجلة وعاد إلى شرب القهوة والشاى . والقهوة



العربية مرة كثيرة الأفاويه ، وهى تحتسى في فنجانات كالطاس ، يصب فيها ملء ملعقة كل مرة ، أما الشاى فيحلى بالسكر قبل تقديمه ، ويشرب فى أكواب أطول . ومتى أمال الملك الفنجانة كأنما يريد أن يفرغ آخر قطرة فيها على السجادة ، فهو عندئذ قد تهيأ لاستقبال الزوار .

ويصلى الملك الظهر فى المسجد ، وكثيراً ما يلقى عظة مستمدة من آية من القرآن ، ومن أبرع ماله فى هـذا الباب ، مافسر به حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » . قال الملك : « إن المعنى هو أن الخيرين قد يغترون فيرتكبون إثم الكبر والزهو ، وإن أهل الشر أمامهم على الأقل باب التوبة »

وضيوفه كمعظم من يزورون عاصمة من العواصم ، ينشدون جوده ، وقد أعد كل منهم ملتمساً بما يبغى . ويأخذ الشيوخ هذه الملتمسات ويرتبونها على حسب شأنها ، ويعرضونها على الملك بعد الغداء ، فيفصل فيها . فإذا كانت المغرب أقبل زواره ليرفعوا إليه شكرهم له على ما جاد به عليهم أو ليستزيدوه . ويحرص الملك على أن لا يغادر الرياض زائر بغير هدية مناسبة . وقد أعد لكبار الأجانب أو المشايخ الساعات والعباءات والقطع الذهبية . أما الفقراء فقد أعد لهم مطبخاً هائلا يستطيع أى بدوى أن يحصل منه على طعامه .

وقد تحرى الملك والتزم ما فرضه القرآن من قيود على الزواج ، ولكنه أيضاً استعمل ما أباحه من الطلاق ، فمع أنه لم يتخذ قط أكثر من أربع زوجات فى وقت واحد إلا أنه تزوج من مئة إلى مئتين فى حياته مذ بلغ مبالغ الرجال . ويعيش كثير من مطلقاته فى أجنحة مجاورة لبلاط الملك . ويجرى الأمر بين زوجاته ومطلقاته وجواريه على حد المساواة .

ويُعدُّ التقدير الشائع بأن عدد أبنائه الأمراء الذين رزقهم من الزواج ٣١ ، مفرطاً فى الاعتدال . ويتولى ابنه وولى عهده الأمير سعود منصب حاكم الرياض . أما ابنه الثانى الأمير فيصل ، وهو من أكبر من يثق بهم الملك ، فهو وزير الخارجية ، ويقضى معظم وقته فى جدة على البحر الأحمر وهى المدينة الوحيدة فى بلاد العرب التى يسمح للأجانب بالإقامة فيها .

ومع أن ابن سعود من أوفى المؤيدين لبريطانيا ، إلا أنه ليس أقل من ذلك ميلا إلى الأمريكيين وإيثاراً لهم ، وهم شركاؤه فى

الشركتين الأجنبيتين الوحيدتين اللتين تعملان فى بلاده ، وإحداهما نقابة التعدين العربية السعودية ، وهى تعمل لاستخلاص الذهب من حفائر تعالج من قديم الأزمان .

على أن أكبر شركة تعمل فى شبه جزيرة العرب هى بلا مراء ، شركة «كاليفورينا أرابيان ستاندارد أويل» التى يعد مجهودها رائعاً حتى فى بلاد مثل كاليفورينا نفسها ، دع عنك بلاد العرب التى تتمثل ثروتها السائلة فى بضعة أقداح من لبن النياق . وقيامها هناك من دواعى الارتياح لأسباب عدة ، فضلا عن الأسباب المالية ، ذلك أن مراكز آلاتها فى الظهران تصلح أن تكون قواعد قريبة لأعمال الصيانة اللازمة لسيارات الملك . ثم إن مهندسيها يبذلون معونتهم لمشروع استصلاح الأرض فى الخرج ، وغير ذلك من وجوه التعمير الكثيرة .

وقد كانت آبار الماء القريبة العمق أكبر مشكلات بلاد العرب منذ فجر التاريخ . ومن البديهى أن حفر الآبار يعد لعبة أطفال فى نظر مستنبطى البترول ، وقد صار حفرها للملك عملا سهلا عليهم يضيفونه إلى حساب العلاقات الحسنة بينه وبينهم .

وقد أثمرت معاملات هاتين الشركتين مع جلالته ، ثمرة طيبة لحكومة الولايات المتحدة ، ذلك أن المودة بين الملك والولايات المتحدة تعد إلى حد ما ، امتداداً للمودة بين الملك وممثلى الشركتين .

وخير ما يتحلى به الملك من الصفات إيمانه السامى بالخير عاجلا أو آجلا ، فلم يدهشه أن الله الذى ساق إلى بلاد العرب ماء السحاب فيما مضى ، قد هيأ لها الآن هذا البترول الجديد . ولن يدهشه أن يهيىء الله الخير للناس وييسر قيام عالم نزيه وضاء .

✲ ✲ ✲

قوة الايحاء

عزم علماء جامعة شيكاغو أن يجروا تجربة يمتحنون بها الرأى القائل بأن القهوة تمنع النوم ، فأعطوا طائفة من الناس مقداراً من القهوة ذات ليلة ، ثم أعطوهم فى الليلة التالية وفى الوقت نفسه مقداراً من اللبن . فأجمعوا على أنهم كانوا أسرع إلى النوم فى الليلة الثانية ، وأنهم على يقين من أن القهوة أرقتهم فى الأولى . فقيل لهم إن اللبن الذى شربوه فى الليلة الثانية كان يحوى من الكافيين ثلاثة أضعاف ما كان منه فى قهوة الليلة الأولى . [لنرد ليونز]

مختصرة من
مجلة "فيوتشر"

القحط العظيم

فردريك سوندرن

تأبى الطبيعة في كل قرن من الزمان أو نحوه ، إلا أن تحدث اضطراباً في أحوال الجوّ ، وفيما يرتبط بها من موارد الطعام في العالم . وسرّ ذلك لايزال محجوباً عن علماء الظواهر الجوّية ، بيد أن اضطراب الجوّ لم يحدث في العصور الحديثة من بالغ الأذى للنبات والحيوان والإنسان ، من كلكتة إلى رأس هورن في أمريكا الجنوبية ، مثل الذي أحدثه في السنتين الأخيرتين .

وقد كان من بلاء الحرب العالمية الثانية وأثرها أن تفاقمت هذه المجاعة العظيمة لتقطّع أسباب النقل، وتحوّل مئات الألوف من الفلاحين إلى جنود ، وخراب مساحات واسعة من الأرض الخصبة . وتوالت على الدنيا سلسلة من الكوارث لم يتنبه لها أحد في سورة الحرب ، فأحالت الناس في أرجاء كثيرة من العالم ، هياكل بشرية متحركة تتهاوى على جنبات الطرق وتموت . وقد قال أحد خبراء الطعام في لهجة المتفجّع : « يكاد يخيّل إلى أن الطبيعة قد عزمت على إنزال العقاب بنا وفقاً لخطة محكمة » .

في أوائل سنة ١٩٤٤ (فصل الصيف في نصف الكرة الجنوبي) أطبق قحط عظيم على بلاد أمريكا اللاتينية جميعاً ، وكان الفلاحون ، من كوبا إلى أقصى جنوب الأرجنتين قد ألفوا تعاقب فصول السنة تعاقباً محكماً ، بيد أنهم ظلوا يرمقون السماء عسى أن يروا ما يبشر بالغيث ، ولكن سُدًى ، حتى ذوت الذرة والحنطة على على عيدانها ، ولم تجد المواشي ما تأكله سوى حشيش جافّ أسمر ، فنفقت قطعان كبيرة منها جوعاً ، فكان ذلك أفدحَ قحطٍ نزل بشقّ الكرة الجنوبي منذ ٨٦ سنة .

والعلماء لا يستطيعون حتى اليوم أن يعرفوا ما حقيقة الأسباب الجوّية المعقدة التي تحدث القحط ، ولكنهم يعلمون علم اليقين ما يجره القحط على الزراعة من شر بعد شر . فأول ذلك انحباس المطر عن الهطول في موعده ، وآخره موت الناس جوعاً ، وتقلّ الحبوب التي يصنع منها الخبز ، ويرتفع ثمن الذرة والحنطة وغيرها من الحبوب التي تتخذ علفاً للمواشي

والدواجن ، وحتى ترى صاحب المزرعة يعلف مواشيه ثلاثة أرطال ونصف رطل من الحبوب لكى يظفر برطل من لحم البقر ، ويغذى دجاجه بخمسة أرطال ونصف رطل منها حتى يصيب ما زنته رطلا من البيض .

وحين تقلّ موارد الحبوب ، تقتضى الحالة الاقتصادية الانتفاع بالحبوب فى صنع الخبز والطعام دون العلف ، لأن ذلك ييسر تغذية عدد أوفر من الناس . فيضطر الفلاح وصاحب المزرعة عندئذ أن يذبح مواشيه ، فيكثر اللحم فى أول الأمر ، ولكنها كثرة خادعة تعقبها قلة ، لأن مقادير اللبن والزبد والبيض لا تلبث حتى تقلّ ، ثم ينقطع إنتاج اللحم وما يصاحب اللحم من مواد غذائية لا غنى عنها ، كالشحم والدهن وغيرها . ثم يبلغ الشر ذروته فى البلاد التى لا تزال على الفطرة ، حيث يعتمد الناس على مواشى اللحم فى النقل والحرث ، بدلا من اعتمادهم على الحصان والجرارة . فذبح الماشية فى شمال إفريقية والهند والصين ، يقتضى من الفلاح الجائع أن يجرّ المحراث بحبل مشدود إلى عاتقه المتهالك ، فتقلّ المساحة التى يحرثها ويزرعها قلة مطردة .

فنى جمهورية الأرجنتين ، وهى أكبر أرض تصدر الطعام فى قارة أمريكا الجنوبية، نقص إنتاج اللحم خلال سنة إلى ٦٠ فى المئة من محصولها المعهود ، وهبط محصول الذرة إلى الثلث أو أقلّ ، ودعت الحاجة إلى ذبح معظم الخنازير. فلما نقصت حكومة الأرجنتين ما تصدره من اللحم والشحم والحبوب نقصاً كبيراً ، أصابَ بريطانيا ، وهى فى طليعة الدول التى تستورد هذه المواد من الأرجنتين، أذى بليغ. واقتضت ضرورات السلامة الحربية يومئذ أن تمتنع الصحف عن الإشارة إلى ذلك ، وعمد وزير الطعام فى لندن إلى خفض جراية الشعب .

وفى الوقت نفسه قلّ محصول قصب السكر فى كوبا ، فاضطربت موارد هذه المادة الغذائية فى العالم كله . وواجهت المكسيك وسائر بلاد أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية نقصاً ذريعاً فى المخزون من طعامها، فاستغاثت بالأرجنتين والولايات المتحدة أن تزيدا ما تصدرانه إليها ، بيد أن الطبيعة كانت يومئذ قد شرعت تهجم هجومها .

فعلى ساحل إفريقية الشمالية ، أطبق جفاف شديد على الجزائر وتونس ومراكش . وهذه البلاد الخصبة لا تنتج ما يسد حاجة أهلها وحسب من القمح والشعير وزيت الزيتون والضأن والفاكهة والخضر ، بل تصدر أيضاً ما يزيد عن حاجتها إلى فرنسا وسائر بلاد البحر المتوسط . وقد تأخر

مطر الخريف فى سنة ١٩٤٤ عن موعده، فألفى الفلاح العربى المطـــر المتأخر يغمر حقوله فى زمن زرعها زراعة الخريف ، ولم يكد يبذر بذوره فى الأرض فى أشـق الأحوال ، حتى منعت السماء ماءها وغيثها .

فما وافت نهاية سـنة ١٩٤٥ حتى كان محصـول حبوب الخـــبز فى هذه الأقاليم الإفريقية الثلاثة ، قد هبط من ٤ ملايين طن إلى مليون أو أكثر قليلا . ومليون طن من القمح تكفى لتزويد عشرة ملايين من الناس بالخبز سنة واحدة ، فنقص هذا المحصول هـذا النقص الفاحش ، قد ترك ثلاثين مليون من الرجال والنساء والأطفال فى بلاد البحر المتوسط بلا خبز ، إلا أن يأتيهم الفرج من مصادر أخرى . ثم إن نصف الماشية فى شمال إفريقية نفق أو ذُبح . أما محصول الفول السـوداني والزيتون ، وهما مصدر زيت الطعام ، فقد هبط هبوطاً ذريعاً ، وانقطع إصدار الطعام بتاتاً أو كاد .

ودبّ هذا الشلل دبيبه فى أنحاء إفريقية الجنوبية كله، فقد ذوى نصف محصول الذرة الذى يعتمد عليه أهـل البلاد الأصليون ، وهم كُثر ، فى الظفر بطعـام لا يكاد يقيم أوَدهم ، ونقص محصول القمح إلى النصف أيضاً ، وقلت غلة البطاطس والفول . فما وافت نهاية سنة ١٩٤٥ حتى اضطرت إفريقية الجنوبية أن تبتاع طعامها من الخارج .

أما أسـتراليا ، أغنى البـلاد التى تنتج الحبوب والسكر واللحم والفاكهة واللبن والزبد والجبن للشـعوب التى تقطن حول المحيط الهادى الجنوبى والمحيط الهنـدى ، فقد نزل بها المحْـل الشـديد . فكانت سماؤها فى ربيع ١٩٤٤ صافية لا غيم فيها ولا سحاب ، وكانت شمسها كأنها جمرة نار . فنفق الضأن الذى تستورد بريطانيا لحمه ، وقلت غلة الحبوب ، وأخذ الأستراليون ، لأول مرة فى تاريخهم يصطفون صـفوفاً ليظفروا ببطاقات الطعام ، وكانوا يرسلون إلى إنجلترا كل ما يستطيعون أن يستغنوا عنه ، ولـكنه لم يكن كثيراً .

وبعد ما سرى الشلل فى أمريكا الجنوبية وإفريقية وأسـتراليا ، زحف القحط على أوربة نفسها . فهطل المطر مدراراً فوق بلاد الدانوب ـ وهى أهراء أوربة الوسطى ـ فى الأيام التى يتخذها الفلاحون لزرع الخريف وزرع الشتاء . وتلا هذا السيل المدمر جفاف دام إلى آخر صيف ١٩٤٥ ، فكان أفدح جفاف فى تاريخ أوربة الحديث .

فنقص محصـول القمح الهنغارى نقصاً كبيراً ، وهبط محصول الذرة إلى أقل من النصف ، وقلت محاصيل البطاطس فى أوربة الوسطى كلها . ولما كان الخبز والبطاطس

عماد طعام أهالى أوربة الوسطى ، فقد جاء هذا القحط ضربة قاصمة لشعوب أضنتها الحرب . وحدث مثل هذا فى إيطاليا وإسبانيا وهولندة ، وهبطت مقادير الطعام المتاحة إلى أدنى حد .

بيد أن الطبيعة لم تكن قد أفرغت كل مافى جعبتها ، فكان آخر سهامها ما أصاب الهند وسيلان وبرما ، فإن المطر الذى يهطل فى تلك الرقعة من الأرض بين ديسمبر ومارس لم يهطل قط لا فى سنة ١٩٤٤ ولا فى سنة ١٩٤٥ ، وصار محصول الأرز فى الهند أقل بثلاثة ملايين طن عن مقداره المعتاد . وأما برما ، أكبر أرض تصدر الأرز لجيرانها وهو عندهم فى منزلة القمح فى الغرب ، فلن تستطيع أن تصدر شيئاً منه فى هذه السنة ، أى أن كثيرين سيموتون جوعاً فى الطرقات والحقول . ومما يزيد الطين بلة أن طاعون المواشى المخيف قد فتك بعدد وافر من الحيوانات اللازمة للزراعة .

أما الولايات المتحدة وكندا وبعض الشرق الأوسط فقد نجت . وانظر إلى مجلس الطعام المشترك فى وشنطن الذى ينظم توزيع الصادرات ، ترَ رجاله وخبراءه يكدحون كدحاً فى تدبير نقل الطعام من مكان إلى مكان لكى يمنعوا خطر المجاعة ، ولكن لا بدَّ من أن تنقضى سنوات قبل أن يفيق العالم من الضربة التى سدّدتها إليه جوائح الطبيعة .

قبلة فى الظلام

المشهد فى غرفة قطار يجتاز رومانيا فى أثناء الحرب . والأشخاص : ضابط ألمانى ، وضابط رومانى ، وسيدة عجوز ، وفتاة حسناء .

يدخل القطار نفقاً ، فيسمع الركاب صوت قبلة أولا ، ثم صفعة قوية . ويخرج القطار من النفق إلى ضوء النهار ، فيلتزم كل راكب السكوت ، ولكن حول عين الضابط الألمانى هالة سوداء .

تقول العجوز : إنها فتاة كريمة الأخلاق .

تقول الفتاة : ترى لماذا حاول أن يقبل العجوز دونى ؟

يقول الألمانى : هذا الرومانى بارع ، يفوز هو بالقبلة وأصفع أنا .

يقول الرومانى : أنا رجل بارع حقاً ، أقبل ظهر يدى وأصفع الألمانى ثم أنجو !

الشخصيات التي لا تنسى :

أبي

ميجن توكفج

أبي يأبى أن يبعث بأبنائه إلى المدرسة ، وإن كانت مدارس الدنمرك حسنة حتى قبل نصف قرن . وكان يقول إن الأطفال في الفصول الكبيرة يضطرون أن يحفظوا معظم الأشياء عن ظهر قلب ، فتكون النتيجة أن لا يحدث شيء يستحق الذكر داخل رءوسهم . وقد كان هو مدرساً ناجحاً قبل أن يصبح محرراً لصحيفة يومية في بلدة دنمركية صغيرة ، وكان هو يعلمنا بنفسه على الرغم من مشاغل حياته .

وكان يقول لنا كثيراً : « ليس عليكم أن تستظهروا شيئاً سوى حروف الهجاء وجدول الضرب ، فإن كل شيء في الكتب إذا عرفتم كيف تستعملونها » .

وقد تعلمت القراءة وأنا ما زلت أجلس على قدمه فيرفعها بي ، وسرعان ما أخذ بعد ذلك يهدي أصابعي الصغيرة في كتب المراجع التي عنده ، وما أحسب أن طفلا آخر أولى مني بشكر أبي على ما علمني من المراجعة والبحث .

وكان أبي شغوفاً بمصادقة الناس والحيوانات . فيدخل مثلاً مركبة قطار ، ويكون هناك رجل آخر منطو على نفسه ، وبعد لحظة ، إذا لم يقابل الرجل ابتسامة أبي بمثلها ، يعلق أبي على شيء غير عادي يراه من النافذة . وقد يتمتم الآخر ، ولكن أبي لا يزال به حتى يهتدي إلى الموضوع الذي يكون هذا الرفيق أدرى به .

وبعد ذلك يتدفق الحديث ، ويشعر الرجل أنه محل تقدير ، فينطلق بحريته ، ويستفيد أبي فهم جانب جديد من الحياة أو الطبيعة الإنسانية .

وكان دائماً يقص علينا القصص قبيل النوم ، وكان أحبها إلينا عن الأيام التي كان فيها أبي صبياً يرعى البقر على المرج . وكان وحده طول النهار ، فدرس الحيوانات والطيور والحشرات ، وكان يجيد تمثيل سلوكها لنا ، حتى لكنا نعم بحيل الثعلب والكروان والعنكبوت .

وأحسبنا كنا رقيق الحال ، ولكن كل

امرىء كان فى مثل حالنا تقريبـاً . وكان دخل أبى من الجـريدة نحو ستمئة ريال فى العام، وكان هذا المبلغ يعادل فى ذلك الوقت من حيث القدرة على الشراء نحو ألفى ريال فى الولايات المتحدة . وكان لنا خادم ، وكانت الفتيات الريفيات يسرهن أن يعملن فى بيتنا. وقد حدثتنى إحداهن فيما بعد ، أنه لم يكن بيتاً بهيجاً فحسب ، بل كان المرء يتعلم فيه أشياء كثيرة .

وكان الطعام البسيط جيـداً ووفيراً ، أما الثياب الزاهيـة أو الجديدة فكانت نادرة ، وكذلك موادّ الترف . وكان يندر أن نأكل برتقالة ، وكان أبى قبل أن يقسمها بيننا يحز على قشرتها خطوطاً تبين خطوط الطول والعرض للكرة الأرضية .

وكانت جميع المبانى الرئيسية فى بلدتنا الصغيرة التى يناهز تعدادها ألفى نسمة ، بسـيطة هادئة تحيط بها الحدائق ، فكان الأطفال الصغار يشبّون فيها وهم فى أمان ، ويحاط الأطفال الكبار بالعناية والرفق ، — والفقر المدقع لا وجود له . —

ولا شك أن بلدتنا لم تكن جنة عدن . وقد كان أبى ينتقد كل ظلم يراه جلّ أو دقّ . وقد حدث أن عجوزاً كانت تبيع الكعك الدنمركى فى سـلة مصنوعة من الأعواد المجـدولة ، فسعى الخبازون حتى سحبت منها رخصتها. فجاءت إلى أبى شاكية، فاستردها لها ، ثم لم يزل يتعقب خبازاً منهم على وجه الخصوص حتى اضطره إلى تصفية مخبزه . وفى مرة أخرى حكم على اثنين من الصـيادين بغير وجه حق ، فنقض الحكم بفضل أبى .

وكانت الجغرافيا أحب موضوع إلى أبى وإلينا أيضاً . ولم يكن يخرج بنا قط لشىء ممل كالتمشى ، وإنما كان يذهب بنا فى « رحلات » . ففى يوم من أيام الصيف ، جعلنا نرافق ستانلى فى أظلم مجاهل إفريقية ، وفى يوم من أيام الشتاء ، حملنا على مركبات الجليد مع نانسن فوق ثلوج جرينلنـد ، وكاد يبلغ بنا القطب الشمالى . ولم أكن أخاف العـواصف أبداً ، لأن أبى كان يخرج بى فى صـغرى ليلقى علىّ درساً فى الـكهرباء، ويرينى جمال الخضرة والزرقة فى البرق .

وكان إذا سافر لعمل له يستصحب أحدنا

سيجن توكسفيج زوجة فرانسيس هاكيت ، روائية ومؤرخة مشهورة جاءت إلى أمريكا من وطنها الدنمرك فى سنة ١٩٠٦ وبعد أن تخرجت فى جامعة كورنيل فى عام ١٩١٦ اشتغلت بالصحافة، وكانت تحرر خلال الحرب نشرة إنجليزية تذيع أخبار المقاومة السرية فى الدنمرك . وهى مؤلفة أربع روايات ، وترجمة حياة هانز كرستيان أندرسون .

ليريه الأماكن التاريخية . وقد أرانى مرة قبر بطل ، وروى لى قصة حياته على نحو جعلنى فى تلك الليلة حين أويت إلى فراشى، أعرف اليأس للمرة الأولى ، فقد استقرّ فى ذهنى أن الموت سيفرقنا يوماً ما .

وقد آمنت بهذا لأنى كنت أعلم أن أبى يؤمن به ، وقد استعان بنظرية داروين وعلوم القرن التاسع عشر على النفاذ بعقله مما كان يسميه الجمود الدينى . وكان يقول إن المرء إذا وافق هؤلاء القساوسة على أن هناك عالماً آخر فإنهم لا يلبثون أن يدّعوا أن فى وسعهم أن يقرروا مصيره فيه .

وكان أبى رحالة بطباعه ، فكان قلبه يرقّ للشريد الذى لا يستقر ، ويدرك أنه لا يطيق القرار ولا يصبر على التطواف ، كما لا يسعه هو إلا أن يكون معلماً . وكان يصر على القول بأن من الخطأ قذفهم فى السجون، ومن أجل هذا أنشأ جمعية سماها «أصدقاء المشردين » تهيء لهم أرضاً يعملون عليها، ولا تحرمهم ما يحنون إليه من العيش فى الفضاء الطلق .

ولما بلغ أبى الخامسة والخمسين تغلبت عليه فطرة الرحالة والشريد ، فقرر أن يرحل عن الدنمرك ، واختار الولايات المتحدة،لأن الكاتبين ثورو وإمرسون كانا له فى منزلة الأرباب (لم يكن لأبى دين يتبعه ، ولكن كانت له أرباب كثيرة) ، وكان قد استوثق من عمل يتولاه فى جريدة دنمركية أمريكية ، ثم لما وجد أن سياسة الجريدة رهن بما يعده سياسة محلية فاسدة ، تركها وألقى بنفسه فى خضم أمريكا بلا معين .

وبعد عام أرسل فى طلب زوجته وبنيه ، وكانت معرفته بالإنجليزية دون الكفاية لصحفى ، ولم يكن له أصدقاء فى أمريكا يشدّون أزرهُ ، فاضطر أن يعمل بيديه ، وتذكر أن سبينوزا الفيلسوف الذى عاش فى القرن السابع عشر ، كان يكسب رزقه بصنع العدسات، وقد تعلم أبى هذه الصناعة ، وصار يكسب سبعة ريالات فى الأسبوع .

وكان هذا دون الكفاية للأُسرة ، فعالج أشياء أخرى ، فعمل خادماً يغسل الأوانى فى مطبخ فندق ، وكان يشتغل ١٤ ساعة فى اليوم ولا ينتهى قبل نصف الليل ، وكان يومئذ فى الستين من عمره . وكان بين خدم المطبخ الآخرين شاب إيطالى اسمه فيليب ، فدرس أبى قواعد اللغة الإيطالية ، وأدهش الشاب بمخاطبته بلغته ، ومالبث فيليب بعد ذلك أن أقبل على أبى وقال له : « كف عن العمل فى الساعة العاشرة » ، وبين له أنه سيقوم عنه بغسل الأوانى فى الساعتين الباقيتين . فاعترض أبى ، ولكن فيليب أصرّ ، فصار أبى فى السنوات التالية

لا يذكر ما وهبه إياه فيليب من الوقت إلا والدمع يترقرق فى عينيه .

وقد تذكرت هذه القصة حين قال صديق: « كل امرىء ينطوى على إنسانين : ملك وصعلوك . وكان أبوك دائماً يهيب بالملك فيستجيب ويظهر » .

وعالج أبى الفلاحة فى حقل بسيط فى نيويورك ، ولم يكن ثم أثاث يذكر ، ولكن دائرة المعارف البريطانية كانت مصفوفة على رف خشن — اشتراها بالتقسيط ، وبهذا أبى إلا أن يكون مخلصاً لنفسه .

وسأله جيرانه ذات مرة أن يكف عن تعذيب الخنزير ، فقد كانوا كثيراً ما يسمعونه يصرخ « صراخ معذب » كما قالوا ، وفى ساعة معينة من كل يوم . وكان تفسير ذلك أن أبى كان وهو خارج ليتعهد البقر ، يقف ويحك بأصبعه ما وراء أذن الخنزير ، فألف الخنزير ذلك وصار يصرخ صرخات فظيعة كلما نسى أبى أن يفعل ذلك .

ولما كان أبى لا يحسن الإنجليزية فإنه لم يستطع أن يشرك الأمريكيين فى معرفته بالمدارس الشعبية الدنمركية للبالغين ، وهى التى يسرت للفلاحين الدنمركيين وزوجاتهم أن ينتفعوا بالجمعيات التعاونية انتفاعاً عظيماً. وكان أبى قد ساعد على تأسيس مدرسة من هذا النوع ، فاتخذ من غرفة فوق الإسطبل قاعة للمحاضرات ، وصار هو وزميل له من المحررين يحاضرون الفلاحين بلا أجر ، مدفوعين برغبتهم القوية فى ترقية التعليم .

إن التطور بواسطة التربية — لا الثورة — شعار الدنمرك . وقد وضع أساس هذا الموقف رجال من أمثال أبى الذى ظل ٢٠ عاما يستخدم الصحافة فى سبيل العدل والتثقيف والتعاون . ولم يكن له مطمح بالمعنى العادى مثل طلب المال أو القوة ، ولعله لم يصنع شيئاً كبيراً ، ولكن هل ثمّ إحصاءات تبين أثر فردٍ أو جماعة فى التمهيد لأيام أطيب وأرغد ؟ إن المستقبل يتطلب عدداً لا يحصى من أهل الإيثار ، وقد كان أبى من هؤلاء .

وبعد أن قضى ١٥ عاماً فى أمريكا وكبر بنوه وصاروا قادرين على بذل العون له ، ذهبت أيام الكدّ والمتربة .

وفى السبعين من عمره عاد إلى الدانمرك مع أحد أخوتى ، وقد كتب هذا يقول إن عودة أبى كانت رحلة نصر ، حافلة بالأعلام وطاقات الزهر ، والولائم .

وألقى محاضرات عن أمريكا المدهشة ، ولم يذمّها قط من أجل أنها لم تفسح له مجالاً للنجاح فيها . واحتشد الناس يستمعون له ، فقد كانوا يعرفون أنه قام فى سبيلهم بشىء كثير ، وقالوا فى خطبهم لتكريمه : « لقد مهدت الأرض لديمقراطيتنا الاجتماعية »

وكانت أيام شيخوخته سعيدة هادئة . ولما كانت آفاق العلم الجديدة تحرك نفسه وتساعدها على الازدهار ، فقد كان يبدو أصغر من سنه إلى أن بلغ الثمانين . والواقع أن الشيخوخة أبرزت جمال معارف وجهه، وبريق القوة فى شعره الأبيض ، ولم تطفىء البصيص الساحر الذى فى عينيه . وقال وهو فى الحادية والثمانين يوم رقد على ما كان يعلم أنه فراش الموت : « ليس لى ما أشكو منه ، ولقد عشت طويلا ونلت حباً كثيراً » .

وطلبت منه أن يتفكر عسى أن لا يكون الموت نهاية كل شىء ، ولكنه كاد يقطب فى وجهى ، فقد كان الإخلاص وصدق السريرة لباب أبى ، ولم يستطع أن يقول لى رغبة فى مرضاتى إذ كان يحبنى : « نعم ، قد يكون هناك شىء آخر . من أدرانا ؟ » . فقد كان لا يقول شيئاً إذا كان لا يعرفه .

ثم حدث وأنا جالسة بجوار سريره ، تغير فظيع ، فقد بدا عليه أنه انتقل من النوم الخفيف إلى غيبوبة ، وفارق وجهه منظره الطبيعى الذى احتفظ به فى مرضه ، وانقطع نفسه ، ودخلت الممرضة على أطراف أصابعها وفحصته ، فقال لى وجهها إن الأمر قد قضى ، وتركتنا وحدنا .

ولا أدرى كم لبثت معه ، وقد بكيت نحو ساعة قبيل غروب الشمس — أو أكثر من ساعة — ثم نظرت إليه فجأة فإذا بوجهه حى ، حساس ، مشرق مرة أخرى ، وفتح عينيه وكانت زرقتهما عجيبة ، وفيهما نور كان قد خبا أخيراً . ونظر إلىّ بكل ما فى قلبه من حنان ، وسمعته يقول بصوته الحازم : « لا تبكى يا صغيرتى ، فإنى الآن أعرف أننا سنلتقى مرة أخرى ! »

ثم أغمض عينيه ، وغاضت الحياة من وجهه ، ولم يبق إلا الهيكل الذى يبدو لى أنه لا صلة له بأبى . وكيف أفسر «عودته» وكلمته ؟ لست أفسرها ، لأن الحقائق ليست عندى ، ولكنى أحسها عنده .

أين يذهب المال ؟

أقام فردريك الكبير ملك بروسيا حفلة فاخرة فى قصره ، ودعا إليها النبلاء والمقدمين من رجال الحاشية . وفى أثناء المأدبة سألهم أن يبينوا له لم يطرد نقص الدخل مع زيادة الضرائب . فقال أحد القواد : « سأبين لجلالتكم أين يذهب المال » .

وأخذ قطعة من الجليد فى يده ورفعها حتى يراها الحاضرون ، ثم ناولها إلى جاره ، وطلب منه أن يناولها لمن يليه وهكذا ، حتى وصلت إلى الملك ، فلما تلقاها فردريك كانت قد صارت فى حجم حبة الحمص .

وهم النافذة المحطمة

هنرى هازليت ★ مختصرة من كتاب "الاقتصاد فى درس واحد"

أحد الدهماء نافذة خبّاز بحجر **يقذف** فيحطم زجاجها ، فيحتشد جمهور من الناس ، ويقول بعضهم إن فى هـذا الحادث بعض الخير ، فهو يهيىء لصانع الزجاج عملاً ، فيزداد دخله ٥٠ ريالا ينفقها عند تجار آخرين ، ويزداد دخل هؤلاء ٥٠ ريالا ينفقونها فى شئونهم عند غيرهم من التجار . وهكذا ترى النافذة المحطمة لاتزال تهيىء مالاً وعمــلا فى دوائر تتسع اتساعاً مطرداً .

ألق على الموضوع نظرة ثانية ، إن هذا التخريب سيزيد عمل صانع الزجاج ، ولـكن الخبّاز خسر ٥٠ريالا كان يزمع أن يشترى بها حُلة جديدة من الخياط ، فبدلاً من أن يكون عنده واجهة من زجاج و ٥٠ ريالا ، تراه لايملك سوى الواجهة بعد إصلاحها . فما كسبه صانع الزجاج خسره الخياط ، ولم يزدد مجموع العمل شيئاً .

وفى وسعك أن تطبق منطق « زيادة القدرة على الشراء » على لص يسلبك مالك ، فقدرة اللص على الشراء تزداد بعد فعلته ، ولـكن كل عمل يخلقه هو بما ينفقه من مالك ، ينقص ما تنفقه أنت ، لأن ما تنفقه يقلّ على قدر المبلغ الذى يسلبك إياه .

ولعلّ وهم النافذة المحطمة فى شتى أشكاله هو أكثر الأوهام رســوخاً فى تاريخ الاقتصاد ، وهو اليوم أشـد ذيوعاً منه فى أى زمن مضى ، وترى أساطين الصناعة وزعماء العمال والكتّـاب وأساتذة الاقتصاد يلهجون بتأييده . وسبب رسوخه فى الغالب هو ميل الناس إلى وزن سياسة ما بميزان أثرها المباشر وحسب ، أو ميزان أثرها فى جماعة خاصة وحسب ، ويغفلون البحث عن أثرها البعيد فى الناس جميعاً . وتسعة أعشار الأوهام الاقتصادية التى تؤذى العالم اليوم أذى عظيماً مردُّها إلى أن الناس يغفلون حقيقة واقعة هى : أن بعض الخطط ينفع الناس نفعاً صادقاً على الزمن ، وأما البعض الآخر فلا ينفع إلا جماعة خاصة على حساب غيرها من الجماعات .

تدبر ماشاع من اطمئنان الناس إلى إنفاق مال الحكومة فى المشروعات العامة ، ترَ أن

ذلك يُعَدّ فى أرجاء الأرض علاجاً ناجعاً لجميع أدوائنا الاقتصادية ؟ أثمة بطالة ؟ إنها ناجمة عن ضعف قدرة الناس على الشراء ، وما على الحكومة إلا أن تنفق من مالها ما يكفل سدّ هذا النقص .

والحقيقة أن كل شىء نظفر به ينبغى أن نُوفى ثمنه — ما عدا ماتهبنا إياه الطبيعة . ولكن العالم زاخر اليوم برجال من أدعياء الاقتصاد ، لايفتأون يطلعون بمشروع بعد مشروع للحصول على ما نريد بغير أن نوفى ثمنه ، فيذهبون إلى أن الحكومة تستطيع أن تمضى فى الإنفاق دون أن تلجأ إلى فرض الضرائب ، وأنها تستطيع أن تكدس الديون عليها ولا توفيها ، لأن الشعب هو الدائن والمدين جميعاً .

مثل هذه الأحلام ذهبت بدداً فى الماضى فى سورة الإفلاس أو التضخم الجامح . فكل قرش تنفقهُ الحكومة ، ينبغى أن يسدّد آخر الأمر من الضرائب ، وإرجاء يوم الحساب لايرجىء الشرّ وحسب ، بل يزيده تعقيداً على تعقيد .

إن كلامى لا ينصبُّ على الأعمال العامة التى تمس إليها الحاجة ، بل على الأعمال التى تتخذ وسيلة « لتدبير عمل للعمال المتعطلين » وحسب ، أو « لزيادة ثروة الجماعة زيادة لم تكن متاحة » لولا هذه الأعمال . هذا جسر يُبنى ، فإذا سَدّ بناؤه حاجة فى المواصلات أو النقل ، فليس ثمة اعتراض على بنائه . أما بناء الجسر لكى « ينشىء عملا » وحسب ، فمسألة أخرى . وحين يكون الغرض تدبير عمل ، يصير توخى المصلحة العامة فى المرتبة الثانية . وبدلاً من أن يفكر رجال الحكومة أين ينبغى أن يبنى الجسر ، تراهم يفكرون أين يمكن أن يبنى، ثم لايلبثون أن يلتمسوا مسوّغاً لبنائه فى مكان بعينه . وسرعان ما يبدو مشروع الجسر أمراً لا غنى عنهُ ، وكلُّ من يشك فى ضرورته يرمى بالرجعية وعرقلة أعمال الحكومة .

وهم يزعمون أن بناء الجسر يهيىء عملاً لخمسمئة رجل فى عام واحد ، لكى يدخلوا فى روعك أن هذا العمل كان مستحيلاً لولا هذا المشروع ، ولكن نفقة بناء الجسر ينبغى أن تسدد من الضرائب. وكل ريال يصرف على بناء جسر لا ضرورة لهُ يؤخذ من دافعى الضرائب ، فإذا كلف مليون ريال ، خسر دافعو الضرائب مليون ريال كانت خليقة أن تكون أجدى عليهم لو أنفقت فى أشدّ ما تمسُّ حاجتهم إليه .

وإذن فكل « عمل » تخلقه الحكومة ببناء الجسر ، يقابله ضياع « عمل » خاص فى مكان ما . ونحن نرى العمال يجهدون

فى بناء الجسر ، فتتجلى لنا حكمة قيام الحكومة على إنفاق مالها . بيد أن هناك أشياء أخرى لانراها ، لأن فرصة الظهور لم تتح لها ، وهى تلك الأعمال التى ضُيعت حين جبت الحكومة مليون ريال من أجل الجسر .

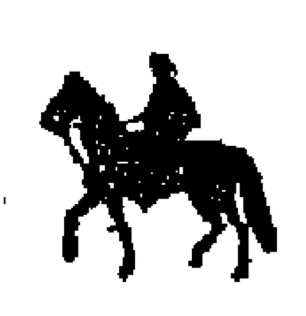
وكلُّ ما تمَّ إنما كان تحويل العمل من ناحية إلى ناحية ، فقد زاد عدد عمال الجسور وقلَّ عدد عمال السيارات أو الراديو أو البناء . ورجال الحكومة يستطيعون أن يروا الجسر الذى مدّوه ، ولكنهم لو دربوا أنفسهم على رؤية الآثار المباشرة وغير المباشرة لعملهم ، لاستطاعوا أن يروا البيوت التى لم تبنَ ، والسيارات وأجهزة الراديو التى لم تصنع .

وكل سعى لخفض عدد موظفى الحكومة الذين يزيدون عن الحاجة ، يقابل بصيحة عالية : إنك إذا سلبتهم قدرتهم على الشراء ، خفضت الدخل القومى . وهذا نفسه هو وهم النافذة المحطمة ممثلا فى شكل آخر . فالمعترض ينسى أنه لو أقصى هؤلاء عن مناصب الحكومة ، لاحتفظ دافعو الضرائب بالمال الذى يجبى منهم لدفع مرتبات هؤلاء الموظفين . ولو بقى هذا المال فى أيدى الناس لزادت قدرتهم على الشراء ، بقدر ما تهبط قدرة الموظفين المفصولين على الأقل .

ولا تقف المسألة عند هذا الحد ، إن حال الأمة لا تسوء لفصل هؤلاء الموظفين بل تتحسن ، فعلى كل منهم أن يسعى إلى عمل ، ولن يناله إلا إذا كان قادراً على أن ينفع أصحاب الأعمال . فبدلاً من أن يكونوا متطفلين على المجتمع ، يصيرون رجالاً ونساء منتجين .

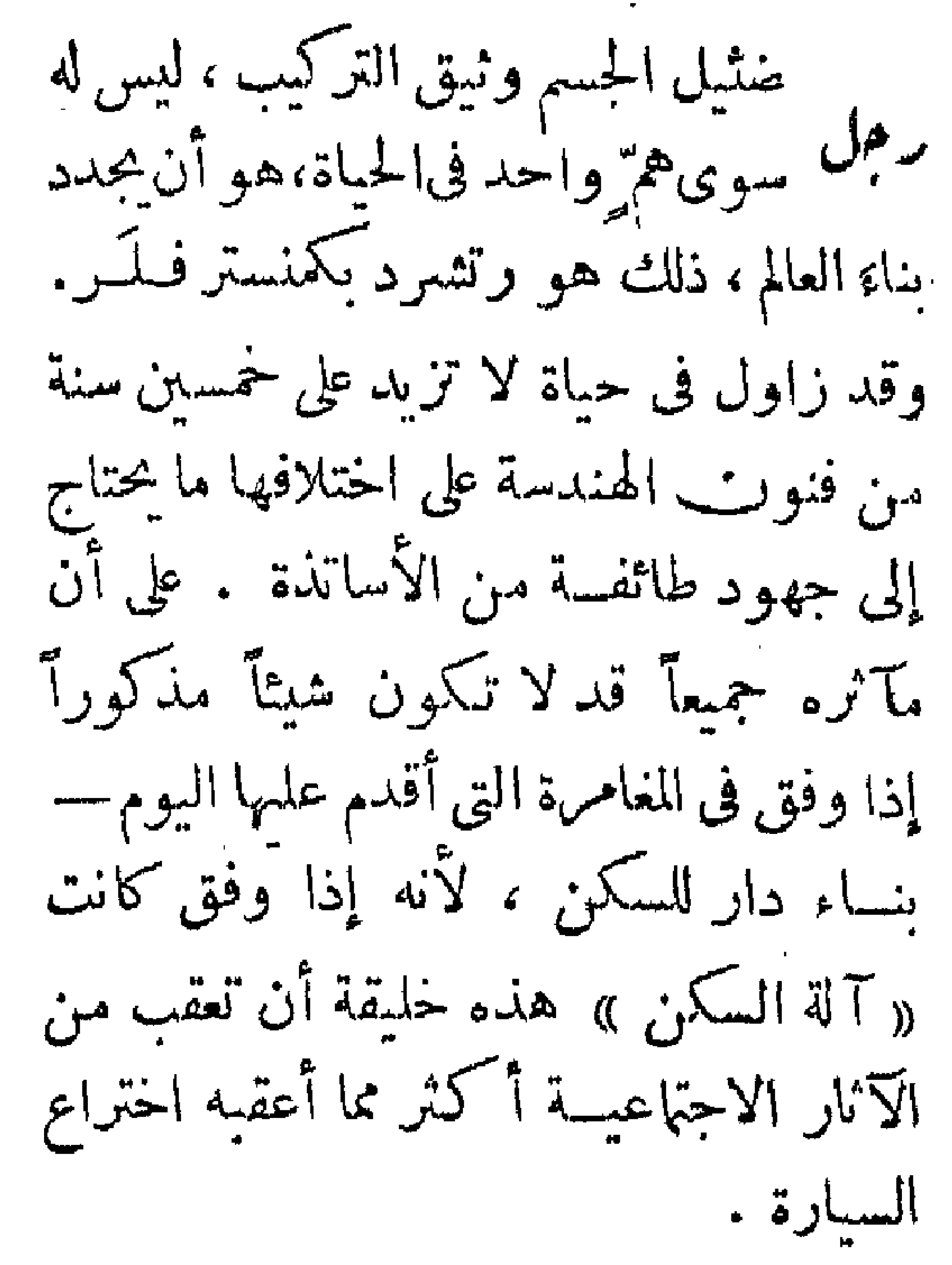
فإذا ما درسنا الخطط والمناهج وماتعقبه من آثار ، وجب أن لا نقصر الدرس على آثارها القريبة فى جماعات خاصة ، بل يجب أن يشمل الآثار البعيدة فى جميع الجماعات ، ويومئذ نرى أن ما نخلص إليه من رأى يتفق وما تمليه البديهة السليمة . ولن يخطر لأحد أن وهم النافذة المحطمة فيه نفع للناس ، ولا أن تدبير أشغال عامة لاحاجة إليها فيه شىء سوى العبث والتبذير ، ولا أنه من الخير أن نستبقى من لا حاجة إليه من رجال الحكومة .

فثمة أقوال كثيرة تبدو صحيحة إذا حصرنا النظر فى جماعة اقتصادية واحدة ، ولكن خطلها يتجلى لنا إذا وزناها بميزان المنافع التى تعود بالخير على الناس جميعاً .



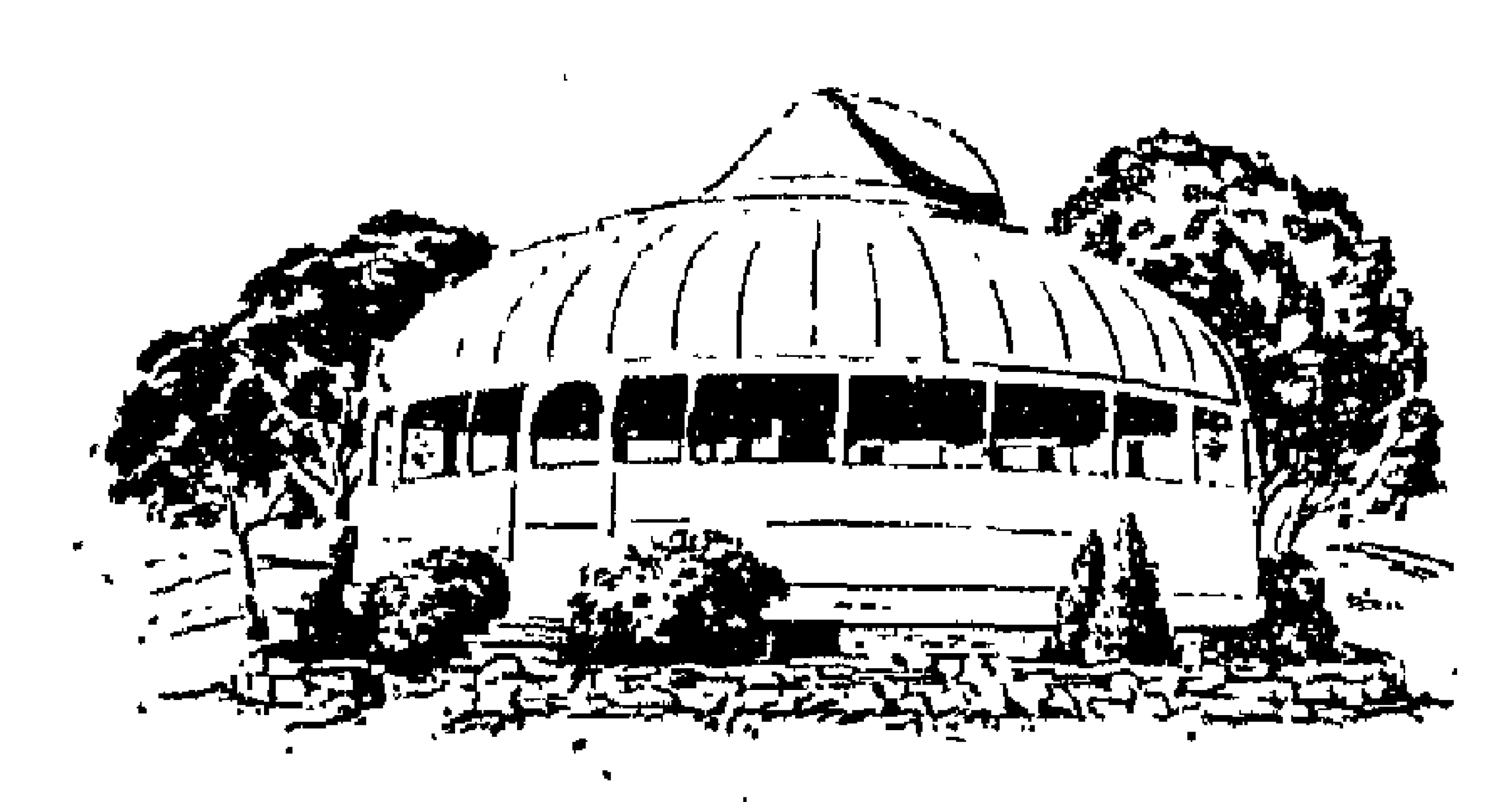
هذه دار المستقبل

مختصرة من مجلة "فورتشن"



رجل ضئيل الجسم وثيق التركيب ، ليس له سوى همٍّ واحد فى الحياة ، هو أن يجدد بناء العالم ، ذلك هو رتشرد بكمنستر فلر . وقد زاول فى حياة لا تزيد على خمسين سنة من فنون الهندسة على اختلافها ما يحتاج إلى جهود طائفة من الأساتذة . على أن مآثره جميعاً قد لا تكون شيئاً مذكوراً إذا وفق فى المغامرة التى أقدم عليها اليوم — بناء دار للسكن ، لأنه إذا وفق كانت « آلة السكن » هذه خليقة أن تعقب من الآثار الاجتماعية أكثر مما أعقبه اختراع السيارة .

وقد برم أحد رجالات الحكومة فى وشنطن لما سمعه من مرؤوسيه عن دار فلر العجيبة ، فاستقل طائرة ليرى الدار التى شيدتها شركة طائرات بيتش ، فمضوا به إلى المبنى الذى أخفى فيه نموذج هذه الدار ، فلم يكد يراها حتى صاح : « رباه ! هذه دار المستقبل ! » . فلما انقضت دهشته قال : إن هذه الدار إما أن تحدث إنقلاباً خطيراً فى الصناعة ، وإما أن تكون أعظم



> حين تدخل دار فلر المستديرة الشكل الخفيفة الوزن الرخيصة الثمن ، تحس كأنك تعيش لأول مرة فى جو القرن العشرين ، قرن العلم والصناعة .

خيبة فى التاريخ ، وأنه يراهن على أن الانقلاب هو أقرب الأمرين .

وقد بدأ فلر يصنع هذه الدار منذ نحو عشرين سنة حين نزل به الإخفاق فى طريقة للبناء وضعها وأطلق عليها وصف « ستوكيد » ، وكان أساسها أن يتخذ الأبرق ولبنات مصنوعة من الألياف لتحمى داخل البناء من أثر الحرارة والبرد فى الخارج . وقد ظل خمس سنوات يحرص على تنفيذ هذه الطريقة ، فعلم علم المجرب ما يعانيه كل من يحاول إحداث تغيير يسير فى أساليب البناء من مصاعب لا تحصى . فقد عانى فى كل عمل أقدم عليه متاعب

شديدة ، من قبل العمال ، ومن جهل المقاولين، ومن النفقات الباهظة ، وقد هاله أنه لم يتبين طريقة تمكنه من أن يصنع داراً صالحة ليشتريها أصحاب الدخل اليسير من الناس .

فلما أخفق فيما حاول ، نقل أسرته إلى أحياء الفقراء فى مدينة شيكاغو ، وعزم أن ينسى طلب الرزق حتى يرتب شتات آرائه وخواطره . فأسفر ذلك فى سنة ١٩٢٧ عن تصميم الدار التى أطلق عليها اسم « ديما كسيون » ، وهى دار مسدسة الجوانب معلقة على صارية من فلز ، كأنها تفاحة مغروزة فى سن رمح. وهى دار مجهزة بأجهزة ضبط الهواء ، وأثاثها جزء منها مبنى فيها ، ومطبخها صغير ولكنه حافل بأدوات الطبخ الحديثة ووسائل الغسل الآلية . فوصفه كثير من الناس بقولهم إنه خيالىٌّ مخبول ، ولكن شذَّ منهم بعض أهل الجامعات فدعوه إلى إلقاء محاضرة ، وشدَّ أزره فريق من مهندسى المعمار .

وبعد أن قضى سنوات يروّج لآرائه ، خلص فلر إلى القول بأنه ينبغى له أن يرجىء أمر الدار ، فهو يحتاج فى بنائها إلى الألومنيوم واللدائن (العجائن الكيميائية) وأخلاط الصلب المتينة ، ولم يكن شىء منها متاحاً له يومئذ بأسعار مقبولة . فلما انصرف عن الدار ، صنع حماماً على طراز جديد ، بيد أن مديرى الشركات الكبيرة التى تصنع الأحواض والمراحيض وغيرها من أدوات الحمام ، أبت أن تفسح المجال لمنافس جديد ينافسها .

فلم يثن ذلك من عزم فُلر ، فما طلعت سنة ١٩٤٠ حتى طلع هو على الناس بتصميم لدار مبنية بألواح من الصلب المضلع كالتى تستعمل فى بناء مخازن الحبوب . وبنيت بضع دور على مثاله ، ثم نشبت الحرب فتعذر الظفر بألواح الصلب . وكلا الدارين — الدار المشيدة بألواح الصلب والدار الموصوفة باسم « ديما كسيون » ، تعدُّ شيئاً متخلفاً عتيقاً حين تقابلها بالدار الجديدة المصنوعة من الألومنيوم واللدائن . ولكن الفكرة الأصيلة فيهن جميعاً هى هى لم يطرأ عليها تغيير .

إن فلر يقول : إذا أردنا أن نتيح لجميع الناس مساكن صالحة ، وجب أن تكون المساكن مما يمكن إعداد مقادير كبيرة منها بالصناعة . فالإنتاج الصناعى الواسع قرين لسهولة النقل ، وسهولة النقل تقتضى خفة الوزن . ولذلك ترى فلر قد صنع داره من الألومنيوم والصلب الذى لا يصدأ ، ومن اللدائن ، بدلا من أن يبنيها بالآجر والخشب. وهى تزن نحو ثلاثة أطنان بدلا من مئة طن ، وهو الوزن الغالب . وهى متدلية من محور

عمودي كالصارية ، وليست مشيدة على أساس . وهى مستديرة لا مربعة ، لأن الشكل المستدير يتيح للمهندس أن ينتفع أقصى الانتفاع بمتانة المواد التى تصنع منها الدار .

وليس فى الدنيا مسكن قريب الشبه بهذه الدار ، فهى الدار الوحيدة التى صممت لكى تصنع صنعاً واسع النطاق . وقد صنعت فى مصنع للطائرات مع الطائرات نفسها ، ومن مواد الطائرات ، وتولى صنعها عمال الطائرات بالأدوات نفسها . وفى وسع شركة بيتش وحدها أن تصنع منها ستين ألف دار فى السنة .

ولما كانت دار فلر خارجة على كل مألوف معهود فى البيوت ، ترى المقابلة متعذرة بينها وبين البيوت المعهودة — بل هى أدنى فى الذهن إلى الطائرات وسفائن البحر والقطارات الحديثة . فالبهو يشبه الإسفين وهو يشغل مساحة ٣٣٨ قدماً مربعة ، أى ثلث مساحة الدار . والجدار الخارجى نافذة مصنوعة من الألومنيوم والزجاج الذى لا يتشظى (بلكسيجلاس) . والنافذة تلتفّ بالدار كلها ، وترى من النافذة الحبال الممدودة التى علقت بها أرض الدار ، ويتدلى فى داخل الدار من قاعدة الشباك حصيرة ملوّنة مصنوعة من اللدائن . أما أرض البيت فمصنوعة من ألواح خشب (الباركيه ، الأبلكاش) مركبة بين ضلوع من الألومنيوم تنتشر وتلتقى كضلوع المروحة ، وأما الموقد فمن الصلب الذى لا يصدأ . وفى أسفل جدران البيت شقوق تخرج الهواء الفاسد من الحجرة ، وتعيده نقياً من خلال ثقوب فى أرض البيت إلى جهاز ضبط الهواء ، فتدفىء الأرض فى الشتاء .

وتجد فيها ثلاث حجرات سوى البهو ، وكلٌّ منها تشبه الإسفين ، وفيها حمامان وموقد ، ومغسلة لصحون الطعام ، وثلاجة ، ووعاء للزبالة ، وثلاث خزانات دوّارة . وشكل الدار المستدير يثير الريب فى أول الأمر ، ولكنك لا تكاد تدخل البيت حتى تنسى اعتراضك بل ربما راقك كل ما ترى . وأهم ما يستوقفك هو شعورك بالترف فيما ترى ، وليس مرجع ذلك إلى جودة المواد وجمال الأثاث وحسب ، بل مرجعه أيضاً إلى الضوء المنتشر من سقف البيت ، وهو قبة ترتفع ذروتها عن الأرض ١٦ قدماً .

ومنذ صنع هذا النموذج فى شهر أكتوبر الماضى زاره وتفقده كثيرون من جميع أنحاء البلاد ، فأعجبوا به وتحمسوا له . وقد جيء بزوجات ثمانية وعشرين من العمال لزيارته فكان مختصر أقوالهن : (١) إنه جميل (٢) أستطيع أن أنظفه فى نصف ساعة

(٣) وقالت ست وعشرون منهن : « أريد أن أشتريه »

وهذا القول الأخير لايعني أن ٩٣ في المئة من النساء يردن أن يقتنين داراً من دور فلر ، فنفوس الناس وألوان شعورهم وثيقة الارتباط بما ألفوه وتواضعوا عليه من معنى البيت، حتى لترى كثيرين قد استنكروا بيت فلر استنكاراً قوياً حين شاهدوه . ولكن سواء منهم من أحبه ومن كرهه ، فكلاهما يكنُّ الإجلال لاهتمام فلر اهتماماً صادقاً بمشكلة تهيئة سكن صالح للناس من ذوى الدخل اليسير ، وكلاهما يقدر التفكير السليم الذى اتخذه أساساً لما يراه من حل لهذه المشكلة .

وأول سؤال يبتدره به الناس هو هذا : « لماذا جعلت البيت مستديراً ؟ » فيكون جوابه : « إن شكل الدار تابع للمواد التى يبنى منها . فالإيجلو ، بيت الإسكيمو ، هو قبة ، لأنك لاتستطيع أن تقيم بيتاً من قطع الجمد إلا أن يكون كالقبة . والبيوت المألوفة مربعة مستطيلة ، لأن الخشب أو الطوب الذى تبنى به قطع مستطيلة . وأما دار فلر المستديرة فتجعله ينتفع بالمواد المعدنية الخفيفة الوزن ، وبذلك يقلل من زنة الدار .

والدار شبيهة بعجلة مدلاة من مركزها ، وجدرانها لاتحمل السقف كما تحمله الدار المألوفة ، ولا تحمل أى شىء آخر ، بل هى محمولة. وتتوسط الدار سارية قائمة على أساس متين ، وتمتد من رأسها فى جميع الجهات كأضلاع المروحة ، حبالٌ من معدن تحمل السقف والجدران ، وأرض البيت التى تراها مرتفعة عن سطح الأرض مقدار قدم. وأطراف الحبال مشدودة إلى الأرض كأنها أسباب الخيام مشدودة إلى أوتاد ، فتمنع الدار أن تميل أو تدور . والجسر المعلق خفيف بالقياس إلى الجسر المشيد فوق دعائم ، لأنه معلق من حبال ممدودة بين ضفتى النهر ، وكذلك البيت المستدير . ومتى تمت إقامة البيت المستدير ، تجلت مزاياه الأخرى . فمساحة الداخل بالقياس إلى مساحة جدرانه أعظم فى الدار المستديرة منها فى أى دار غير مستديرة ، وشكله الخارجى المجرد من الزوائد ، يخفف من ضغط الهواء ، ويقلل مايفقده من الحرارة المشعة منه ، وهذا التوفير فى الحرارة التى تشع منه يعين على جعل الموقد أخف وزناً من أمثاله حتى يصير أقل من مئة رطل . وفى وسع صاحب البيت أن ينتفع فيه بالتيار الكهربائى فيوفر بعض ماينفقه على الوقود .

ولما كان ظاهر البيت لامعاً إلى البياض، فإنه يعكس إشعاع الشمس ، ومن أجل ذلك

ينبغي أن يكون بارداً في الصيف. وقد أقيمت على سطحه مروحة كبيرة توجه الهواء العليل إلى الداخل، وبذلك تتم تهوية البيت عشر مرات في الساعة الواحدة.

بدأت شركة «بيوت فلر» عملها في وشنطن في ربيع سنة ١٩٤٤، وكان فلر يومئذ كبير المهندسين الميكانيكيين في «إدارة الاقتصاد الخارجي»، وكان قد نقّح تصميم الدار التي أطلق عليها وصف «ديما كسيون» لينتفع في بنائها بالأساليب الجديدة في صناعة الطائرات، ثم رحل غرباً عسى أن يحرك عناية شركة طائرات بيتش إلى بناء داره، فلم يكد مديرها العام يطلع على تصميم فلر حتى استهوته الفكرة فعقدا اتفاقاً معه على التعاون المالي والصناعي، وسيبدأ إنتاجه على نطاق واسع في سنة ١٩٤٧.

ومتى بدأت الشركة الإنتاج الواسع النطاق — ٥٠٠,٠٠٠ في السنة — جعلت ثمن الدار نصف ريال لكل رطل من وزن البيت. وهذا يجعل ثمن البيت في حالة الحاضرة في حدود ٣٧٠٠ ريال. وهذا الثمن أقل كثيراً من ثمن أي بيت آخر يستطيع أن ينافسه، ويستغرق تشييد البيت عمل رجل واحد خلال ستة عشر يوماً أو عمل ١٦ رجلا خلال يوم واحد. ولما كانت أجزاء البيت تربط بعضها إلى بعض بالمسامير فليس هناك حاجة إلى آلات كبيرة على المكان الذي يشيد فيه، سوى سيارة النقل التي تحمل البيت، وهي مجهزة بآلة لإقامة الصارية.

وحين تتأمل كيف تستطيع حفنة من رجال الصناعة أن تصنع ٥٠٠,٠٠٠ بيت في السنة، تجد ذلك أمراً رائعاً. ولكن مدير شركة بيتش يقول إن صنع البيت «ليس مشكلة على الإطلاق»، وسوف تصنع أجزاؤه التي تبلغ ستين كما تصنع أجزاء الطائرات، ثم تجمّع كما تجمّع أجزاء الطائرة أو السيارة، فإذا ما بلغت نهاية خط التجميع وضع البيت في صندوق وسمّر غطاؤه.

أما فلر فلم يخطر له أن آراءه ستلقى النجاح التجاريّ السريع الذي لقيته، فقد كان همه الأول أن يُسدي يداً إلى الإصلاح الاجتماعيّ بتيسير السكن الطيب لأوساط الناس. وقد كتب مرة بحروف كبيرة العبارة التالية: «لن تستطيع أن تحسّن العالم بالكلام وحسب، والفلسفة لا تجدي إلا إذا طبقتها تطبيقاً ميكانيكياً».

أما اليوم فلن تجد أحداً، حتى ولا رجال المصارف، يظن أن فلر رجل مخبول. وهذا لا يدهشه، فقد كان رأيه منذ بدأ أن الناس سوف يتبينون ما يريد عاجلا أو آجلا.

طريق قديم إلى حياة جديدة

فلتون أورسلر

مختصرة من صحيفة "كرستيان هرالد"

في مكتب المشرف على المقابر، دنا من الكاتب سائق سيارة في زيه الخاص وقال: « إن السيدة أضعف من أن تمشي. أتتفضل بأن تخرج إليها؟ »

وكان في السيارة سيدة كبيرة السن نحيلة، لها عينان غائرتان ولكنهما لا تخفيان ما في نفسها من أسى عميق قديم.

فقالت: « أنا مسز أدمز. وقد دأبت خلال السنتين الماضيتين على أن أرسل إليك كل أسبوع. ورقة بخمسة ريالات ... »

« من أجل الأزهار »، قالها الكاتب متذكراً.

فقالت: « نعم. لكي توضع على قبر ولدي ».

ثم مضت تقول: « وقد جئت اليوم لأن الأطباء أنبأوني بأنه لم يبق من عمري سوى أسابيع قليلة، ولن يؤسفني أن أفارق هذه الدنيا، فليس فيها شيء جدير بأن أعيش له. وإنما أردت أن أجيء بنفسي اليوم لألقي على القبر آخر نظرة، ثم لأشكر لك لطفك وحسن صنيعك ».

فطرفت عين الكاتب كالمتحير، وقال: « أتعلمين ياسيدتي. يؤسفني أنك مضيت في إرسال المال من أجل الأزهار ».

« يؤسفك . . ؟ »

« نعم — لأن الأزهار لاتلبث أن تذوي ولايراها أحد من الناس ».

« أتعرف هول ما تقول ؟ »

« نعم أعرف، فأنا عضو في جماعة من الناس دأبها أن يزور أعضاؤها المستشفيات العامة ومستشفيات الأمراض العقلية. والناس في أمثال هذه الأماكن هم الذين يحبون الأزهار حباً جماً. إن في وسعهم أن يروها ويشموا شذاها. ففي تلك الأماكن مخلوقات حية ياسيدتي ».

فلبثت السيدة هنيهة ساكنة لاتبدي حراكا، ثم أشارت إلى سائقها بأن يعود بها، ولم تنبس ببنت شفة.

وقد دهش الكاتب بعد أشهر حين جاءته السيدة زائرة مرة أخرى، وتضاعفت دهشته حين رآها تقود سيارتها بنفسها.

قالت وعلى ثغرها بسمة ود وصداقة: « إني لأحمل الأزهار بنفسي إلى الناس. لقد كنت على حق، إن هذه الأزهار

تسعدهم ، والأطباء اليوم لايعلمون ماسرّ عافيتى ، أما أنا فاعلم . لقد وجدت شيئاً أراه جديراً بأن أعيش له » .

فقد كشفت هذه السيدة مايعرفه معظم الناس ولـكنهم ينسونه : « إذا أنت بذلت معونة لغيرك فقد بذلتها لنفسك » ، وهذه المعرفة هى الوسيلة الأولى التى يتوسل بها طبيب من أصدقائى ، يبدو لمن لايعرفه أنه يملك قوة ساحرة على شفاء المرضى ، فهو يأخذ بأيدى كثيرين من مرضاه إلى الصحة والسعادة بغير عقاقير أو مباضع . وبعض هؤلاء المرضى مصابون بأسقام كأمراض القلب ، وإدمان الشرب ، والشلل ، ولا تقتصر أسـقامهم على عُـقَـدٍ فى نفوسهم وأخلاقهم . وترى زملاءه يحيرهم توفيقه ، ولـكنه يقول فى بساطة الطفل البرىء :

« ينال مرضاى الشفاء حين يتداوون بشىء من الإيثار يبذلونه من ذات أنفسهم ، فالإيثـار أعظم ما يجنّـب المرء شر الحسرة والبغض والخوف . ومن أجل ذلك كان أنجع دواء يشفى من ضروب مختلفـة من أمراض العقل » .

وقد روى لى صاحبى قصـة فتاة تدعى « إميلى » وبحثها عن السعادة . فقد دخلت ذات يوم عيادة الأسـتاذ إرنست ليجون رئيس قسم علم النفس فى « كلية يونيون » وكان همها أن تعرف كيف تستطيع أن تنتفع بحياتها ، فقد كانت فتاة بائسة متهدمة البنية ، فارعة الطول ، مشبوحة العظام ، غير رشيقة ولا مَشِـيقة . وقد أجفل الأستاذ حين صافحها ، لأن راحتيها وأصابعها كانت باردة رطبة لفرط اهتياج أعصابها . ورأى أنها قد حرمت الذوق فى ملابسها ، فقد كانت زرية الهندام .

فقال لها : « يا إميلى ، أريد أن تشترى ثوباً للسهرة ، ولـكن حين تذهبين لشرائه اطلبى إلى البائعة أن تختار لك ثوباً يلائمك ، ثم أريدك أن تذهبى إلى المزين ليصفف لك شعرك ، واطلبى منه أن يختار لك من أزياء التصفيف مايظنه أدعى لإظهار محاسنك ، ثم أريدك أن تلبسى الثـوب وأن تذهبى معى إلى حفلة فى يوم الثلاثاء المقبل . »

فهزت إميلى رأسها وقالت : « سأشترى الثـوب ، وسأذهب إلى المزين لأصفف شعرى ، ولـكننى لن أذهب إلى الحفلة » .

فصاح بها الأستاذ : « وأنا أعلم سر إبائك أن تذهبى . إنك تظنين أنك لن تصيبى فيها متعة ما . اسمعى ، احذرى عنـد دخولك أن تتلفتى حولك كأنك منبوذة تضرع إلى السماء أن يقيّـض لها من يجاملها ، ولـكن قفى بين الناس ساكنة النفس ، وإذا ما رأيت رجلا واقفاً وحده ، فاذهبى إليه واسأليه

ما اسمه ، وما يهوى أن يعمل فى ساعات فراغه . ثم عودى إلىّ واروى لى ماتمّ ، فإذا كانت هوايته جمع طوابع البريد، عرفته برجل آخر يهوى جمعها ، وإذا كان يحب صيد السمك جمعته بصياد. ومتى فعلت فابحثى عن آخر، اشغلى نفسك كأنك مأجورة لتعنى براحة كل إنسان . وعدينى بأن تدأبى على ذلك حتى ينفضّ شمل الحفلة ، وأنك لن تخرجى حتى ينتهى الاجتماع » .

ومن غرائب الحياة فى أساليبها ، أن إميلى ذهبت إلى الحفلة وقضت وقتاً طيباً ، بل كانت حبيبة إلى كل من رآها . لم يدخل فى طاقة الأستاذ أن يجعلها فتاة جميلة، ولكنها بإرشاده جعلت نفسها فتاة محببة إلى من حولها . ومن معجزات الشباب أن إميلى تزوجت بعد ستة أشهر رجلاً بهى الطلعة لقيته فى تلك الحفلة .

وصديقى هذا من أشهر أطباء الأعصاب فى نيويورك ، يقصده كثيرون من الذين تستبدّ بهم شهوة الخمور ، بعد أن يقضى سائر الخبراء بأن لاشفاء لهم .

وقد قال لى ذات يوم: «أتعلم ماذا أفعل بهم ؟ دعنى أروى لك قصة رجل نطلق عليه اسم بل ولكنز . كان بل ولكنز أحد السماسرة ، فأفاق ذات صباح فوجد نفسه فى مستشفى للسكارى ورفع رأسه إلى الطبيب فغمغم قائلا : قل لى يا دكتور ، كم مرة جىء بى إلى هذا المكان ؟

« فقال الطبيب : خمسين ، لقد أصبحت كالنبات المعمر هنا .

« فقال ولكنز : أحسب أن الخمر ستقضى على .

« فأجاب الطبيب جاداً : لن يطول أجلك يابل .

« فأشرقت أساريره وقال : ماقولك فى كأس أداوى بها دائى ؟

«فقال الطبيب: لامانع، ولكننى أشترط عليك شرطاً واحداً : فى الحجرة المجاورة شاب فى أسوإ حال ، وهذه أول مرة جىء به فيها إلينا ، ولعله إذا رآك أبشع مثال للسكير فزع لمرآك فتجنّب السكر طول حياته .

« وبدلا من أن يغضب بل على الطبيب ، اهتم بما اقترح عليه .

« فقال : موافق ، ولكن لا تنس تلك الكأس حين أعود .

«وكان الشاب على يقين من أنه رجل هالك ، وأما بل الذى كان يعد نفسه غير مؤمن فقد أخذ يعظ الفتى ويشير عليه بأن يسلم نفسه إلى قوة عليا .

« قال : إن الخمر قوة خارجة عنك ، قد غلبتك على أمرك، فلن ينقذك منها إلا قوة

أخرى خارجة عنك، وهى الله أو هى الحق».

ومهما يكن من أثر بل فى قلب الشاب فلا ريب فى أن أثر بل نفسه فى نفسه هو كان عظيماً . وساعة عاد إلى حجرته ، نسى ما كان من أمر الكأس التى اتفق عليها مع الطبيب. وقد كان هذا منذ اثنتى عشرة سنة، ولم يشرب بعد تلك الكأس الموعودة. وذلك أن بل لما بدأ يفكر فى غير نفسه ، اطلق العنان لمبدأ الإيثار فى الحياة — فكان له فى نفسه أثر عظيم — فصار مؤسس حركة عظيمة موفقة لإنقاذ السكارى. [راجع مقال: « كنت سكيراً » ، مختـــار ١٩٤٦ س ٤٨]

نصيحة فى وقتها

أنشأ الدكتور موريس أرنست « نادى المعمَّرين » فى لنــدن ، وغرضه أن يعاون الأعضاء حتى يعمّروا إلى المئة . وكان الدكتور يؤمن بوجوب الاستمتاع بالحياة ، فجاءهُ ذات يوم رجل يريد أن يعمِّر إلى المئــة ، وسأله النصيحة ، فأشار عليه الطبيب بأن ينصرف عن الشرب والتدخين والنساء .
فقال الرجل : أأبلغ من العمر مئة سنة إن فعلت ؟

فقال الدكتور : لا ! ولـكن يبدو لك أنك بلغتها !

هى طبيعة البشر

كنت سائراً فى أحد شوارع نيويورك مع المؤلف بولتــون هول ، فدنت منه سائلة وطلبت منه هبة . فوضع هول يده فى جيبه وأخرجها ملأى بقطع من النقــد الفضى ، وكانت كبراها قطعة بنصف ريال ، وبسط راحتهُ لهـا لتأخذ منها ما تريد . فدهشت وتحيَّرت ، ثم أخذت قطعة بربع ريال ومضت على وجهها . فسألته : أتدعهم يختارون دائماً ؟

فقال : نعم ، إن ذلك يشعرهم بكرامتهم حين يقاومون ما تسوّله لهم أنفسهم من اختيار أكبر قطعة . ولم أجد سائلا قط اختار أكبر قطعة فى يدى حتى اليوم ، ثم إن ما يختارونه يخفف عنك شعور الحقارة إن أنت أعطيتهم قطعـــة ربما كانت فى نظرك أصغر مما ينبغى ، فلو تركتُ الخيار لى لآثرت أن أستبقى القطعة الـكبيرة لنفسى . [ا . هارلان]

إن إحكام الانتفاع بالجراثيم القتالة فى الحرب ينـذر بأن تـكون فظائع « الحرب البيولوجية » وبالا على البشر .

أفتك الحروب

سيدنى شاليت
مختصرة من مجلة "كولييرز"

افرض أنه فى اليوم الخامس من ديسمبر سـنة ١٩٥٨ مات رجلٌ فى مستشفى بنيويورك بعد مرض حادّ قصير ، أصيب فيه بالهذيان من جرّاء التهاب الرئتين ، وكثرت القروح البشعة على بدنه ، وكان يسعل دماً . فلما شرّح بعد الوفاة قرّر الأطباء أن مرضه كان طاعونا . وقد حيّرهم ذلك لأنهم يعلمون أنه لم تحـدث فى أمريكا إصابة واحدة بالطاعون منذ سنين كثيرة .

وافرض أيضاً أن هـذه الحادثة قد طابقت تماماً حادثة أخرى نجمت فى الميدان الدولى وتفاقمت ، على بعد مابين الحادثتين من صلة فى الظاهر : لقد عاد مندوبو المحور الجديد بالطائرة إلى بلادهم بعد اجتماعات غير مجدية مع وزير الخارجية الأمريكية . وقد أخذ بعض رجال السياسة والصحافة ينـذر بأن الحرب قد تشبّ بين لحظة وأخرى، فتكون هجوماً يُشَنّ بآلات تحمل الموت الذرّى ، فتزلزل الأرض زلزالاً .

ولا يكاد ينقضى بعض ذلك اليوم حتى يموت رجل آخر فى نيويورك بالطاعون ، ويجعل الأطباء المذعورون فى جميع أحياء المدينـة يقدمون تقاريرهم عن حوادث يدركون لساعتهم أن أعراضها كأعراضه ، ويموت به فى اليوم التالى سـتة آخرون ، وترد أنباء الذين ماتوا به من شيكاغو ، وسان فرنسيسكو ، ودترويت ، وبوسطن .

وإذا الأمة كلها قد وقعت فى قبضـة سلسلة مروّعة من الأوبئة . وقد حدث فى إحدى المدن ماظنه رجال الصحة موجة من إصابات التسمم العادى بالطعام ، فإذا هو داء « البوتيولزم » الغادر الفتاك . وها هم العمال فى المصانع التى أنشئت تحت الأرض فى صحراء نيومكسيكو لبحث الذرّة وصنع أسلحتها ، تراهم يسقطون موتى بالكوليرا أو التولاريميا ، أو السيتاكوسيس . وفى مراعى البقر تصاب الأنعام بداء فظيع ، هو طاعون البقر ، وحوادثه هذه هى أول حوادث من نوعها فى أمريكا الشمالية .

هذه صورة أملاها الخيال لما يحتمل أن يصاب به أى بلد إذا نشبت حرب عالمية ثالثة .

وان تسـدّد الضربة الأولى في هذه الحرب بالقنبلة الذرية، بل بأسباب الحرب البيولوجية. ويومئذ يكون رجال التخريب قد فعلوا فعلتهم في موارد المياه واللبن. ثم لا تلبث أن تهجم طائرات الأعداء وبالوناتهم وصواريخهم تقذف القنابل، وتنفث سحباً من الجراثيم والغازات السامة فوق المدن، فإذا خدش رجل من جراء رصاصة أو شظية، فهو خليق أن يموت بمرض يقضى عليه.

هذا بيان مخيف بالأمراض التى قد تستعمل فى الحرب:

بوتيـولزم : ضرب من التسمم بالطعام أفتك من الغازات السامة ألف مرة. مميت فى العادة.

بروسلوسيس: الحمى المتموجة الشديدة.

سيتاكوسيس: « مرض الببغاء » الفتاك.

تولاريميا : « حمى الأرانب » التى تضعف المصاب كثيراً.

الكوليرا : مميتة فى أكثر الأحيان.

الطاعون : مرض وبىء تنقله طفيليات فى القوارض، وقد قيل إنه قضى على ٢٥ مليون نفس فى القرن الرابع عشر.

التهاب الدماغ السحائى : مرض فتاك يسببه فيروس يصيب جهاز الأعصاب ويضرب المخ فيميت أو يحدث عاهة دائمة. وقد سمى خطأ « مرض النوم »

وقد تبدو هذه الصورة بعيدة عن الحقيقة، ولكن إذا استندنا إلى الحقائق العلمية المعروفة اليوم، لا منذ اثنتى عشرة سنة، وجدنا تحقيقها أمراً مستطاعاً.

والتعريف الرسمى للحرب البيولوجية هو « الانتفاع بالبكتريا وضروب الفطر والفيروس والأحياء المنسوبة إلى ريكتس (وهى أحياء دقيقة يحملها القمل والقراد على الغالب) والسموم المستخلصة من الأحياء، لإحداث الموت والمرض فى الإنسان والحيوان والنبات الحى ». ويرى بعض الثقات، ولاسيما فريق من كبار الموظفين، أن حرب الجراثيم شىء وحشى فظيع، وأنه ينبغى أن لا تعمد إليها دولة ما إلا فى الدفاع. غير أن الجنرال ألدن ﻫ. ويت، رئيس قسم الحرب الكيميائية، ينطق بلسان فريق آخر يرى رأياً مناقضاً لما تقدّم.

يقول الجنرال ويت: « أعتقد أنها أسلوب نافع من أساليب الحرب، وأن لنفعها الحربى آفاقاً واسعة. ومن التناقض والغباء أن يتحدث الناس عن فظائع حرب الغازات وحرب الجراثيم، وأن يوافقوا فى الوقت نفسه على الحرب الذرية. فأنا أعارض كلّ المعارضة أولئك الذين يتحدثون عن سلاح ما : أإنسانىٌّ هو أم وحشىٌّ ؟ إن

الشيء الذي هو وحشيّ حقاً إنما هو الحرب نفسها » .

ومعظم أصحاب الرأي من رجال الحكومة والجيش متفقون على أن الحرب البيولوجية خطر كبير ، وأنها وسيلة تستطيع الدول المحرومة أن تدبر أمرها في الخفاء ، فتتخذ من معامل الجامعات ومصانع الجعة والتقطير مصانع سرية لصنع هذه الأسلحة الفتاكة .

وقد أجريت تجارب أحيطت بستار كثيف من الكتمان في شأن الحرب البيولوجية خلال الحرب ، واشتركت فيها الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا ، وكان غرضها أن تستدل على أحسن الوسائل للدفاع . وقد نشر الجيش الأمريكي منذ عهد قريب طائفة من التقارير عنها ، تخرج منها بالصورة التالية :

إذا أريد اتخاذ نشر المرض سلاحاً للهجوم ، عمد العلماء طبعاً إلى أفتك عوامل المرض فيختارون أشد سلالاتها ضراوةً ، ثم يزيدون قدرتها على الفتك بما يطلقون عليه « وصف الأخلاط غير الطبيعية » . فالتيفود الذي ينتشر عادة بالطعام والماء ، يزداد ضراوة وسعة انتشار إذا ذُرَّ في سحابة مصطنعة ، فما هو إلا أن تتنفس حتى تستنشق الجراثيم . وأما الميكروب المخيف الذي ينشر مرض « البوتيولزم » بوساطة الطعام ، فيصير أضرى وأفتك إذا دخل الجسم من جرح مفتوح ، أو من الرئتين ، فلمَ لا يوضع على رأس رصاصة ، أو لِمَ لا ينشر سحاباً .

بيد أن وسائل الحرب البيولوجية لا تحدث جميعها عذاباً أليما أو موتاً ذريعاً ، فتستطيع الأمة التي تشنُّ الحرب البيولوجية أن تتخذ من أساليبها ما يوافق أغراضها ، فهي قادرة إذا شاءت أن تختار وسيلة تعجز شعب خصمها إلى حين : كالديسنطاريا ، أو ضروب من جراثيم الستافيلوكوك التي تسبب لوناً من التسمُّم . فإذا فعلت ذلك ، وجد جيشها الغازي جيوش خصمها أضعف من أن تقاوم ، ولكن دون أن يحيق بهم خطر الموت ، أو قد يختار قواد الحرب البيولوجية أمراضاً تحدث آثاراً طويلة المدى ولكنها غير مميتة مثل الحمى المتموجة .

وأخيراً إذا أريد الفتك ، كان الهجوم بالوسائل الفتاكة — ما كان منها وبائياً أو غير وبائي . والأسلحة التي في هذه الجعبة هي الكوليرا والطاعون والبوتيولزم والسيتاكوسيس . وقد قال أحد الثقات إنك تستطيع أن تصنع من الجراثيم موادّ « أفتك من الغازات السامة ألف مرة » . فأنت لا تستطيع أن تراها أو تشمَّها أو تذوقها أو تتبينها إلا بأن تزرعها لتولّدها ، فلا تكاد

تستريب فى أمرها وتأخذها لتزرعها ، حتى يكون نصف أمتك قد قضى نحبه وهلك .

فى ديسمبر ١٩٤٣ أنبأ مكتب المخابرات الأمريكى ، هيئة أركان الحرب الحليفة أنه يظن أن الألمان يفكرون فى الهجوم على بريطانيا بصواريخ تحمل أسباب الحرب البيولوجية ، فكان هذا التقرير هو السبب الذى دفع حكومات الحلفاء إلى الإقبال على البحث البكتيريولوجى بكل ما وسعها .

وصدرت الأوامر فى أمريكا إلى القواد ، بتنفيذ الخطط المقررة لمقاومة أساليب الحرب البيولوجية فى أمريكا وخارجها .

ولم يجىء صيف ١٩٤٤ حتى كان قسم الحرب الكيميائية قد أنشأ أربع منشئات للحرب البيولوجية ، واشترك مطاردو الجراثيم مع رجال سلاح الطيران فى إجراء تجارب استعملت فيها قنابل كمثل قنابل الجراثيم . وألقيت قنابل مما ينشر السحاب فى الفضاء ، وكانت مشحونة بأحياء غير ضارة يستطاع تلوينها ، وتنتشر فى الجو كما تنتشر جراثيم الأمراض الفتاكة . وهذه الأحياء تركت آثارها فى الفضاء وهى تنتشر ، فراقبها العلماء وجعلوا يتتبعونها .

ومن غرائب المفارقات أن الإنسان لا يكاد يعبث بابتكار أساليب جديدة لزيادة فظاعة الحرب ، حتى ينتهى إلى ما ينفع الناس أيضاً . وقد تم هذا فى دراسة أساليب الحرب البيولوجية ، فرجال الأسطول الأمريكى الذين كانوا يدرسون نشر جراثيم الطاعون بواسطة السحاب ، جمعوا حقائق كثيرة عن انتشار الأنفلونزا ، فكان لذلك شأن عظيم فى صنع لقاح ضد الأنفلونزا يبشر بالخير .

وقد وسع العلماء الباحثون آفاق علمهم بعلاج الجمرة الخبيثة ، والبروسلوسيس ، والسيتاكوسيس ، والتورلاريميا وغيرها من الأمراض . أما فى عالم النبات فقد سعوا إلى معرفة طرائق تمكنهم من القضاء على موارد الطعام عند العدو ، فاكتشفوا خلال ذلك مواد نافعة تقتل الحشائش والأعشاب التى لا نفع فيها . أما فى بحوث الحيوان فقد وجدوا طريقة جديدة تمكنهم من أن يصنعوا مقادير وافرة من لقاح يقى من طاعون البقر الفتاك ، وهذا وحده يكفى ليرد على الأمة ما أنفقته فى هذه البحوث .

ويقدر ما أنفقته الولايات المتحدة على بحث وسائل الحرب البيولوجية خلال الحرب العالمية الثانية بما لا يزيد على ٥ ملايين ريال ، فنفقة الحرب البيولوجية إذا قيست بالألفى مليون ريال التى أنفقت على صنع القنبلة الذرية لا تعد شيئاً مذكوراً . وهذا خطر عظيم ، فإن أسلحة الحرب البيولوجية ، من اليسير صنعها على كل دولة تقريباً .

قصة عالم زنجى تلهم الثقة وتلهب العزائم وتهيء كثيراً مما ينفع النـاس فى صحتهم ومعاشهم .

الرجل الذى أبى أن يعترف بالهزيمة

يول دى كروف

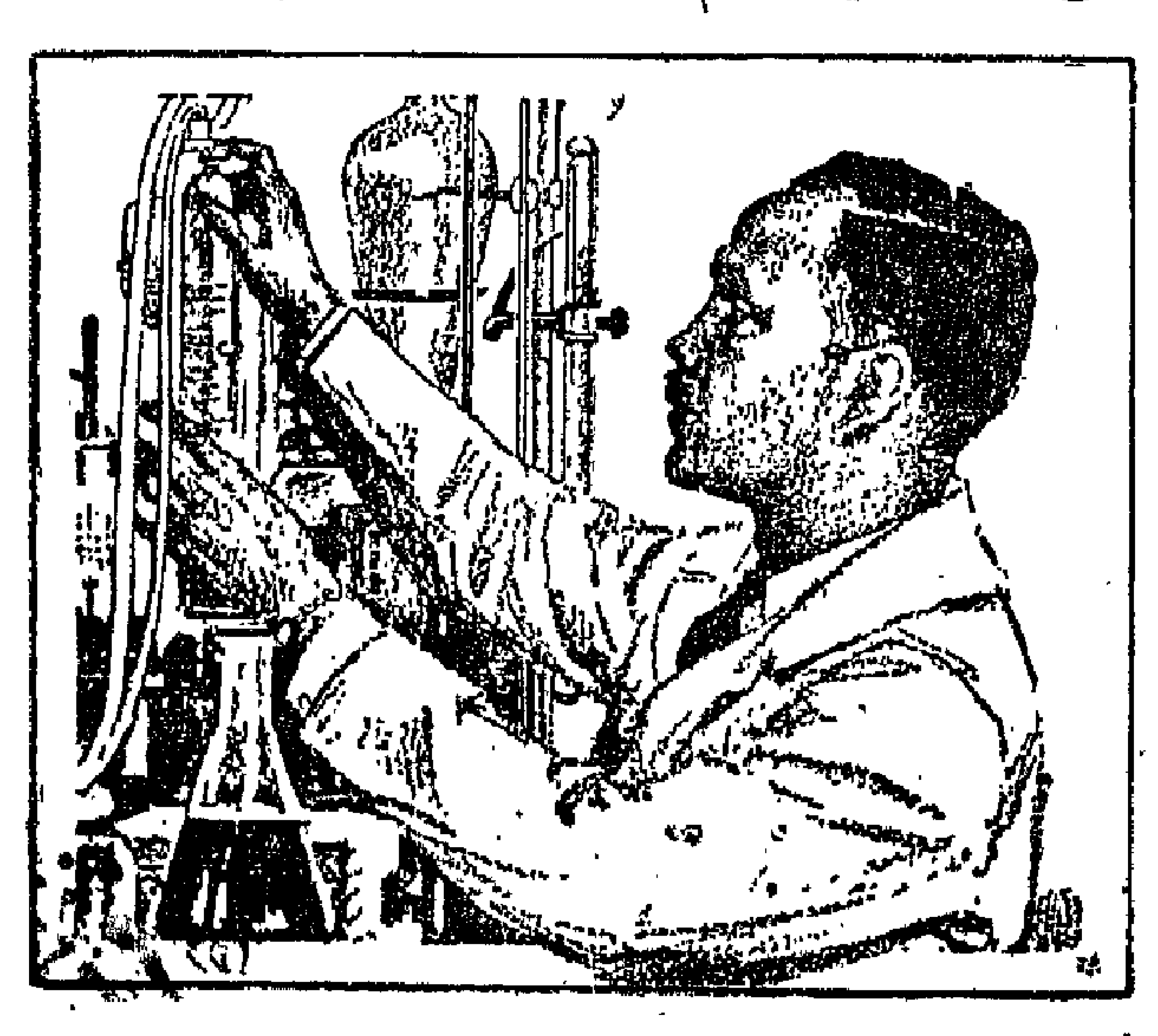
أجمع أهل العلم فى أمريكا على تكريم پرسى ل . جوليان ، وعدّه فى طليعة علماء الكيمياء عندهم . وهو يتولى منصب مدير البحث العلمى فى شركة جليدن التى تصنع مقادير كبيرة من ضروب الطلاء والدهان والطعام وإليه يعود الفضل فى ابتكار أساليب صناعية خطيرة الشأن ، من أسلوب جديد لطلاء الورق ، إلى طريقة جديدة تخمد نيران البنزين والجاز . أضف إلى ذلك أنه جعل هرمون الأنثى ، البروجستيرون ، متاحاً لجميع الحوامل اللواتى يهددهن خطر إسقاط الأجنة قبل موعد ولادتها . وقد مكن له علمه الواسع إنتاج مقادير كبيرة من هرمون الذكر ، فقل ثمنه حتى صار فى متناول ملايين من الذين يحتاجون إليه .

ومع ذلك فهذا الرجل ، پرسى جوليان ، هو حفيد عبد رقيق .

وقد علمه أبوه أنه إذا شاء أن يصير عالماً فينبغى له أن لا يقنع بما دون النجوم . ويوم كان پرسى صبياً ، عاد فى أحد الأيام إلى بيته يلوّح مباهياً بورقة امتحانه فى الحساب وقد كتبت عليها درجته ٨٠ من مئة .

وكان أبوه رجلا دمثاً لطيفاً ، ولكنه عنف ابنه تعنيفاً شديداً وقال : « لا يجوز لابن من أبنائى أن يقنع بدرجة وسط ، فاجعل درجتك منذ الآن ١٠٠ فى المئة »

فوقع هذا التعنيف وقعاً شديداً فى نفس جوليان الصغير ، فصار أول فصله فى مدرسة المعلمين ، فلم يكن ذلك كافياً لإرضاء أبيه .



فإذا كان ابنه ينوى أن يصير عالماً موفقاً فلا مفر له من أن ينافس أذكى الناس . ولابد له من أن يظفر بأحسن تربية ممكنة، فذهب جوليان إلى جامعة دى پو فى ولاية إنديانا ، وهناك بدأ يتطلع إلى اليوم الذى يصير فيه حجة فى بحوث الكيمياء العضوية، وترفق العميد بلانشرد فيما حاوله لكى يثنيه عن عزمه على تحقيق مطمح بعيد كهذا المطمح ، ولكن جوليان أصرّ على ما أراد ، وتوفر على دراسة الكيمياء . وفى سنة ١٩٢٠ تخرج فكان أول فصله ، ونال أعلى جوائز الدراسة .

ولكنه لم يكن يملك من المال ما يعينه على مواصلة الدراسة العالية ، ولما وزّع المال المخصص لعون المتخرجين على مواصلة دراستهم العالية فى الكيمياء ، لم ينل جوليان شيئاً منه ، فقد رأى أستاذه أنه ليس من الإنصاف لجوليان أن يشجعوه على ماليس له به قِبَل من وقف حياته على الكيمياء . فرحل جنوباً ودرّس الكيمياء فى جامعة فيسك التى تضمّ شباباً من الزنوج ، فكان اتصاله بهم مما أذكى نار عزمه وطموحه ، ووجد فى جرأتهم على استطلاع خفايا الكيمياء وتوجيه الأسئلة إليه ، مارده مستنكراً لمحاضراته فيها ، فألف سلسلة جديدة منها ، ولما قرأها الأستاذ بلانشرد فى جامعة دى پو ، كتب إلى جوليان : « لقد بلغت محاضراتك من الوضوح مبلغاً عظيماً ، وسأمزّق بعض محاضراتى وأستبدل بها محاضراتك » .

وقرّر جوليان أن يطلب من جامعة هارفرد أن تمنحه مالا يمكنه من التوفر على البحث العلمى فيها ، وسأل بلانشرد : « أترضى أن تشدّ أزرى فى طلبى ؟ » فقال الأستاذ : «طبعاً » ، فسأله جوليان : « ولكن لماذا لم تمنحنى مالا لمواصلة الدراسة العالية يوم تخرجت ؟ » فقال بلانشرد : « كنت أعدّك طالباً ممتازاً ، ولكننى ظننت أنّ أبعد مرادك هو أن تصير مدرساً فى الولايات الجنوبية . ولست على ثقة حتى اليوم من أنك لن تلقى عقبات شداداً فى طريق الكيمياء ، فإذا كنت تجرؤ على المحاولة ، فأنا نصيرك » .

كان جوليان فى هارفرد حديث الناس ، فقد اشتغل وقاداً ، ونادلاً ، وكان مع ذلك يواصل الإكباب على تجارب الكيمياء إلى جوف الليل . فظفر بدرجة أستاذ فى سنة ، وكان فى طليعة فصله . وقد ألفت هارفرد أن تعيّن الشبان الذين ينالون هذه الدرجة معيدين فيها، ولكن رجال الجامعة لم يعينوه، وقالوا إنهم يخشون أن يأبى البيض من طلبة الولايات الجنوبية أن يقبلوه معلماً لهم .

وظل مقيماً فى هارڤرد أربع سنوات يستعين بمال قليل لمواصلة البحث ، ثم عاد أدراجه إلى الجنوب ليدرس فى كلية وست فرجينيا للزنوج ، وكان معمله فيها عاطلا من أدوات البحث أو يكاد . وتولى هو وحده تدريس الكيمياء ، وقام بعمل خازن المعمل وفراشه ، ولكنه لقى هناك مربّياً ملهماً هو رئيس الكلية ، جون و . ديفس. فلما أيقن من تشجيع ديفس له أكب على البحث الكيميائى المستقل . وكان يتوق أن يعثر على المركبات العضوية البسيطة ، ثم أن يستكشف أسلوب الطبيعة فى تحويل هذه المركّبات إلى المواد الأصلية فى الأجسام الحية كالفيتامينات والهرمونات ، ثم أراد — وهذا دليل على جرأته — أن يصنع بيديه فى معمله مقادير لاحدود لها من هذه المواد .

ولكى يحسن تدريب نفسه ، بدأ يعيد تجارب إرنست سباث العالم النمسوى الذى ركب النيكوتين والإفيدرين . وقد أسفر عمله خلال سنة واحدة عن نتائج باهرة ، فعين رئيساً لقسم الكيمياء فى جامعة هوارد فى وشنطن ، فوضع هناك تصميما لمعمل كيميائى يكلف مليون ريال ، ثم شيده . ولكن ظمأه إلى العلم لم يطفأ .

كان الأستاذ كولر فى هارڤرد ، قد أحسن تعليمه ، فعرف كيف تجتمع ذرات الكربون جماعات شتىّ الأشكال ، فتتألف منها ألوف من المركبات العضوية التى تبنى بها أجسام الأحياء . ولكن أنى له أن يجارى الطبيعة ، وأن يصنع هذه المواد الكيميائية ؟ إن ذلك ليس علماً وحسب ، بل هو فن دقيق مرهق أيضاً ، فمن له بأن يصير تلميذاً يتلقى العلم على إرنست سباث العظيم ؟

وقد هبّ إلى معونته شاب كان زميلا له فى هارڤرد ، وهو ابن رجل من كبار أهل المصارف والصناعة ، فتيسر له بمال هذا الصديق وبما وهبه إياه مجلس التعليم العام ، أن يسافر إلى ڤيينا .

وقد عامله سباث معاملة العالم لزميله ، ودعاه إلى بيته . وفى سنة ١٩٣١ ظفر جوليان من سباث بدرجة الدكتوراه فى الكيمياء العضوية ، وعاد الدكتور جوليان إلى جامعة هوارد ليبدأ مشروع بحث علمى فى موضوع حير ألباب أعظم علماء الكيمياء فى العالم منذ زمن طويل .

إن « الفيسوستيجمين » عقار قوى يستعمل فى علاج الجلوكوما ، أحد أمراض العين ، وهو العقار الذى اشتق منه عقار آخر ، « البروستيجمين » ، الذى ينتفع به

اليوم ألوف من المصابين بكلال العضلات الخبيث على أثر مرض أو إصابة فى حادث*
وكان العلماء يعرفون التركيب الكيميائى لعقار « الفيسوستيجمين » ولكنهم عجزوا عن تركيبه فى المعمل .

ولم يكد جوليان يبدأ فى تنفيذ مشروعه حتى دعاه أستاذه القديم بلانشرد ليعود إلى جامعة دي بو لإرشاد كبار الطلبة الذين يدرسون أساليب البحث ، وكان بلانشرد قد اقتنع بتفرُّد تلميذه السابق ، فأقدم على عمل لم يكن ليقدم عليه من قبل . فقد شنَّ حملة فى طول البلاد وعرضها ليجمع لجوليان مالا ينفقه فى البحث ، وقد طلبه من أمناء الجامعة وخريجيها ، ومن الناس أبيضهم وأسودهم على السواء . وفى أوائل العقد الرابع من هذا القرن ، راعت دوائر الكيمياء سلسلة من الرسائل العلمية الأصيلة نشرت فى مجلة الجمعية الأمريكية الكيميائية ، مؤداها أن تجارب جوليان المتوالية ، قد أدنته رويداً رويداً من صنع الفيسوستجمين بالتركيب الكيميائى .

وكانت الليلة التى أجرى فيها جوليان تجربته الأخيرة فى تركيب هذا العقار ، ليلة مشهودة . فهنا تجد فى أنبوبٍ واحد ، البلورات الطبيعية لعقار الفيسوستجمين ، مستخلصة من فول كالأبار ، وترى فى أنبوب آخر البلورات التى صنعها جوليان بالتركيب الكيميائى خلال ثلاث سنوات من الجهد المضنى . فإذا ثبت أن درجة انصهار الطائفتين من البلورات هى درجة واحدة ، كان ذلك دليله الأخير الحاسم على أن المادتين كلتيهما مادة واحدة . وإذا اختلفت درجة انصهار إحدى الطائفتين عن درجة انصهار الأخرى ، فقد ذهب كل جهده سدًى . وأخذ مساعده ، جوزف بيكل ، يسخن البلورات الطبيعية ، وجعل جوليان يسخن البلورات المصنوعة ، وكان الأستاذ بلانشرد يراقبهما وقد علق أنفاسه .

وإذا بيكل يصيح : « بدأت تنصهر » فردَّ جوليان : « وعندى أيضاً » . فقد سجل مقياس الحرارة درجة واحدة .

وإذا بلانشرد الأستاذ الشيخ الأبيض من أقاصى الجنوب الأمريكى ، وبيكل الزميل الألمانى ، وجوليان الزنجى ، يتعانقون ، واغرورقت أعينهم بدمع الفرح والسعادة .

وانهالت تحيات العلماء على جوليان من بلاد أوربة وأمريكا . فالغلام الذى طمح إلى وقف حياته على دراسة الكيمياء ، يرى اليوم أن مُنْيته تكاد تتحقق . ولعله تذكر ما كان يوم خرج من ضيعته مودعاً أهله

---

* مقعدون ينهضون ويمشون ، المختار إبريل ١٩٤٤ صفحة ٣٦

ليذهب إلى جامعة دي‌پو . وكان بين أهله الذين ودعوه أمُّ جدته ، التى جنت مرة ٣٥٠ رطلا من القطن فى يوم واحد ، وهى الآن فى التاسعة والتسعين ، وهذه يدها المغضنة تودعه . وقد ودّعه أيضاً جده بيد قطع إصبعان من أصابعها ، لأن سيده الأبيض عرف أنه قد تعلم أن يكتب . وأما تحية الوداع من والده ، فكان معناها أنه لايرضى منه فى دراسته بشيء دون الكمال .

ولعل جوليان تذكرهم فى ظفره هذا كما رآهم يومئذ — ثلاثة أجيال من أهله وقفت تبتهل وتدعو ، ولقد برَّ بهم جميعاً ولم يخذلهم . وهذا هو العميد بلانشرد يريده اليوم رئيساً لقسم الكيمياء فى جامعة دى پو ، فإذا قبل كان أول زنجيٍّ تولى منصب أستاذ للكيمياء فى معهد من معاهد البيض فى أمريكا . إنه سيجعل دى‌پو قبلة العالم فى دراسة الكيمياء ، ولكن رحابة صدر بلانشرد كانت أعظم من رحابة صدر زملائه — فقد رأوا أنه « لايحسن » أن يعينوه .

كان ذلك يوم حسرة فى حياة جوليان ، ولكن و . ج . أوبريان ، وكيل مجلس الإدارة فى شركة جليدن ، دعاه بالتلفون من مدينة بعيدة ، وقال إن شركته مافتئت تبحث بين رجال العلم عن أصلح كيميائى يتولى البحث فى فول الصويا ، ومايقال عن الذخائر الطبيعية الكامنة فيه . وكان يبدو من الحديث أن أوبريان أحد أولئك الرجال الذين يظنسون أنه إذا كان الناس خليقين بتكريم أبطال الملاكمة من الزنوج ، فينبغى لهم أن يرحبوا بأبطال الكيمياء منهم فى ميادين الصناعة .

وكانت أول مهمة ألقيت إلى جوليان فى شركة جليدن أن يبتكر طريقة لتحضير بروتين الصويا حتى يسهل الإنتفاع به فى طلاء الورق . وسأله مدير جليدن : « ما رأيك فى طريقتنا المتبعة الآن ؟ » فلم يداورهم جوليان وقال : « إنها سخيفة » .

وقد ظل جوليان أشهراً متعددة يعمل فى جو يشيع فيه خبث رائحة المواد المتحللة ، فكان يأخذ قدراً من فول الصويا ويضعه فى القدور يوم الإثنين ، فإذا أقبل على المعمل يوم الأربعاء ذرَعَه القيء لما فى الجوِّ من رائحة خبيثة ، وكان لون المقدار اليسير الذى يستخلصه من بروتين الصويا بالغ السواد يحيل الورق الأبيض المطلوب ورقاً أسمر .

وعالجت أصابعه الطويلة المتفننة كل وسيلة للتغلب على الميكروبات التى تحدث الانحلال والفساد ، وفتق له عقله حيلاً كيميائية عجيبة لتصفية البروتين وحله ومعالجته — وهو

من أعصى المواد على هذه الأساليب . فلم تكد تنقضى سنة حتى حوّل خسارة كبيرة تعانيها الشركة إلى ربح أكبر . وقد اشترك فى تصميم البناء الخاص بصنع البروتين وأشرف على تشييده ، فبلغت نفقته حين تمّ مليون ريال . أما اليوم فتجد شركة جليدن قادرة أن تبيع خمسة أضعاف ما تطيق أن تصنعه من بروتين الصويا ، وهو أرخص من كاسين اللبن ويصلح مثله لطلاء الورق .

ولكن هذا لم يكن سوى فاتحة ، فيوم كان الأسطول الأمريكى يجاهد جهاد المستميت فى المحيط الهادىء ، ظهر نفع جديد لبروتين الصويا الذى صنعه جوليان فى مناضلة اليابان . فقد كان مهندسو «شركة فوم» يتتبعون عمل جوليان ، فوجدوا أن بروتين الصويا يضرب على نيران البنزين والزيت ستاراً لا يخترقه الأوكسجين ، فيخمدها كأن يد ساحر قد مستها . وهذا أساس الطريقة التى انتفع بها الأسطول فيما بعد فأنقذت حياة ألوف من البحارة والطيارين وطائفة كبيرة من سفن الحرب .

ولم يكد جوليان ينال الظفر فى صنع البروتين الجديد ، حتى انقلب إلى نفاية فول الصويا يستخرج منها مواد خليقة بأن تعزز نشاط الأبدان ، فهناك مواد الستيرول فى فول الصويا ، وهى مواد كحولية تشتق من مركب كيميائى عضوى يعرف باسم (سيكلو ـ بنتانو ـ برهيدرو ـ فينانترين) والعلم بهذه المواد معقد كأسمائها .

ويوم أكب جوليان ومساعدوه من الكيميائيين على هذا البحث ، كان هرمونا الذكر والأنثى يصنعان من ستيرول حيوانى يعرف باسم كولستيرول ، وهو يستخرج فى مقادير ضئيلة من النخاع الشوكى والمخ فى الأنعام، وكان العلماء الألمان قد استخرجوا ضروب الستيرول من فول الصويا ، ولكن ما استخرجوه لم يكن صالحاً للتجارة ، لأنه قليل وغالٍ ، فالرطل من ستيرول الصويا كان يباع بمئة ريال .

هذه المواد الكيميائية الثمينة كانت مطوية فى زيت الصويا ، الذى ينبغى أن يحوّل صابوناً فى إحدى مراحل تحضيره للانتفاع به فى أغراض شتى . ولكن المشكلة كانت أن صابون زيت الصويا يصير كتلة صلبة ، يعجز العلماء أن يذيبوا منها ما فيها من الستيرول . ثم اتفق لجوليان ذات يوم أن عثر بالحلّ الكيميائى البسيط لهذا المشكل ، فقد كان فى أحد الأيام يراقب صاحباً له من المخترعين وهو يصنع مركباً يمكنه أن يمنع تصلب الجبس ، وأضاف المخترع مادة الجير ، فإذا المادة قد انتفشت حتى صارت كتلة كثيرة المسام كرغوة الصابون .

فانتفع جوليان بهذا فى علاج الصابون المصنوع بزيت الصويا . فلما جعل الصابون كتلة هشة ذات مسام ، أنفذ فيها مواد كيميائية تذيب مافيها من ستيرول ، فصار فى وسع جوليان وأعوانه أن يحضروا مقادير عظيمة من الستيرول بعد أن كان نادراً.

وكانت النتيجة الأولى التى أسفر عنها هذا البحث ، رحمة مرسلة من الله إلى الحوامل اللواتى يهددهن خطر الإجهاض . وكان الأطباء قد وجدوا أن الحقن بهرمون الأنثى ، البروجستيرون ، ينفع الحوامل . ولكن الهرمون كان قليلا ، فصنعت مقادير كبيرة من البروجستيرون ، من ستيرول الصويا الذى هيأه جوليان ، حتى صار فى متناول كلّ حامل تحتاج إليه .

وقلة مادة الكولستيرول كانت أيضاً عقبة تحول دون تحضير مقادير وافية من هرمون الذكر ، تستوستيرون. وهذا الهرمون يعين الكهول والشيوخ على الاحتفاظ بنشاطهم ويمدّ أجل شباب الحياة . ويقدر عدد الذين هم خليقون أن ينتفعوا به كل يوم من الذين بلغوا سن ٤٥ أو تجاوزوها ، بنحو عشرة ملايين . وقد أثبت جوليان ومعاونوه أن كلّ رطل من ستيرول الصويا يخرج من التستوستيرون ، مثل مايخرجه الرطل من الكولستيرول ، أو أكثر . وإذن فليس لتحضير التستوستيرون اليوم حدّ يحدّه ــ أكثر من فول الصويا ، يكثر عندك زيته ، فيكثر الستيرول المستخرج منه ، ويكثر مايمكن أن تصنعه من هرمون الذكر .

هذه الأعمال العلمية الباهرة ، جعلت شركة جليدن توفر لجوليان من الحرية مالا يمكن أن يتيسر له مثلها فى أية جامعة، وعنده فى معمله بمدينة شيكاغو ، خمسون من أقدر الكيميائيين ، من بيض وزنوج وهو يتولى إرشادهم فى الطريق الوعر ، طريق البحث العلمى . وهم الآن معنيون بتحضير مادة « بريجنينولون » لمكافحة التعب والإعياء ، وقد يثبت أنها أيضاً هرمون لمقاومة الشيخوخة . وهم يحضرون الأحماض الأمينية الأساسية التى تعين الجسم على كفاح عدوى الأمراض ، وتعدّ اليوم منقذاً للناس من عوادى الجوع وقد أرادت الشركة أن تبالغ فى تكريم جوليان ، فتراها تضع الخطط لتشييد له معهداً فخماً للبحث ، ولن يقتصر البحث فيه على تطبيق العلم ، بل سيشمل البحث فى أصول العلم أيضاً . وأنت لاتكاد ترى برسى جوليان حتى تستيقن أنه وهو فى السنة السابعة والأربعين من عمره ، لايزال فى مستهل عمر مديد يتيح له أن يسدى إلى الكيمياء يداً لها أعظم الأثر فى حياة البشر .



مات الملك برغم جودة العلاج

بقلم هوارد هاجرد
أستاذ علم وظائف الأعضاء بجامعة هارفرد
مختصرة من كتاب "شياطين، وعقاقير، وأطباء"

في صباح اليوم الثاني من شهر فبراير سنة ١٦٨٥ كان الحلاق يحلق ذقن شارل الثاني ملك إنجلترا في مخدعه، فأصيب الملك بغتة بتشنج عنيف وأغمى عليه، ولم يفق من إغمائه إلا مرة أو مرتين، ثم قضى نحبه بعد بضعة أيام. وأغلب الرأى أن الملك أصيب بسُدَّة، أى عَلَقة من دم طفَت في تيار الدم وسرت معه، فسدَّت شرياناً من الشرايين، وحرمت بعض المخ من الدم، أو لعل كليتيه كانتا مريضتين.

كانت الخطوة الأولى في علاج الملك هى فَصْدُه، فأخذ مقدار نصف لتر من الدم من ذراعه، ثم فصدت كتفه وحُجِم، وأخذ من دمه مقدار ربع لتر آخر. وبعد هذا الهجوم القاتل على الملك المريض، جاء دور العلاج بالعقاقير، فأعطى الملك مُقيئاً ومسهلين، تلتها حقنة في الشرج، خلط فيها الإثمد (الأنتيمون) والكاسكارا والملح وورق الخبازى، والبنفسج، والبنجر، وزهر البابونج، وحبّ الشمر، وبذر الكتان، والقرفة، وحب الهال (الحبهان) والصبر. وأعيدت حقنة الشرج بعد ساعتين، وتلاها مسهل آخر.

وحلق شعر رأسه، وأحدثت نفّاطة على فروته. ونشِّق الملك نشوقاً مهيجاً للعطاس مصنوعاً من جذور الخربق الأسود، ثم مسحوق زهر الشوكران «لتنبيه المخ»، وسُقِى النبيذ الأبيض، والأبسنت، والينسون، وعصير ورق المسك، والنعناع، والسَّذاب، وحشيشة الملك.

وعولج ظاهر بدنه بلزقة على القدمين مصنوعة من قطران برجندى وذَرْق الحمام، وداوموا على الفصد والإسهال. وقد أضيف إلى الأدوية بذور البطيخ، والمن، والدردار اللزج، وذوب اللآلى، وتلاها جذور الجنطيانا، وجوز الطيب، والكينا والقرنفل.

ولم تتحسن حالة الملك بل ساءت، فأسعف بأربعين قطرة من خلاصة الجماجم البشرية لتسكين التشنج. ولكى ينبهوا المريض أعطوه جرعة من ترياق راليه الذى يحتوى عدداً عديداً من خلاصات الأعشاب والحيوان. وأخيراً أعطى حجر البادزهر

(كان يستعمل قديماً ترياقاً للسموم) . قال سكاربرج أحد الأطباءِ الاثنى عشر الذين عالجوه : « وبعد ليلة مشئومة بدا وأسفاه أن قوى جلالته قد خارت ، وفقد الأطباء كل أمل فى إنقاذه ، واستولت عليهم الكآبة. ولكى لايظهروا فى مظهر المتلكىء فى تأدية كل مايجب عليهم ، لجأوا إلى أقوى شراب معروف». وكان هذا الشراب خلاصة شاملة لعقاقير الصيدلة ، فكانت أمشاجاً مختلطة عجيبة التركيب ، فيها من ترياق راليه وشراب اللؤلؤ وروح النشادر ، ثم دفعوه دفعاً فى حلق الملك المحتضر .

سر مع العالم

◆ حين تهتاج النفس ، فى ساعة هرج ومرج ، يشقُّ الاعتماد على الذاكرة فى تصوير ماحدث . وقد أراد أستاذ أن يقيم الدليل على ذلك ، فدبّر شغباً يبغت به طلبة فصله ويفزعهم ، فاقتحم أربعة منهم حجرة الدراسة ، وناقر بعضهم بعضاً ، وظلوا ثلاثين ثانية يحطمون مانالته أيديهم من الأثاث ثم اندفعوا خارجين . فلما سأل الأستاذ الطلاب التسعة والعشرين الآخرين ، عجزوا جميعاً — ماعدا ثلاثة — عن تذكر عدد الشبان الذين اقتحموا الحجرة .

◆ أعجب صدىً معروف فى العالم اليوم ، هو صدى « وكر العقاب » فى الجبال التى تحيط ببحيرة كيلارنى فى إرلندة ، فإذا نفخ فى بوق أمامه وعلى مسافة معينة منه ، تردَّد صدى النفخ مئة مرة .

◆ إن « الميدان الأحمر » المشهور فى موسكو ، لم يؤخذ اسمه من ثورة « الحمر » فى سنة ١٩١٧ ، ولا من شعار الحزب الشيوعى ، بل هو يرجع إلى العصور الوسطى ، فقد كان اسمه بالروسية كراسنايا — وهى تعنى « أحمر وجميل » .

◆ جرت العادة فى اليابان أن يتلقى الندل والحلاقون والحمَّالون منح الزبائن فى ظروف صغيرة أعدت خاصة لذلك ، ذلك بأن تقديم المال « عارياً » يسوءهم ، فهم يعدونه ازدراءً بكرامتهم .

الرأسمالية الجديدة
فرصة للجميع

إريك جونستون ★

نحن رجالَ الأعمال نملك سرّ إنشاء رأسمالية جديدة تساير مبادىء التقدم والحرية ، ونحن نقول إننا نؤيد تعزيز المكانة الاقتصادية للطبقة المتوسطة ، وهذا يعنى أن يقلّ عدد الذين فى الحضيض ، وعدد الذين فى القمة ، وأن يكثر عدد الذين فى الوسط . إذن فما عيب تحديد حدّ أدنى للأجور يحفظ على الإنسان كرامته ؟ فهذه إذن وسيلة لرفع مستوى الذين فى الحضيض . أليست كذلك ؟ وهى أيضاً وسيلة لزيادة عدد الذين فى الوسط .

ونحن نقول إنه يؤسفنا أن نرى الكساد فى الحين بعد الحين ، وتعطل العمال عن العمل فى فصول بعينها ، ونقول إننا نطلب عملا ثابتاً للعمال . إذن فما هو عيب الأجر السنوى ؟ إنه يكفل للعامل عملاً ثابتاً سنة كاملة ، أليس كذلك ؟

ونحن نقول إننا نريد حقا أن نرى نعم الحياة أوفر انتشاراً بين الناس . إذن فما هو عيب نظام المشاركة فى الأرباح ؟ وما هو عيب ابتكار الحوافز للعمال حتى يزيدوا إنتاجهم — فيزيد ربحهم ، وربحك أيضاً .

ونحن نقول إننا نريد لجميع الناس بيوتاً أفضل وتعليما أرقى ، وأننا نطلب مستوى صحياً أعلى ، وما يكفل حسن العيش للجميع حين تتقدم بهم السن ، وأننا نريد جميع أسباب الرخاء الحقيقى لجميع الناس .

فإذا كنا نريد ذلك حقاً ، فينبغى أن تكون ثمة وسائل لتحقيقه . ولست أزعم أن الوسائل التى ذكرتها هى الدواء لكل داء ، بل أقول إنها أشياء ينبغى لنا معشر رجال الأعمال أن نفكر فيها ، إذا أردنا نكفل لأنفسنا مستقبلاً بما نكفله لسائر الناس من مستقبل .

كانت الرأسمالية القديمة تعدّ نظاماً آليًّا بحتاً ، أو كانت ضرباً من آلة الحركة الدائمة التى يحركها دافع الربح . فالرأسمالية فى هذا التصوير فكرة عتيقة بالية لا تلائم حقائق

★ مختصرة من خطبة وداع ألقاها عند اعتزاله رئاسة الغرفة التجارية الأمريكية .

العصر الحديث ، فينبغى أن نسمو بتفكيرنا إلى مستوى من الرأى يعدُّ النهوض بالمصلحة العامة أساساً للعمل النافع ، فقد بلغنا فى تقدمنا حدًّا ينبغى لنا عنده أن نوجّه التاريخ كما نريد ، لا أن ندع التاريخ يفعل بنا ما يشاء .

وعلينا اليوم أن نختار بين المجتمع الرأسمالى القديم ، والمجتمع الرأسمالى الجديد . إن القديم مثقل بآراء بالية جامدة — ضدّ جماعات العمال المنظمة ، وضدّ نشاط الحكومة ، وضدّ الاقتصاد الموجّه . أما الرأى الجديد المتطلع إلى الأمام ، فهو أن الرأسمالية نظام إنسانى يفور حياة ويسير على سنن التطوّر ، وفى وسعه أن يلائم بين أصوله وبين الأحوال الجديدة ، فهو أداة فى أيدى الناس يستخدمونها لخير الناس جميعاً .

كانت كلمة « رأسمالى » يوم توليت رئاسة هذه الغرفة منذ أربع سنوات ، صفة لضرب معين من الناس . وكنت تصف الرأسمالى بأنه « منتفخ الأوداج » ، وكانت الأرباح توصف بأنها « ضخمة » ، وكان الرأسماليون فى عرف الناس يزدادون سمناً وغنى بما يأكلونه من جهود الفقراء والمساكين .

وكان من آيات البراعة أن تدعو نفسك اشتراكياً ، وكان هذا الوصف خليقاً أن يفتح لك الأبواب إلى أى مجتمع ، أما الرأسمالية فكانت تتسلل لِوَاذاً من الأبواب الضيقة إلى تفكير الناس .

وقد كان هذا كله خطأ فاحشاً منذ أربع سنوات — ولم يزل . وأذكر أنى قلت إننا معشر رجال الأعمال ، قد أفزعتنا حملة اللوم القارص التى شُنت علينا ، وقد بلغ من خوفنا اننا لُذْنا بعبارة غامضة هى عبارة « نظام العمل الحرّ » .

وقد قلت يومئذ : إنك لا تستطيع أن تستروح نسمة من « العمل الحر » وتبنى بها مصنعاً ، فإنشاء مصنع وتوفير عمل للعمال يقتضى مالاً — رأس مال . فالكلمة التى ينبغى أن ينحصر فيها فكر الأمة اليوم هى بغير مداورة أو مواربة ، كلمة « الرأسمالية » .

وهذا الرأى اليوم أصدق مما كان منذ أربع سنوات ، وسوف يزداد على الأيام صدقاً — فى السنة المقبلة ، أو بعد خمس سنوات ، إذا عقدنا عزمنا على الاحتفاظ بنظام العمل الحر .

وينبغى لنا أن نباهى بالنظام الرأسمالى ، فالرأسمالية القائمة على المنافسة كان لها شأن عظيم فى كسب أعظم حرب فى التاريخ ، بيد أنه يجب علينا أن نوجه عنايتنا منذ اليوم إلى عظائم الأمور التى يمكن تحقيقها فى المستقبل ، فى ظل ضرب جديد من الرأسمالية .

إن تعريف الرأسمالية فى المعجم أصبح ميتاً كالحيوانات المنقرضة : « الرأسمالية حشد رأس المال . نفوذ رأس المال متى انحصر فى أيدى رجال قلائل » .

وقد عاش رجال الأعمال أمداً طويلاً فى ظلال هذا التعريف ، وهو لا ينطبق إلا على ما مضى من عهد السلب والنهب ، والسالبين والمحتكرين .

ما رأيكم فى هذا التعريف : « الرأسمالية نظام اقتصادى يسمح بالمنافسة ، ويرمى إلى زيادة ثروة الكثيرين ، لا إلى زيادة ثروة رجال قلائل وحسب » .

وينبغى أن نولى وجوهنا شطر هذا الضرب من الرأسمالية ، ولا نلوى على شىء ، والواقع أنه لامفر لنا من ذلك ، إذا أردنا أن نصون ما لدينا من نعم الحياة ، حتى لا تودى بها موارد التلف .

بيد أنه ينبغى لنا أن نطبق هذا التعريف ولا بد من أن نحدث وجوهاً من التغيير تُوائم الأحوال الجديدة والآراء الجديدة والتفكير الجديد . أفتستطيع الرأسمالية أن تثبت حيال النظم الجماعية الصاخبة فى أقطار أخرى؟ أو تستطيع الأمم فى عصر يميل إلى قيام الكتل الاقتصادية الكبيرة ــ الشركات الضخمة ونقابات العمال العظيمة ، وهيئات الحكومة التى تصرف مالا وفيراً ــ أن تحتفظ بالحريات الفردية والمنشآت الحرة ، وأن تعززها ؟

وأنا أزعم أنها تستطيع ، بل هى خليقة أن تزداد ازدهاراً على الأيام .

إن الفرد فى ظل الرأسمالية الجديدة عامل حر ، يحق له أن يتخذ القرار الذى يراه ، ولكن لا يحق له أن يعتدى على حقوق غيره . والرجل أجلُّ شأناً من الآلة ، فكرامة المرء لها المقام الأول . هذا هو الرأى الجديد ، أما نقيضه فهو الرأى القديم ، رأى النظام الجامع الذى يجعل المقام الأول للدولة .

وهذا هو الفرق بين اقتصاد روسيا والاقتصاد الحرّ . ففى الرأسمالية الديمقراطية يستطيع العامل إذا اختلف هو ورئيسه أن يطلب عملا جديداً من صاحب عمل آخر ، أما فى الدولة الجامعة ، فترى الدولة تعين للعامل أين يعمل ، وليس له سوى رئيس واحد هو الدولة ، فإذا اختلف هو ورئيسه أرسل إلى سيبيريا .

فالرأسمالية الجديدة تعترف بعلوّ شأن الفرد ، ولكن ينبغى لها أن تعترف أيضاً بأن الاجتماع الحديث الذى قام فيه الإنتاج الواسع النطاق ، قد دفع الأفراد إلى تنظيم جماعات اقتصادية تذود عن مصالحهم . فالأفراد اليوم ينتسبون إلى نقابة أو جمعية

تجارية أو زراعية ، ، وقد نزلوا عن بعض حرياتهم إلى هذه الجماعات التى اختاروها حتى يستطيعوا أن يعملوا عملا منتجاً فى مجتمع يسوده نظام الإنتاج الواسع النطاق.

فهذه الجماعات الاقتصادية الحديثة ، هى قلب الرأسمالية الجديدة ، وستظل قائمة . بيد أنه لايسعنا أن نطلق لها العنان ، فإن لم تنظم أصبحت أقوى سلطاناً من الدولة نفسها. ولا يمكن للرأسمالية الجديدة أن تنجح إلا إذا خضعت هذه الجماعات لنظام عام .

وأفضل التنظيم هو أن يبلغ تنظيم الجماعات نفسها بنفسها أقصى حد ، وأن يخفّ تدخل الحكومة فى هذه الجماعات إلى أدنى حد ، ولكن علينا أن نتقبل كل تنظيم معقول لهذه الجماعات تسنه الحكومة ، فهى فى منزلة الحكم الذى يضع القواعد العادلة ، ثم يسهر على أن يحترمها الفريقان .

وليس فى وسعك اليوم أن تنظم أحد الفريقين دون الآخر ، فرجال الأعمال يطلبون تنظيم النقابات ، ورؤساء النقابات يطلبون أخْذ رجال الأعمال بنظام أدق ، والفلاّحون يريدون أن يخضع الفريقان لنظام معروف . ولا يسعك أن تطلب من إحدى هذه الجماعات أن تبين لك مواردها من المال ووجوه إنفاقه ، إلا إذا طلبت ذلك من الجماعات كلها .

والرأسمالية الجديدة تتطلب عنصراً أصيلاً آخر — هو تكافؤ الفرص لجميع الناس ، ولن تتكافأ الفرص بغير منافسة عادلة . فقد كانت الرأسمالية القديمة قائمة على الاحتكار ، فكانت تقضى على المنافسة ، فتقضى بذلك على الفرصة المتاحة للعامل الصغير. أما الرأسمالية الجديدة فينبغى أن تشجع المنافسة ، فتفتح بذلك أبواب الفرص ، وأن تجعل غرضها أن يصير كل رجل رأسمالياً.

والمنافسة ، فيما أراها ، هى المنافسة التى تهيىء الفرصة لبروز الآراء والأفكار الجديدة النافعة ، وظهور الرجال المتصفين بأخلاق الزعماء ، وهى المنافسة التى تبقى أسعار الأشياء عند حد معقول ، فتمهّد لتحسين أحوال المعيشة .

فهذه الرأسمالية الجديدة ، تعترف بأن الفرد له المنزلة الأولى ، وتدعو كل جماعة إلى تقدير تبعتها فى كل ماتفعل ، وتعظم شأن الفرصة التى ينبغى أن تتاح للناس .

وأمامنا عشر سنوات حاسمة ، فينبغى أن لا ننسى أن الحكم فى دولة ديمقراطية هو حكم الأكثرية ، فينبغى للأكثرية ، وهم العاملون ، أن تحس بأنها تنال قسطها من الربح فى نظام قائم على مبدأ الربح ، فإن لم تحس ذلك فربما رأت أن تعمل على قيام نظام آخر .

قلبوا نظركم فى أرجاء الأرض تروا ما تم فيها. فقد زالت الرأسمالية القديمة أو كادت — « صُفِّيت » فى روسيا ، وهى فى حشرجة الموت فى أوربة ، وتكاد تختنق فى بريطانيا.

كانت فترة رئاستى للغرفة التجارية فترة تجربة ودراسة ، وقد اقتضانى عملى فيها أن أتجول فى أقطار الأرض ، فرأيت مصرع الرأسمالية بعينى رأسى . وقد اقتضانى عملى أيضاً أن أتجول فى أمريكا مراراً لا حصر لها ، فخرجت من هذه الرحلات بهذه العبرة : علينا معشر رجال الأعمال : إما أن نساير المبادىء الحرة ، وإما أن نواجه خطر الانقراض . هـذا هو ناموس الحيـاة : « المسايرة أو الانقراض » .

إن فى أيدى رجال الأعمال ذلك المفتاح الذى يفتح باب هذه الرأسمالية الجديدة ، ولا يسعنا أن نتغاضى . فالتبعة واقعة علينا ، والفرصة سانحة أمامنا ، والقول الفصل لنا.

سرّ المعاشرة

كثيراً ما يكون الفرق بين الزواج الموفق والزواج غير الموفق ، هو أن يحرص المرء فى كل يوم على أن يكفّ لسانه عن نطق كلمة أو كلمتين . [هارلان ميلر]

فيم يتقاتلون ؟

دار مرّة حديث بينى وبين أحد أمراء القبائل آكلة لحوم البشر ، فلما أنبأته بخبر الحرب العظيمة الناشبة بين أهل أوربة ، عجب كيف يستطيع هؤلاء الأوربيون أن يأكلوا هـذه المقادير الهائلة من لحوم البشر . فلما قلت له : إن الأوربيين لا يأكلون لحوم القتلى من أعدائهم ، أجفل ونظر إلى نظرة المستهول وقال : « إنهم لقوم متوحشون! فهم يقتتلون لغير غرض مقصود » .

[العالم برونسلاو مالينوفسكى]

أسباب الموت المفاجىء فى البيت

ج . س . فرناس

مختصرة من "لسيديز هوم جورنال"

الحكم النافعة الشائعة : لاتقف على كرسى إذا أردت أن تنال شيئاً يبعد عن متناولك بل استعمل سلماً من سلالم المنازل المأمونة . ومع ذلك :

رأت إحدى جارات أرلين كالامان دخاناً خفيفاً يتصاعد من نافذة المطبخ ، فذهبت تتحرّى ، فألفت نفسها منحنية على جارتها مطروحة على الأرض والدخان يتصاعد من ثوبها . فقد وقفت أرلين على كرسىّ متداع لتتناول شمعاً تستعين به فى كىّ ثوبها . فتحطم الكرسى فوقعت مغشياً عليها ، وانقلب لوح الكىّ ، والمكواة متصلة بالتيار الكهربائى ، فحرقت جنبها حرقاً فظيعاً . ولم تتخلص من الندبة الكبيرة التى بقيت ظاهرة فى جنبها إلا بجراحة غالية . ومع ذلك فقد كانت سعيدة الحظ ، فقد كان ثوبها خليقاً أن يلتهب فيقتلها اللهيب .

وقد تكون النية حسنة ولكنّ الجهل أو الإهمال قد يحيلها خطراً . فقد اعتادت مسز أندرسن الدقيقة فى تدبير منزلها ، أن تغسل زجاجات اللبن بماء مغلى . وتضعها أمام بابها . وفى يوم شديد البرد ، أخذت الزجاجات كعادتها ، فانكسرت إحداها فى يدها ، لشدّة الفرق بين حرارة الماء المغلى وبرد الجو . فانتثرت شظية حادة وقطعت شريان معصمها ، ولو كانت وحدها لكانت حريّة أن ينزف دمها حتى تموت

ولمواقد الغاز نصيب فى مآسى البيت . فقد كانت فرانسيز هيرش الصغيرة ترتدى قميصاً جميلا جديداً من صوف ذى زغب . فدخلت مطبخها لتعدّ العشاء ، ولكنها تأخرت قليلا فى إشعال غاز الموقد بعد أن فتحت صمامه . فانقذفت عليها سحابة من الغاز المشتعل ، فأحالت قميصها غلالة ملتهبة .

بيد أن ألمها الفظيع لم يفقدها رباطة جأشها ، فالتفت بلحاف سميك لتطفىء النار ولكن بدنها كان قد صار كأنه تمثال متوهّج وصارت تصرخ من ألم يضرب ما بين عنقها إلى خصرها . ومثل هذا الحرق خليق

بأن يميت ، ولكنها نجت ، كما نجا سواها من نساء فقدن حواجبهن وشعر نواصيهن بالطريقة نفسها .

ولطالما أوصت الأمهات بناتهن بأن يجعلن مقابض الغلايات إلى مؤخرة المواقد، ولطالما نسيت البنات أن تفعل . وقد حدث لأم أن نسيت هذه النصيحة ، فعلق حزام ثوبها بمقبض غلاية كبيرة فيها ماء يغلى ، وكان طفلها الصغير يتبعها ، فاندلقت الغلاية عليه من رأسه إلى قدمه ، فكان موتهُ أشد فظاعة من مِيتته لو عمَدت أمه إلى تهشيم رأسه على حديد الموقد !

وهناك طائفة من المخاطر يتعرض لها الصغار، فقد يترك الطفل وحده بضع دقائق فيرى أمامه سلكا كهربائياً فيعض عليه بأسنانه الندية من أثر لعابه، فيصعقه التيار . أو قد يسقط من نافذة لم يحكم فيها تثبيت ستار السلك الدقيق الواقى من الذباب ، أو قد يقع من الفجوات الواسعة بين أعمدة الشرفة ، أو قد يموت اختناقاً إذا منعته أغطية السرير الدافئة من التنفس — ففى أمريكا يموت اختناقا بهذه الطريقة ١٥ ألف طفل كل عام .

وقد يعمد الشيطان إلى حيل بارعة تنطلى على ربة البيت ، فهذه أمّ كانت تنظف صيدلية البيت ، فألقت بثلاثين علبة صغيرة فى صندوق الزبالة . فعثر عليها صبيّان فراحا يلعبان بها ، فمثل أحدهما دور الطبيب والآخر دور المريض .

وأخذ أحدهما حبة زرقاء ليداوى بها مريضه وكانت الحبة من السلمانى ، الذى تطهر به الأمّ أشياء البيت حين يصاب أحد أعضاء أسرتها بمرض معد . ومن نكد الدنيا أن يموت طفل حتى يفهم الناس أن فى العقاقير خطراً كبيراً .

وفى كل يوم يتعرض الناس للموت ، حين يأخذون حبة فى ظلام الليل ، أو حين يهملون أن يتحققوا من اسم الدواء على القارورة قبل تعاطيه . ومن الحكمة أن تغرز دبابيس فى سدادات قوارير السموم ، أو تلف أعناقها بشريط لصّاق حتى يكون ذلك منذراً بخطر ما فيها . وليس السم وحده هو الخطر الذى يهدّد الأطفال إذا تركت قوارير الأدوية فى متناول أيديهم ، فقد مات طفل منذ عهد قريب لأنه أكل معظم ما وجده فى قارورة من حبوب الكاسكارا المسهلة .



"زوجتي هي توأم الربيع"

جون ك . لاجمن

مختصرة من صحيفة "كريستيان سينس مونيتور"

فى قرية قديمة بولاية نيو إنجلند يقال لها «سالم» أضاء من آخر الليل نور هنا ونور هنالك .

وكتمت نوافذ دار آل بي ـ بدى ، سر المعركة القائمة بين الآلام وبين صوفى الفتاة الرقيقة الواهية البنية الشقراء الشعر . وقد انصرفت إلى مذكراتها وكتبت فيها : « اللهم لاتجعل نور قلبي ظلاماً »

وعلى مسيرة دقائق من هذه الدار أضاء نورآخر فى الدار الكئيبة التى لآل هوثورن، وقد جلس إلى مكتبه فتى جميل المحيا أسود الشعر يجاهد كجهادها ، مايعتلج فى نفسه من شعور بالخيبة والإخفاق .

وكذلك كتب ناثانيل هوثورن فى مذكراته : « لم أكن فى هـذه السنوات العشر الأخيرة حيًّا يعيش ، بل حالماً يحلم بالحياة . لقد بنيت لنفسى قصوراً من الهواء ، ولست أعرف شيئاً من حقائق الحياة العميقة الدافقة . . . »

ومضت الليلة بعد الليلة على هذا الرجل وهذه المرأة ، ولا يعرف أحدهما صاحبه ، وهما فرائس للغم والقنوط . ثم جاء يوم فالتقيا ، وكأن الشعلتين الصغيرتين اتصلتا بعد لأي معاً ، وأشرق من اجتماعهما مثل نور الشمس .

وقد كانت زيارة ناثانيل وأخته لدار آل بي ـ بدى ، بعد الإلحاح فى دعوتهما ، أمراً مثيراً عجباً . فما من أحد من قرية سالم يذكر أنه رأى أو سمع بأحـد من آل هوثورن المتكبرين زار أحداً من الناس أو زاره أحد . وقد انطلقت أخت صوفى الكبرى صاعدة تنادى أختها : « صوفى ، صوفى البسى وانزلى . فقد جاء آل هوثورن . إنه لأجمل وأحلى من لورد بيرون » .

فضحكت صوفى ولكنها أبت أن تنزل ، قائلة إنه ما دام قد جاء مرة ، فسيجىء كرة أخرى . وبعد أيام قلائل جاء كرة أخرى — وحده . ويومئذ نزلت إليه صوفى فى ثوب أبيض طويل الذيل . وقد وصفت أختها لقاءها فيما بعد فقالت :

« وقف لها ونظر إليها مليًّا ، وكلما أرسلت صوفى صوتها الخفيض الرقيق ، تراه يرمقها بتلك النظرة النافذة الفاحصة . وخطر علىّ خاطر : ماذا يكون لو هو وقع فى حبها ؟ »

بيد أنّ ذلك كانَ قد كان .

كانت صوفى يومئذ فى الخامسة والعشرين ، ولكن الحب كان شيئاً لا يمرّ لها ببال . فقد أخطأ طبيب فى أيام صباها وجرّعها دواء شديداً أورثها علة عصبية لا تزال تعانى منها فى كل يوم آلاماً مبرّحة مضنية ، فمن أجل ذلك عزمت منذ صدر شبابها على أن لا تتزوّج أبداً .

وكان من فضل الألم أن آتاها حكمة ورقة ودُعابة مكنتها من أن تجد راحة نفسها فى سعادة الآخرين : أولئك الأطفال الذين يزورونها فى غرفتها ، وأولئك الأصدقاء الكثيرون الذين جعلوا دار آل بى — بادى ندوة المثقفين وأهل الرأى .

أما ناثانيل فإنه لما عاد إلى عليّته أحسّ فجأة أنه قد خلص من أغلال البلاء الذى كان ينتابه منذ كان طفلا حتى قطع ما بينه وبين نفسه المبدعة . وكان أحـد أسلاف ناثانيل ساحراً عرّافاً مشهوراً فى مدينة سالم ، فصبّ عليه أحدهم وهو يجود بنفسه لعنة تلحق ذُرّيته — فأصابت اللعنة ناثانيل فى صدر حياته . وفى وسعه أن يذكر أمه الأيِّم وقد لاذت من يومئذ بغرفة نومها المرخاة الستائر ، وأن يذكر أخته إليزابيث المتغطرسة المتجهمة تحرّم البيت أن يطأ عتبته زائر ، ولا تفارقه هى إلا ليلا لتتمشى وحدها فى أزقة سالم الموحشة ، والثالثة عمة له تتسلل لِوَاذاً فى أرجاء البيت وعلى رأسها قلنسوة سوداء ، ومن ورائها قطة سوداء اسمها « عزرائيل » .

هذا هو « الصرح المشئوم » الذى دخله ناثانيل فى سنة ١٨٢٥ ، بعد أن قضى أربع سـنوات فى الكلية ، وحبس نفسه فيه ليكتب ما شاء ، وهو أيضاً الصرح الذى لم يكن يجد عنه مَهرَباً — حتى لقى صوفى .

ولقد كتب إليها : « ما نحن إلا أشباح ، وكل مايبدو لناحقيقة ماثلة ليس إلا شقّة رقيقة من حلم — ولا نزال على ذلك حتى يمسّ القلب طائف من الحبّ ، فهذه اللمسة هى التى تحيينا » .

والآن أحس ناثانيل ، وقد بلغ الخامسة

والثلاثين ، أنه بدأ الساعة يحي . وكثرت زيارة الناسك المنعزل الجميل المحيّا لدار آل بي - بدى . فقد أحبت صوفى ناثانيل منذ النظرة الأولى كما أحبها . وأخذت أفكار قصصه ورواياته تأتيه جديدة حيّة من حسن ملاحظته لما يجرى فى الدنيا التى تحيط به ، وإذا هو يحملها إلى حبيبته جميعاً.

بيد أن صوفى كانت له أعظم ملهمة ، كانت أنثى ماثلةً يريد أن يسكن إليها وتسكن إليه طوال الحياة ، فعثر على وظيفة وزّان فى جمرك بوسطن بمرتب قدره ١٢٠٠ ريال فى السنة . كان وزن الفحم عملا شاقاً قذراً غير أن اكتساب الرزق أطلق لسانه وثبّت جنانه . وما مضت سنة حتى كانت نفسه قد فضّت قيودَ الكظم المتطاول، وقال لصوفى :

« ما أقلَّ ما كنت أعرفهُ عن معنى متعة النفس بالنفس حين تمتزجان ! نعم كان فىّ من الحياة قبل أن ألقاك ما كفانى أن أعرف أنى لم أكن إنساناً حياً » .

فأجابته صوفى : « ما كان أعجبها سنة ! ألم تتبدل الأرض غير الأرض التى عهدناها ؟ ألست ترى كل شيء جديداً ؟ »

وبقيت عقبة كأداء قائمة بينهما — مرضها .

وكانت هناك أيضاً عقبة أخرى . كانت أخته إليزابيث الفتاة الغريبة المعذبة تقدّسه ، وهو لايدرى ، تقديساً كأنه عندها قديس معصوم منزّه — تتوجه إليه بقلبها خفية وفى صمت ، فكيف تصبر على فراقه ؟ حتى إنها انفجرت فى وجه صوفى قائلة : « لن يتزوج ألبتة » .

أخذت إليزابيث تجاهد بالسلاح الأخير الذى بقى لديها — وهو حب ناثانيل لأمه . فهى لو علمت أنه قد تزوّج « مريضة هالكة» لقضى ذلك عليها . هذا على أنها ، كما قالت إليزابيث ، تكره أشد الكره ما بين ولدها وصوفى من علاقة . ولم يكن بين ناثانيل وأمه قط حديث يمسّ خاصة أموره وشواغله ، فمن أجل ذلك لم يكن له سبيل إلى أن يعرف أن أخته كانت تكذب .

أما صوفيا فكان الأمر عندها هكذا :

« إذا أراد الله لى أن أتزوج فإنه سيشفينى ، وإلا كان ذلك دليلاً على أن زواجى أبغض الأمرين إلى الله » .

أما ناثانيل فلم يشك قط فى أن حبها كان قادراً على أن يحدث تلك المعجزة . ولقد كتب إليها من مكتبه فى ميناء بوسطن .

« اسمعى يا عزيزتى . ليكن فى حبنا من القوة ما يملأ قلبك عافية تنفى عن بدنك عوادِى الأسقام . قاسمينى عافيتى وقوتى .

أيتها الحبيبة . ألا ترينَ أنهما ملك لك كما أنهما ملك لى ؟ »

ومضت السنوات الثلاث من أيام خطبتهما المكتومة ، وجعل الشفاء يدبُّ إلى صوفى رفيقاً خفيًّا فإذا هى فى أتم عافية. فلما تبين شفاؤها زارت أخوات ناثانيل ، واصطنعت غاية اللباقة والرفق والكياسة حتى مهدت السبيلَ إلى تغيير رأيهنّ فانتهوا أخيراً إلى الرضى والابتهاج بما اختار أخوهنّ .

أما أمه فإنه حين أنبأها بما نوى ، فقد قالت له فى هدوء : « ولكنى كنت أعلم ذلك منذ سنوات . ولو خُيّرت لما كنت أختار لك من النساء سوى صوفى » .

وكذلك تزوجا بعد خمس سنوات من يوم تعارفهما ، ونزل ناثانيل وزوجته فى الدار التى استأجرها على مقربة من ضفة نهر كونكرد .

وفى تلك السنوات البهيجة الأولى « كان كلّ مالا غنى عنـــه للحياة والبهجة ، كأنه ينزل عليهما عفواً كما ينزل الندى من جو السماء » . ولم يكن ناثانيل يقضى فى الكتابة سوى أربع ساعات فى اليوم . وكان يلم بهما بين الحين والحين بعض الزوّار ، كامرسون وثورو وغيرهما من كبار أدباء أمريكا فى ذلك العهد . بيد أنهما لم يردّا زيارة قط ، فما كانا يجدان فراغاً من فرط شَغَف كل منهما بصاحبه .

وكانا إذا جاء الشتاء خرجا للانزلاق على جليد النهر أو للتمشى فى الغابة . فإذا جاء زمن الدفء خرجا يصطادان السمك أو يسبحان فى النهر أو يجدّفان فى زورقهما، وصارت المروج والتلال الخضر التى تحيط بالدار القديمة مرتعاً لحبهما وهواهما .

وكتبت صوفى فى مذكراتها عن يوم من أيام الربيع فى أول حلولهما بتلك الدار :
« جُنّت الطير وأخذتها نشوة الطرب والغناء فطوحت بها هنا وهناك ، و نفخت أطواقها وحيازيمها نفخاً شديداً . إنها عاصفة تدوى بالسجع الحلو والموسيقى الرقيقة » .

وانطلقت صوفى تعـــدو لتنادى زوجها من خلال شباك غرفة مكتبه، فنحّى ناثانيل أوراقه جانباً ، وكتب فى مذكراته : « يخيل إلىّ أن زوجتى هى توأم الربيع ، فكلاهما يحيّ صاحبه بأرق تحية وأحسنها ، وكلاهما غضُّ الأهاب ريّان النواحى ، وكلاهما يردِّد سجع الطـير وترجيعه ، وغناؤهما ينبثق من صميم قلوبهما. لقد تزوجت الربيع ! أنا زوجٌ لشهر مايو ! »

وحال الحول على زواجهما ، فما كاد يعرف أن زوجه حاملٌ حتى كتب إليها : « أيتها الحبيبة! لقد حال الحول على زواجنا،

فكأنما زاد وجودنا اتساعاً ورحباً ، وأفضى بنا إلى بحر من الحبّ لا يحدّ ولا يبلغ البصر مداه » .

وما كاد يتم وضع ابنتهما الأولى حتى كتب ناثانيل : « شبحٌ خفّاق ولد للهمّ والكدح في الحياة الدنيا ، قد أقحم نفسه في حقائق حياتنا العليا » وكان ناشرو كتبه يدفعون له قليلا ويماطلونه طويلا ، وقد أدرك الإفلاس مجلة كان له عندها أجر سنة كاملة ، فإذا ناثانيل يجد نفسه غارقاً في الدين ولا رجاء له في زيادة دخله أو كسبه .

هذه الدار القديمة ، وهذا النهر ، وهذه البساتين والمروج والتلال الخضر — لقد فارقوها جميعاً إلى غرفة في المنزل القديم المشئوم ، منزل آل هوثورن في سالم . وكانت صوفي يومئذ مرضعاً وحاملا أيضاً ، فأيّ بلاء يتوقع هو شرٌّ مما لَقِيَ؟ بيد أن حبها كان أشدّ مراساً وأعتى .

وكتبت صوفي في مذكرتها: «إذا أنعم الله عليّ بمأوى آوى إليه في كنف زوجي ، فإني لأحمد الله حمداً لا يبلغ مداه . وكلما ازدادت أيامنا ظلمة وسواداً ازداد هو في عيني بريقاً ورُوَاءً » .

وقد وجد ناثانيل أخيراً وظيفة مفتش في جمرك سالم ، ولكنه فقدها من جراء بعض دسائس السياسة . وقد كتب :

« لم أخبر صوفي بعدُ ، ولكنها ستلقى النبأ صابرة صبرْ المرأة — أي بأحسن مما يفعل الرجل » .

فلما نبّأها لم تلبث حتى أخرجت له ملء صندوق من قطع الفضة وأوراق النقد كانت قد ادخرتهـــا من نفقة البيت وقالت له : « الآن تستطيع أن تكتب روايتك » .

وبدأ ناثانيل يكتب روايتـــه الأولى « الحرف القرمزي » ، فما كاد يبدأ حتى جاء مرض أمّه ثم موتها ، فاستنفد كل ما ادخرته صوفي من مال قليل ، ولكنها أخذت تعمل خُفْيةً بعض أشغال التطريز لتبيعها ، وتكفل لزوجها ما يعينه على الاستمرار في الكتابة .

وكان يسعها أن تكتب ، حتى في اليوم الأسود يوم كانت لا تدري ماذا يأكلون غداً : « لا أجد فنًّا أسمى ولا جمالاً أحلى من أيامي التي أقضيها مع زوج كزوجي وطفلة كطفلتي » .

وجاءت الشهرة ناثانيل هوثورن بَعْد لأي . فما كادت روايته « الحرف القرمزي » تطبع في سنة ١٨٥٠ حتى تسامع الناس بها في أوربة وأمريكا وعدّوه أكبر روائي أمريكي . وكذلك تصرّمت أيام الكدح والشقاء .

غير أن النجاح المفاجىء الخاطف لم

يحدث في أسرة هوثورن تغييراً يذكر .
وحمد الصغار ربهم حمداً كثيراً لأن هذا سيتيح لأبيهم وأمهم وقتاً أوسع يقضونه في النزهة واللعب وكتابة القصص . وقد قال ولدها جوليان بعد أن كبر : إنه يحاول أن يذكر مرة رأى فيها أن والديه لم يشاركاه هو وأخوته في ألعابهم كأنهما من أترابهما ، « أو هل تمنوا قط أو خطر ببالهم أن يلتمسوا سواهما أتراباً يلاعبونهم ؟ »

وأصبح الفراق ، وإن قلت أيامه ، أشدّ ثقلاً على ناثانيل وصوفي مما كان ، فقد كتب ناثانيل في مذكراته وقد كان ينتظر عودتها هي وطفليها من زيارة أهلها في بوسطن :

« إذا لم تحضر صوفي اليوم . فلا أدري ما أصنع بنفسي . لقد بلغت الساعة السادسة ولم يحضروا . لابد من حضورهم الليلة لا بد .

« لقد حضروا بعد ربع ساعة مضت على ما كتبت . هم جميعاً بخير والحمد لله » .

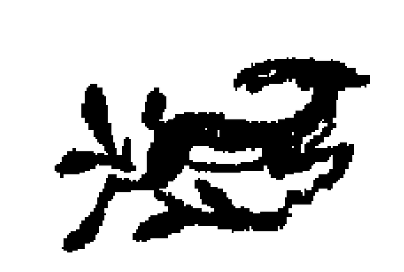
وقد خرجا مرة يريدان زيارة كونكرد فلما بلغا منزلهما القديم الذى عاشا فيه زمناً طويلا ، عرّجا عليه ، ووقفا صامتين ، غير أن صوفي قد باحت لنا بما كان يدور بين جوانحها ، قالت :

« إني لأقدّس هذه الأرض لما لقيت في رحباتها من سعادة لاتقدّر — وإن كانت لاتضارع ما أنا فيه الآن من سعادة . . ولكني لم أبلغ الغاية في سعادتي بعد ، فإن زوجي لايزال سراً غامضاً فاتناً قد جاوز كل ما اهتديت إليه من أسرار امتلأت بفهمها نفسي » .

ولم يذهب كر السنين بشاشة هذا السر الغامض الفاتن ، ولعلّ ذلك كما قال ناثانيل: « السعادة ليست حوادث تأتي متتابعة ، لأنها جزء من الخلود . ولقد عشت أنا وصوفي في ظلال الخلود منذ تزوجنا » .

وبعد اثنتين وعشرين سنة منذ تزوجا ، عادت صوفي إلى الدار القديمة آخر مرة ، وشيعت جنازة زوجها إلى مرقده حيث كانا يرتعان ويسعدان . وقد كتبت : « لو استطعت أن أواسي كل القلوب المكلومة ، ولو استطعت أن أحمل كل أحزان الناس ، إذن لامتلأت نفسي غبطة ، فقد أصبحت أعرف أن الحب ينسخ قضاء الموت المحتوم »

إن حبيبها لينتظرها منذ اليوم ، ولن تلبث بعده طويلاً . وسوف يبتهجان حين يلتقيان كما كانا يفعلان بعد كل فراق .



منذ عهد آدم وحواء

أضعف ما يكونَ الرجل حين يسمع أنثى تقول له : ما أقواك !

[كتاب إرفنج هوفمان « الفتنة »]

OO··OOOO··OO

يخيل إليّ أن الفارق الحقيقي الذى يفرق بين الرجال والنساء هو الصبر على العـذاب ، فالمرأة تعتاد أن تتقبل تباريح العـذاب ، سواء أحاق بجسمها أم حاق بنفسها . أما الرجل فيظل يناضل ، فيضعفه النضال رويداً رويداً حتى يُغلب على أمره . بيد أن العذابَ لا يضعفُ المرأةَ ولا يغلبها على أمرها أبداً ، بل يصـيرُ عنصراً من عناصر كيانها ، ويُدنيها من سرّ الحيـاة . أما الرجل فعلى خلافها ، فالعذاب يدنيه من ظلمة الموت .

[فردريك بروكوش فى كتابه « المتآمرون »]

⋙⋙⋘⋘

تستمسك المرأة بعُرْوة الأخلاق القويمة ، إذا لم تكن قد وجدت من تحب ، فإذا وجدته تراخت له وتهاونت . أما الرجل فعلى نقيضها : إذا لم يحبّ المرأة لم يتورَّع ، فإذا أحبها كان خليقاً أن يسير على سُنَّة من الأخلاق تفوت جُهْد النساك والمتعبِّدين .

[مارك ريد فى كتابه « نعم ، يابنيتي الحبيبة »]

✲✲✲✲✲✲✲✲

يظل الغدُ يشغل بالَ الأنثى حتى تتزوّج ، أما الرجل فلا يشغله الغدُ قطُّ حتى يتزوّج .

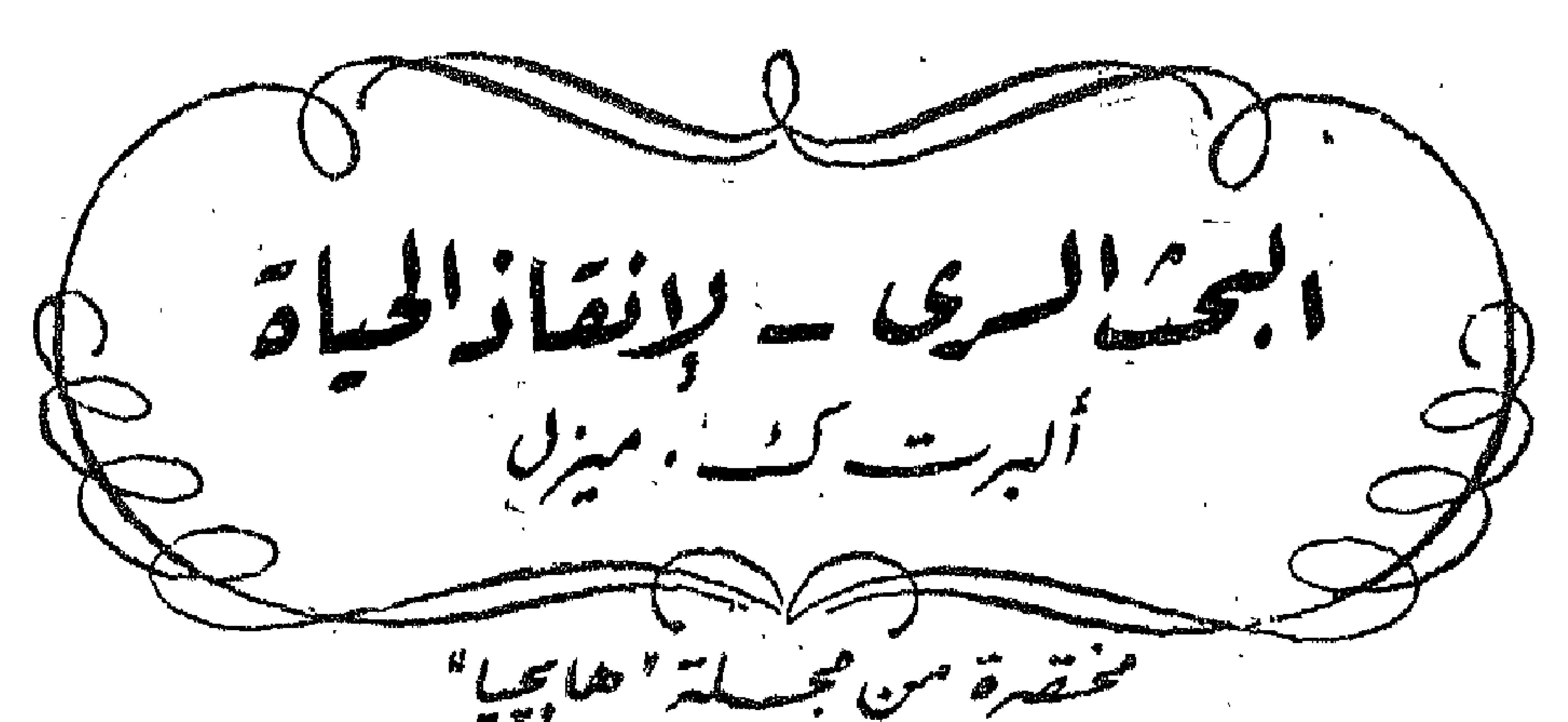
[مجلة « وماتز هوم كمبانيون »]

✲✲✲✲✲✲✲✲

إذا ارتكب الرجل خطأً هيّناً قال عنـه سائر الرجال : « ما أحمق هذا الرجل ! » ، فإذا ارتكبت المرأة خطأً هيناً قال الرجال : « ما أحمق النساء ! »

[هـ . جاكسون فى صحيفة « ديترويت نيوز »]

يستطيع الناس الآن أن ينتفعوا بنتائج البحث الطبي الذي أنقذ حياة ألوف من جرحى الحرب، ولكنه ظل مكتوماً طوال أيامها.



البحث السري لإنقاذ الحياة

ألبرت ك. ميزل

مختصرة من مجلة "هابجيا"

الذين يعرفون قصة العشرات من ألوف الكلاب التي يسّرت شفاء ألوف من جرحى الحلفاء في الحرب، كانوا فئة قليلة من المشتغلين بالبحث الطبي، فلم تتغنَّ الصحف بذكرها، ولم يؤذن للمصوّرين أن يدنوا من حظائرها المحروسة ادق حراسة، فقد أدت عملها وراء ستار كثيف من الكتمان.

والتكتم الذي أحاط بهذه التجارب التي أجريت على الحيوان، لم يكن يُراد به إخفاء الحقائق عن العدو، بل حماية مشروع نافع في إنقاذ حياة الناس، من سخط جماعة قوية منظمة من الناس، هي جماعة مقاومة تشريح الأحياء من الحيوان.

والوسائل الخفية التي توسل بها هؤلاء العلماء المجندون، كانت حرية أن تكون لهواً وتسلية، لو كان غرضهم أقلّ شأناً وأيسر خطراً مما كان. فقد اضطرت جماعة من كبار الأطباء أن يخلعوا ثياب الضباط حتى يجوبوا الريف في عربة نكرة سوداء ليطلبوا من أصدقائهم بضعة كلاب، ويأخذوا عليهم الميثاق بأن لا يبوحوا بالسر إلى أحد من الناس. وكان طلبُ الكلاب على هذا النمط يتم تحت جنح الليل، وكان الرجال يؤثرون الليالي الممطرة حتى لا ينفضح سر ما تحملهُ عرباتهم. وبينما كانت الكلاب الضالة تجمع في حظائر عامة، وتقدم مئات منها كل أسبوع (بموافقة خصوم تشريح الأحياء من الحيوان)، أخذت جماعة الأطباء تجمع رويداً رويداً عدداً يسيراً من الكلاب اللازمة للتجارب، ولولاها لاستحال القيام ببحث أسفر عن إنقاذ أرواح كثيرة.

وإنك لتتبين نفع هذا العمل ونجاحه في أمر الجندي روبرت هول أحد مشاة البحرية. فقد نقل من جزيرة أوكيناوا وفي مخه شظية من قنبلة، وجاهد الجراحون في ثلاثة مستشفيات ليدرأوا عنه نازلة الموت،

ولكنه كان مشفياً على الموت من التهاب سحاء المخ ومن خراجاته ، يوم وصل إلى مستشفى فى وشنطن على متن نقالة جوية .

فأخذه الأطباء بأسلوب جديد فى العلاج ، إذ حقنوه فى قناته الشوكية بمقادير ضخمة من البنسلين حتى يسرى العقار منها سرياناً حثيثاً إلى المخ ويتغلغل فيه . فلم تكد تنقضى ساعات حتى أفاق هول من غيبوبته ، وهدأت حشرجة الموت فى حلقه ، وهو اليوم فى أتم عافية . ولو لم تمتحن هذه الأساليب الطبية العجيبة الجديدة فى فئة قليلة من الحيوان ، لكان أمله فى الحياة ، وأمل مئات سواه ، أملا ضعيفاً جداً .

وقد نقل إلى نفس الجناح فى هذا المستشفى بحار فى الثانية والعشرين يدعى ساندرز ، فُلج شقه الأيمن كله من خراج ضخم فى المخ ، فحقن بالبنسلين فى جوف المخ بعد إجراء الجراحة اللازمة ، فغُلب الموت على أمره مرة أخرى .

وما كان أحد الرجلين يعلم أنه مدين بحياته للأساليب التى أتقنت فى معمل الأبحاث الخاص الذى اقيم لهذا الضرب من البحث الطبى ، بمبلغ مليونى ريال . ولو فكرا فى الأمر ، فلربما سألا أنفسهما كم زهقت قبلهما من أرواح ، حتى يستطيع الأطباء أن يعرفوا معرفة دقيقة ماالقدار اللازم من البنسلين ليحقن فى المخ ، حتى لا يقل عما ينبغى مثقال ذرة ولا يزيد . وحقيقة الأمر أن جراحى الجيش والأسطول ما عمدوا قط إلى التخبط فى إجراء التجارب على الناس ، فزملاؤهم من رجال البحث كفوهم ذلك العناء ، وحلوا لهم هذه المشكلة وغيرها بما أجروه من تجارب على عدد يسير من الكلاب .

وفى معركة إيوجيما عرّض الصيدلى البحار هارولد هيرش نفسه لنيران اليابانيين الحامية ، وخاطر بحياته لينقذ زميلا له سقط جريحاً . فمنح وسام البسالة ، ونقل من ذلك الشاطىء الدامى وذراعه اليسرى مهشمة . وللجراحين طرق مأثورة فى إصلاح أمر العضلات والشرايين الممزقة ، ولكن العصب الزندى والعصب الأوسط فى ذراع هيرش كانا مقطوعين كذلك ، فإذا لم يعالجا حتى ينموا نمواً سوياً ، فقد قضى عليه أن يظل حياته مشاول الذراع . ولو أصيب بمثل هذه الإصابة منذ خمس سنوات ، لما زاد أمله فى الشفاء على ٢٠ فى المئة ، ولكن ذراع هيرش استعادت حسها وحركتها ، لأن الجراحين استطاعوا أن يلفوا أطراف الأعصاب المقطوعة بعد أن وصلوها برقائق من معدن التنتالوم .

كان الأطباء يعرفون شيئاً عن هذا المعدن قبل نشوب الحرب ، ولكنهم لم يعرفوا

— إلا بعد تجارب كثيرة أجروها على الكلاب في تلك المعامل المخفورة — أن التنتالوم إذا ما لف حـول الأطراف الموصولة لعصب مقطوع، كان كالدرع تحمي الألياف الرقيقة من الأذى حتى تلتئم.

وقد جرى الجراحون في أوربة منـذ زمن طويل، على أن يتخذوا قطعاً من عظم الحيوان ليرمموا بها كسور الجمجمة في البشر، وأصابوا في ذلك نجاحاً كبيراً في أكثر الأحيان، ولكنهم كثيراً ما أخفقوا أيضاً، فلا تكاد تمضي أشهر حتى « يموت » العظم الدخيل، فيؤدي موتهُ إلى مضاعفات تقتضي علاجاً طويلا. واتخذوا للغرض نفسه أيضاً ألواحاً من الفضة وغيرها من المعادن، ولكنها كانت تسفر في كثير من الأحيان عن عواقب كريهة.

وقد رأى الجرّاحون في أمريكا، أن استعمال رقائق من التنتالوم، وهو عنصر ضعيف التفاعل مع سائر المواد، خليق أن يتبعهُ نمو العظم من حوله حتى تصير رقيقة المعدن جزءاً من عظم الجمجمة الحيّ، ولكن بين الرأي والثقة من النجاح في علاج الجرحى، هوّة لا يمكن أن يتخطوها إلا بإجراء التجارب على الحيوان. وإنك لترى اليوم في حظائر هـذه الجماعة من العلماء، كلاباً في جماجمها صفائح من التنتالوم، وما تسمعه من نباحها وما تراه من حسن صحتها، دليل على نجاح هذه التجارب. وتجد أيضاً مئات من الجنود الذين سرّحوا من الجيش والأسطول، بعد الانتفاع بصفائح التنتالوم في علاجهم، قد عادوا إلى مزاولة مألوف عملهم. ولو لم تتم لهم هذه الجراحة، لأقاموا في خطر دائم من فساد العظم وما يليه من جراحات متوالية، بل أيضاً في خطر من الموت في أحوال كثيرة.

وقد احتاج العلماء الباحثون إلى ثمانية عشر كلباً خدرت جميعها قبل إجراء التجارب لكي يحلوا بها مشكلة جراحة في الكلى طالما حيّرت الجراحين. وأصل المشكلة هو مدى الوقت الذي يظل فيه الجريح حياً إذا حبس الدم عن الكليتين. فأخذوا اثني عشر كلباً وحبسوا الدم عن كلاها مُدَداً متفاوتة أطولها ساعتان، فلم يمت كلب منها، ولكن الكلاب الستة التي حبس الدم عن كلاها أربع ساعات ماتت جميعاً. فثبت أنه إذا حبس الدم عن الكليتين أكثر من ثلاث ساعات أشرف صاحبهما على الخطر.

فصدر على التو أمرٌ إلى الفرق الطبيـة في جميع أرجاء الأرض أن تقدم المصابين في الكلى والظهر على سواهم من الجرحى، وأن ينقل هؤلاء المصابون إلى الجراحين خلال ثلاث ساعات. وكذلك انجلت التضحية

بحياة ستة كلاب عن وسيلة أنقذت مئات من الناس .

وكم قضت الغَشية التى تعقب الخطير من الجروح والحروق على مئات الألوف من الناس، وهى تحدث عجزاً يعوق أجهزة التنفس ودورة الدم عن أداء وظائفها . ويوم نشبت الحرب ، كانت أساليب نقل الدم ومصْله قد بلغت شأواً بعيداً من التقدم ، ولكن الأطباء كانوا لا يعرفون معرفة دقيقة ، قدر المقادير التى ينبغى استعمالها للتغلب على الغشية، فإذا قل المقدار كثيراً عما ينبغى لم يدفع الموت، وإذا زاد كثيراً عما ينبغى فقد تفضى الزيادة إلى الهلاك . فأجريت التجارب على الكلاب فظفر العلماء بحقائق دقيقة عن المقدار اللازم من المصل لكل كيلو من وزن الجسم ، وهذا المقدار يردّ عن الجريح أو المحروق عادية الغَشية .

وهذه التجارب نفسها مهدت لصنع مرهم عجيب انتفع به رجال الأسطول فى علاج الحروق الناشئة عن تفجر المواد المتفجرة فى القتال، فأنقذ ٢٠ ألف بحار تعرضوا للموت أو لتشويه وجوههم من جراء هذا التفجر.

وكثيراً ما تسفر تجارب الحيوان عن أساليب كثيرة جديدة ، فيضم بعضها إلى بعض وينتفع بها فى إنقاذ أرواح البشر . فقد اضطر جون بيرسون أن يقفز من الطابق الخامس حين شبت النار فى منزله ، فلما رفع عن الأرض كان مصاباً بكسر فى فقار الظهر السفلى ، وبكسور أخرى . وكان عظم الفقار المنكسر ضاغطاً على النخاع الشوكى ، فأصيب لساعته بشلل فى النصف الأسفل من بدنه وشمل الشلل الأمعاء والمثانة.

فسارعوا به إلى أحد المستشفيات، وحقن بالمصل والدم فى الوريد بطريقة أتقن تجريبها فى تلك المعامل السرّية ، ورفع الضغط عن نخاعه الشوكى ، ثم لف النخاع بغشاء مأخوذ من الحيوان لحمايته من الأذى — وهذه طريقة أخرى دفعتها تجارب الحيوان خلال الحرب دفعاً سريعاً حتى بلغت غاية الكمال. واستعملت مادة تدعى « زبد الفيبرين » لحقن الدم المنزوف — وهذا الرجل اليوم حى معافى .

ولو قوّمت المنافع التى أسفر عنها هذا البحث بما أنقذته من أرواح ، وما دفعته من حوادث بتر الأطراف ، وما حفظته من عقول مشرفة على الخبل ، لبلغت قيمتها مبلغاً عظيماً . أما اليوم ، فكلّ ما تعلمه الأطباء من هذه التجارب ، تراه مبذولاً للناس .

وقد تمت هذه المغانم الطبية جميعاً بعد تجارب أجريت على طائفة غير كبيرة من الحيوانات . فالعلماء السبعون الذين تولوا

هذا البحث كانوا يجرون تجاربهم كلّ سنة فى ٣٠ ألف فأر ، و٢٥٠٠ أرنب ، و١٥٠٠ قرداً ، و١٠٠٠ كلب ، و٤٥ شاة ، وعشرة خنازير ، ولم يشرَّح من هـذه الحيوانات سوى عدد يسير . وتسعة أعشار التجارب لا تقتضى أكثر من حقن الحيوان ، أو ما كان من قبيل الحقن . وأربعة فى المئة من التجارب أو أقل ، تقتضى موت الحيوان الذى تجرى التجربة عليه ، وفى هذه الحالة يعالج بالتخدير قبل التجربة .

والذين يروّجون لمقاومة تشريح الأحياء من الحيوان ، ويسعون إلى سن قوانين تقيد إجراء التجارب على الحيوان بقيود ثقيلة ، يحلو لهم أن يصوروا جماعات من الأطباء تستحلى التعذيب فتقضى معظم وقتها فى تعذيب الحيوان . والواقع أن العلماء يتخذون كل احتياط دقيق فى التجارب التى يجربونها فى الحيوان . وفى المعامل التى تمت فيها الأبحاث التى تقدم ذكرها . كانت القاعدة المتبعة بدقة : « أن يجعل الحيوان عاجزاً عن الشعور بأى ألم فى أثناء التجربة ، وأنه يظل كذلك حتى تبلغ تمامها » .

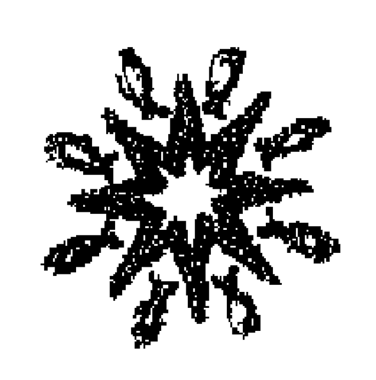
ولكن برغم هذا الاحتياط الدقيق ، وما ثبت من نفع التجارب فى الحيوان ، ترى خصوم تشريح الأحياء من الحيوان ماضين قدماً فى دعوتهم الحمقاء . ولم يجرؤ القائمون على هذه التجارب على إذاعة ما فعلوه ، وما كان أساساً لطائفة من أعظم انتصاراتهم الطبية ، إلا الآن بعد أن زالت ضرورات الحرب . ومع ذلك فقد أذاعوه هيابين . ويسأل العلماء : ترى أيستطيع أقوى منطق فى العالم أن يردّ دعوى الإنسانية الزائفة التى تنصبّ على رؤوس المشرعين كل عام ، وأن يكفّ ألسنة أصحابها المطالبين بتحريم تشريح الحيوان ، زاعمين أن إنقاذ حياة كلب خيرٌ من إنقاذ حياة ألوف من البشر ؟



جلس رجل فى مقصورة بدار الأوبرا فى حفلة يغنيها كاروزو . وكان فى هذه المقصورة شاب يغمغم بكل لحن من الألحان المشهورة فى الرواية . فقال الرجل : « أبله ! » . فقال الشاب متحمساً : « من تعنى ؟ » ، فقال الرجل : « أعنى هذا المغنى كاروزو ، فإنه يمنعنى من الاستمتاع بصوتك » .

فاتح قارة

سيرة هنرى م . ستانلى



لا يثير اليوم اسم الدكتور داڤيد لفنجستون إلا أصداء خافتة للضجة الصحفية الدولية التى كان هو مدارها وهو لايدرى قبل ستين سنة .

ولا يكاد اسم هنرى م . ستانلى الذى وجد لفنجستون الضائع فى أظلم مجاهل إفريقية ، يكون أشهر منه الآن . ومع ذلك كانت حياة ستانلى حافلة بالمغامرات التى تكاد تدخل فى باب الخيال ، والمتاعب والمساعى التى ليس لها فى التاريخ سوى نظائر قليلة .

وقد بوّأه عمله فى إفريقية ، بوصفه صحفياً ورائداً ، مكاناً رفيعاً بين عظماء المستكشفين الذين مزّقوا أستار الخفاء عن قارات الأرض المجهولة .

وقصة ستانلى تروى هنا فى قسمين : الأول يشتمل على صدر حياته كما سردها فى ترجمته لنفسه ، والثانى يشتمل على عثوره على لفنجستون كما رواه جاكوب واسرمان فى كتابه « بولا متارى » .

سيرة هنرى م . ستانلى

مختصرة عن ترجمته بقلمه

مات أبى بعد أن ولدت ببضعة أسابيع ولابد أنى كنت قد بلغت الثانية عشرة قبل أن أدرك أن الأم لاغنى عنها لكل طفل ، فقد ظللت إلى مابعد الرابعة يكفلنى أقارب زاهدون فىّ ، أو يُدْفع بى ، على كره منهم ، إلى من يتولى أمرى فى الخارج . ثم حمُلت فى عام ١٨٤٧ إلى الملجأ ، وهو بناء ضخم من الحجر ، فلما أوصدت علىّ بوابته الكبيرة ، وخفت صداه ، خامرنى للمرة الأولى شعور مخيف بالوحشة المطلقة .

وكان النظام صارماً فى تنشئة الأطفال فى ملجأ القديس أساف ، فقد كانت تحيط بنا جدران عالية ، وكان كل باب مترساً ، ونوقظ من النوم فى الساعة السادسة صباحا ، وفى الثامنة مساء نحبس فى حجرات النوم . وكان طعامنا الخبز والأرز والبطاطس والثريد — بعد أن يوزن بدقة .

وقد احتجت إلى زمن حتى أتعلم أن ليس للدموع قيمة فى ملجأ ، وكان جيمز فرانسيس المعلم الأقطع الذى ألقى بى فى يده الصارمة — رجلاً وحشى الطبع قد أفسدت خلقه المصائب ، ولم يكن رجلا يستطيع أن يفهم آلام الطفولة ، على أنه لم يحاول فهمها .

وكان أيسر خطأ فى المدرسة يجرّ ضربة لاسعة من المسطرة ، وسلسلة الأغلاط تعاقب بجلد كجلد المتشفىّ . ففى كل يوم كان التعساء الصغار يطرحون على البلاط وقد أصارهم الألم أكواماً ، أو يقفون وعيونهم تطرف وظهورهم مقوسة ليتلقوا ضربة المسطرة أو ركلة وحشية . وكان من بين واجباتنا كنس أرض الملاعب بعقشات هى أليق بالعمالقة منها بأطفال صغار ، ورفع الثلج عن الأرض ، واستظهار صفحات برمّتها فى المساء .

على أن هناك شيئين أنا مدين لهما بالشكر فى هذا المعهد العجيب ، فقد حرمت المحبة ونعمة الحياة فى بيتٍ ، ولكنى تعلمت أن أعرف الله بالإيمان ، وتعلمت القراءة ، فقد كنا جماعة دينية ، وكانت على رفوفنا مجموعة حسنة من الكتب الدينية . وكان مما يعزى النفس أن أعرف أن لى ربًّا فى السماء هو أرحم بى من أبى وأمىّ ، أتساوى بين يديه أنا وأقوى الأقوياء ، وإن كان لا أب لى ولا صديق أتجه إليه على وجه الأرض .

ولما بلغت الحادية عشرة كان بين أترابى غلام هو فى عينى كأنه ملك من حيث الحسن

وطيب النفس ، وكان فى مثل سنى واسمه ويللى روبرتس . فمرضت ذات يوم ، وبعد أسابيع تماثلت للشفاء ، فروّعتنى إشاعة تقول إن ويللى وربرتس مات فجأة . ولما كان الملجأ يفتح على الفناء الذى فيه معرض الجثث، فقد اقترح بعض الصبيان أن نذهب لننظر إليه ، ودفعتنا رغبة قوية فى الوقوف على الأمر ، فتسللنا إلى البيت ، فألفينا الجثة مطروحة على خشبة سوداء ، فأقدم غلام كان من أجرئنا قلباً ؟ ونحىّ الغطاء، فلما رأينا الوجه الأصفر وجموده المفزع تراجعنا عنه جميعاً،وجعلنا ننظر إليه ونحن كالمسحورين.

ثم نحى الغطاء عن بدنه ، فرأينا أن البدن مزرقّ وبه عشرات من الجُدَرِ والندوب السود ، وكانت نظرة واحدة حسبنا . فغطينا الجثة بسرعة وقفلنا راجعين ونحن على يقين من أن فرانسيس هو السبب فى موت ويللى .

وفى مايو سنة ١٨٥٦ وقعت حادثة غيرت حياتى ، وذلك أنه جيء بمنضدة جديدة ، فأحدث بها صبي غافل بعض النقر ، فتناول فرانسيس عصا وأقبل وهو يتلهب حنقاً على الفصل الأول ، وطلب أن يعرف الفاعل ، ولم يكن أحد يعرفه ، فقلنا ذلك .

فقال : « حسن . إذن سيجلد الفصل كله . فكوا الأزرار »

وبدأ من آخر الفصل ، فحدث ما هو مألوف من الصراخ والتلوى والبكاء ، وكنت أنا قد أصبحت التلميذ الأول فى المدرسة وتوليت أمر المدرسة بنجاح فى غيبة فرانسيس ، واكتسبت وأنا لا أدرى شعور بكرامة واحترام الذات ، فلما اقترب دورى شعرت بأنى أتشدد للمقاومة .

فصاح بغضب : « ماهذا ؟ ألم تتهيأ بعد ؟ اخلع ثيابك حالاً »

فصحت : « لن يحدث هذا مرة أخرى » وأدهشتنى جرأتى .

وما كادت هذه الألفاظ تندّ عنى ، حتى ألفيتنى أرفع فى الهواء من قفاى ، وأطرح على المقعد وأضرب فى بطنى ، ثم رفعت ثانية ورميت على المقعد رمية كادت تكسر ظهرى . ولما انحنى المعلم مرة أخرى ليمسك بى سددت إليه ركلة قوية ، فاتفق أن كسرت له نظارته فكادت تعميه شظاياها ، وتقهقر فاصطدم بمقعد ووقع وضرب رأسه بلاط الأرض فوثبت إلى قدمى ، وانتزعت عصاه ، وجعلت أضربه جزافاً حتى ثاب إلىّ إدراكى لما أنا فاعل ، إذ كان يتلقى الجلد بغير حراك .

حرت ماذا أصنع، فقد ذهب عنى الغضب، فجررته أنا والآخرون إلى غرفته الخاصة ، وبعد أن أقفلنا عليه الباب سألنى صديقى موسى همساً : هل مات ؟ فأفزعنى هذا

الخاطر الشنيع ، ووافقت على ما اقترح من الهرب ، ولكن قبل أن أفعل بعثت بغلام يستطلع حالة المعلم ، وتنفست الصعداء حين علمت أنه كان يغسل وجهه .

وفررنا من المدرسة على الفور أنا وموسى ، وتسلقنا جدار الحديقة ، وأسرعنا فى الفرار كأن وراءنا كلاباً تتعقب آثارنا .

التشرد

ومهما يكن من الثقة الغريرة التى كنت أنطوى عليها بأنى واجد وراء النطاق المسوّر أصدقاء يحتفسون بى ، فقد منيت بالخيبة العاجلة ، فما كدنا نتجاوز منطقة الباب حتى بصر بنا الأطفال فى ثياب الملجأ ، فتقحموا علينا بالاحتقار .

ولما أقبل الليل زحفنا إلى فرن جير مهجور ، وقد أضنانا التعب وداخلنا الهم وأفزعنا الظلام . وهكذا تقضت شر ليلة أتذكرها ، وطلعت الشمس فاستأنفنا الفرار ونحن جائعان بائسان ، وتغلبنا على حيائنا فاستجدينا بعض الخبز من سيدة عجوز بدينة رحيمة ، وفى تلك الليلة لُذْنا بكوم من الدريس .

وفى بكرة اليوم التالى وصلنا إلى دنباى حيث كان لموسى اقارب تلقونا بالترحاب ، وبعد أن استرحت ليلة مضيت وحدى إلى جدّى وهو صاحب مزرعة كبيرة وفى خفض من العيش ، وبعد أقل من ساعة كنت فى دوّار الضيعة بين الخيول والخنازير والإوز . فجرى حديث لاينسى .

وانى لأرى نفسى الآن واقفاً فى المطبخ وقبعتى فى يدى أمام رجل هرم صارم الوجه أحمره ، وهو مضطجع على كرسيه فى سراويل قصيرة ، يدخن من قصبة طويلة من الصلصال . وأتذكر أنه سألنى عمن عسى أن أكون وعما أبغى ، وبعد أن أفضيت إليه بحاجتى أخرج القصبة من فمه وأشار بها إلى الباب وقال : « حسن جداً ، يمكنك أن ترجع من حيث أتيت ، فما أستطيع أن أصنع لك شيئاً »

وزرت أقارب آخرين ، ولكن المتزوجين الذين لهم ملء بيت من الأطفال لايطيب لهم أن يعنّوا أنفسهم بالفقراء من ذوى القربى . وقضيت وقتاً وجيزاً فى ضيافة ابن عمى ، وهو مدرس شاب سرّه ما رأى من إقبالى على الدرس وتوفّرى عليه ، غير أن تلاميذ مدرسته عيرونى بأنى كنت نزيل ملجأ ، فسرعان ما صار ابن عمى يرغب فى التخلص منى .

وهكذا حدث أن عمة لى من ليفربول قدمت لزيارتنا ، فجازفت بالقول بأن زوجها — العم توم — يستطيع أن يوظفنى كاتباً فى شركة تأمين ، فتقرر على الفور أن أذهب ،

وأعطيتُ ثياباً لائقة وجنيها ، وأرسلت إلى ليفربول .

فألفيت العم توم خفيف الروح كثير الوعود وواثقاً من قدرته على أشياء كثيرة من أجلى ، ولكنه كان لا يكسب إلا جنيهاً واحداً فى الأسبوع يعول به أسرة كبيرة . ويمكن أن تعرف موضع الضعف فيه — إذا كان هذا موضع ضعف — من أنه ، وأسرته فى ضنك ، تسرّع فتحمل عبئى . ولم يتحقق التحاقى بوظيفة الكاتب المرجوة ، وأخيراً انتحت بى عمتى ماريا ناحية واقترضت الجنيه الذهب منى وقالت : « إن العم توم متعطل منذ أكثر من ثلاثة أسابيع ، وهو مكروب جداً ، ولابد لى من أن أهيىء له وجبة حسنة أو وجبتين لأقوّى قلبه وأشجعه » .

وفى صباح يوم الاثنين من الأسبوع التالى اقترضت بذلتى ورهنتها ، وفى يوم الاثنين التالى أخذت معطفى ، فعلمت أن الأسرة فى ضيق شديد .

ورحت أذرع الشوارع لعلى أجد أى عمل ، وأتأمل نوافذ الدكاكين عسى أن يكون فيها إعلان يقول «مطلوب غلام» ، وعرضت خدمتى عشرات من المرات فكان الجواب أنى صغير ، أو دقيق الجسم ، أو أنى لست خفيفاً رشيقاً ، أو أنى جئت بعد الأوان . ولكنه حدث ذات يوم بعد عشرين خيبة أن وجدت عملاً فى دكان سلع صغيرة متنوعة بشارع لندن بخمسة شلنات فى الأسبوع ، وكان عملى يبدأ من السابعة صباحاً وينتهى فى التاسعة مساء ، ويشمل الكنس وإعداد المصابيح وصقل النوافذ ، ورفع الشبابيك الثقيلة ووضعها .

فكنت أغادر البيت فى منتصف الساعة السابعة صباحاً ومعى وعاء فيه خبز وزبدة وقطعة صغيرة من اللحم البارد أتبلّغ بها إلى الساعة التاسعة مساء . وقد ظلت عاداتى منتظمة شهرين بفضل قوتى الريفية ، ولكن ثقل الشبابيك بعد ذلك هدّنى وأرقدنى أسبوعاً ، فاستخدم صاحب الدكان غلاماقوياً فى الثامنة عشرة بدلا منى ، وتلا ذلك شهر من ذَرْع الشوارع مرة أخرى أنشد عملاً .

فاتفق ذات يوم أنى كنت أؤدى مهمة لجزار فى الميناء ، فصعدت إلى السفينة وندرمير ومعى سلة من المؤن ورسالة إلى الربان . وفى هذه اللحظة قرر الحظ مصيرى ، فبينما كان الرجل يقرأ الرسالة كنت أنا أدير عينى بإعجاب فى أثاث الحجرة الوثير ، والمرايا المذهبة والطنف اللامعة . ثم شعرت فجأة بأن عينى الربان علىّ .

وقال : « أرى أنك معجب بغرفتى . فما قولك فى أن تعيش فيها ؟ »

فقلت وأنا فى دهشة : « سيدى ! »

« أقول ما رأيك فى أن تبحر على هذه السفينة ؟ »

« ولكنى لا أعرف شيئاً عن البحر ياسيدى » .

« هس ! ستتعلم بسرعة . هل تحب أن تبحر معنا تعمل عمل فرّاش ؟ سأعطيك خمسة ريالات فى الشهر ، وما يلزمك . وبعد ثلاثة أيام نبحر إلى نيو أورلينز » .

فتجمع فى لحظة كل ما كان يغيظنى ، وأوحى إلى أن أقول : « سأذهب معك يا سيدى إذا كنت ترى أنى أصلح » .

فى البحر

لبثت ثلاثة أيام فى السفينة وندرمير غافلاً لا أدرى شيئا ، ولكن فى صباح اليوم الرابع ردّنى إلى الحياة صوتٌ حادٌّ يصيح بعنف من الكوة : « أنت أيها — أيها البريطانى الصغير ، اطلع وامسح السطح أيها — وإلا نزلت وسلخت جلدك حياً » .

وكان عنف الصوت وقوته كافياً لإيقاظ الموتى ، فنسيت الدُّوار الذى كنت أعانيه وتعثرت صاعداً إلى السطح ، واختلست أقصر نظرة ممكنة إلى الوجه المضطرم ، وجه الرجل الذى بلغ به الغضب هذا المبلغ ، ثم رآنى أقبل على عملى بلا تلكؤ ، فأسرع إلى غلام آخر وقال له بتهكم لاذع : « والآن ياعزيزى هارى أرانى واثقاً أنك لا تريد أن تذوق طرف حذائى ، أم تُراك تريده ؟ »

فقال الغلام بسرعة : « كلا يا سيدى »

« إذن ألق بثقلك على هـذه المقشة . سامع ؟ »

« نعم ، نعم ، ياسيدى » .

واعتدل البحار ، ومضى إلى جماعة من النواتيّ يمسحون الأرض بهمة ويرسلون وابلاً من اللعنات فوق الرءوس ، فتساءلت وأنا أسمع هـذه اللعنات الفظيعة : إلى متى يكفّ الله عنهم نكاله ؟

ولما دقت أجراس المساء قيل لى إن سريرى سيكون مع سرير هارى فى غرفة الصبيان الذين هم تحت التمرين ، ولم يرد ذكر لتعيينى فرّاشاً . وكان زميلى هارى قد قام برحلة سابقة على السفينة وندرمير ، فلما أخبرته أنى عينت فرّاشاً أضحكه ذلك جداً وقال إن الربان مازال يلعب « لعبته القديمة » . « فى الرحلة الماضية كان معنا غلامان فرّاشان ، ولكننا ما كدنا نخرج إلى البحـــر حتى استاقهما الربان أمامه للعمل ، وانهال عليهما طول الرحلة إلى نيو أورلينز ، فلما رست السفينة بجانب الرصيف فرّا مخافة أن يلقيا ما هو أسوأ من هـذه المعاملة فى رحلة الإياب . ولابد أن يكون الربان قد خرج بخمسة وعشرين ريالا من أجورها » .

وكان النظام على السفينة وندرمير وحشياً، فكما أن فرانسيس كان يجلد ويضرب ويركل الأطفال الذين يلى أمرهم ، كذلك كان مساعدو الربان الأوغاد يصيحون ويشتمون ويضربون ويركلون الرجال التعساء الذين يعملون فى السفينة ، وكان من حسن حظى أنه فى الأسبوع الأول وجد ثلاثة ركاب مختبئين، فتحول إليهم غضب المساعدين، ولهذا لم تكن الرحلة غير محتملة .

وفى اليوم الثالث والخمسين من إبحار السفينة من ليفربول، دخلت ميناء نيوأورلينز، ولما سمح لنا بالنزول ذهبنا ـ أنا وهارى ـ نعدو على الرصيف فرحَين. وكان النسيم الرقيق المعطر وماامتزج به من روائح الدبس والسكر والبن الأخضر والقار ، ومرق اللحم وشراب الروم والويسكى — يفيض على كل ما أرى سحراً . وكان الناس الذين أمرّبهم يبدون لى أنبل من كل من رأيت، فقد كانت لأبدانهم خَطْرة فى المشى لم أعهدها فى قومى ، وكان تعبير وجوههم مخالفاً لكل ما ألفته ، وكدت رأسى بحثاً عن اسم لهذا الذى يخالف ما ألفت. وأنا أعرف الآن بطبيعة الحال أن الشعور بالمساواة والاستقلال هو الذى جعل كل وجه مختلفاً إلى هذا الحد عما رأيت فى ليفربول ، فهؤلاء الناس لايعرفون لهم سيداً ، وليس فى قلوبهم رهبة لمستخدميهم . وضاعف مساعدو الربان فى الميناء مجهودهم معى ،وأثقلوا الوطأة على بغير رحمة ليحملونى على ترك السفينة ، فيقتصد أصحابها المبلغ الزرىّ الذى أستحقه . وأخيراً لم أعد أطيق حياة الرقّ ، وفى الليلة التالية خرجت من السفينة ورقدت فى انتظار الصباح بين كوم من بالات القطن .

العمل

وبعد طلوع الشمس بقليل خرجت من هذا المكان ، ونفضت ماعلق بثيابى واتجهت إلى شارع تشابيتولاس . وحوالى الساعة السابعة بصرت برجل جالس أمام دكان يقرأ جريدة ، فظننته صاحب المكان الذى كان مكتوباً عليه « سبيك وماك كريرى — تجار جملة ووكلاء » . وبعد أن ألقيت نظرة أخرى على وجهه البشوش اجترأت فسألته : « بك حاجة إلى استخدام غلام يا سيدى ؟ »

فقال وهو يحدق فى وجهى : «غلام ؟ كلا لا أظن أن بى حاجة إلى غلام . من أين جئت ، فلست بأمريكى » .

فقلت : « جئت من ليفربول ياسيدى» ، وشرحت له أحوالى .

فقال: « وهكذا صرت بلا صديق فى بلد غريب ، وغايتك أن تشرع فى جمع ثروة . حسن ، وماذا تستطيع أن تعمل ؟ تعرف

القراءة ؟ أى كتاب هذا الذى فى جيبك ؟ »

« هو إنجيلى ، هدية من أسقفنا . أى نعم ياسيدى أعرف القراءة » . قلت هذا مزهواً .

ففتح الإنجيل وتبسم وهو يقرأ ما كتب عليه : « هدية إلى جون رولاندز من توماس فاولر شورت الدكتور فى اللاهوت وأسقف القديس آساف ، مكافأة على الهمة فى الدراسة وحسن السلوك العام » .

والتفت إلى وأشار إلى مقال فى الجريدة وقال : « اقرأ هذا » ففعلت ، وقرأتها كما قال قراءة صحيحة ولكن اللهجة غير أمريكية .

ثم سأل : « هل تحسن الكتابة ؟ » .

« نعم ياسيدى ، أكتب خطاً حسناً كما قيل لى » .

« إذن دعنى أراك تكتب على غرارة البن هذه نفس العنوان المكتوب على الغرارة القريبة منها ، وعندك الفرشة وعلبة الدهان »

فرسمت فى بضع ثوان حرف س فى مربع وبجانبه « ممفيس بولاية تنيسى » ورفعت إليه وجهى .

فقال : « كتابة حسنة . والآن اصنع بالغرارات الأخرى ما صنعت بهذه » وكان هناك نحو عشرين ، وبعد بضع دقائق كان العنوان عليها جميعاً . فصاح : « بديع ، لا خوف من أن يضل بُنّى ويضيع فى هذه المرة . سيحضر المستر سبيك بعد نحو ساعة ، وفى أثناء ذلك يحسن أن تجىء معى لتفطر » .

وقال لى إنه لما كان الأثر الأول فى النفس له شأن عظيم ، فإنه يحسن بى أن أحلق شعرى وأن أنفض الغبار عن ثيابى . وبعد أن أكلنا أخذنى إلى دكان حلاق ، فلما عدنا إلى محل سبيك وماك كريرى قال لى إن منظرى مُرْضٍ .

وبعد أن حيّ هذا الرجل المفضال المستر سبيك تحية مودّة ، تناول ذراعه وانتحى به ناحية وقضى بضع دقائق فى حديث معه ، ثم قال المستر سبيك وهو يبتسم :

« إنى أيها الفتى مستعد أن أستخدمك على سبيل التجربة أسبوعاً بخمسة ريالات » .

وناهيك بما شاع فى نفسى من الفرح والزهو حينئذ ! قبل بضع ساعات ليس إلا كنت كرجل معرّض لتهشيم رأسه فى أية لحظة ، والآن صرت حراً وارتقيت إلى مرتبة الإنسان .

وأقبلت على العمل بهمة ، وما لبث ما بدا من نشاطى وقوة ذاكرتى أن صار موضع التقدير ، فثبت فى عملى بخمسة وعشرين ريالا فى الشهر ، وهو مبلغ كان يبقى لى منه خمسة عشر ريالا فى الشهر بعد أن أؤدى أجر المسكن وتكاليف الطعام ، فهو كان ثروة فى نظرى .

وما انقضت بضعة أسابيع على مقامى

حتى تغيرت روحى وأخلاقى ، فقد نلت حرية القول والرأى ، وأمنت الاضطهاد واحتقار الطبقة التى انتمى إليها ، وصار ما ألقاه من معاملتى فى أمريكا كلها رهناً بشخصيتى أنا بغير نظرة إلى الأسرة أو الأصل ، فاستقام ظهرى وصارت خطواتى أوسع وأنا أستمتع بهذا الاستقلال الجديد. وبلغت الآن الخامسة عشرة ، فأنا لم يمض على تركى الملجأ سوى ثمانية عشر شهراً .

وعلمت من مستخدمى أن الرجل الذى كان أول من خاطبته — ذلك الذى أحسن إلى — سمسار يعمل فى التجارة بين الزراع على جانبى النهر وبين تجار نيو أورلينز ، واسمه ستانلى . وحوالى الأسبوع الرابع عاد المستر ستانلى يحمل طائفة جديدة من الطابات ، وهنأنى بتحسن مظهرى وأسر إلى أن المستر سبيك راض عنى أتم رضى ، وناولنى بطاقته ودعانى إلى الإفطار يوم الأحد التالى .

ولما كان يوم الأحد ألفيت البيت من الفخامة بحيث ترددت فى الدخول لولا أن المستر ستانلى كان فى انتظارى على الشرفة ، فمضى بى إلى حجرة رحيبة نفيسة الأثاث ، وقدمنى إلى سيدة ضئيلة وهنانة هى مثال الصقل والتهذيب، فكانت أول سيدة قابلتها ، ولكنه ما من شىء كان خليقاً أن يتغلب على حيائى مثل ترحيبها بى وتلطفها معى ، وأجلستنى بجانبها على أريكة ، فسرعان ما انطلقت أثرثر معها بذلاقة مدهشة .

وانتقلنا إلى غرفة الطعام فألفيت فيها نحو اثنى عشر فى مثل سن المستر ستانلى وزوجته ، ومرتبتهما الاجتماعية ، فوقع فى نفسى أن بينى وبينهم هوة تكاد تتعاظم المجتاز ، وكان حديثهم يدور على ما أفهم فى الأغلب ، ولا شك أنهم أدركوا من سلوكى وسنى أنى لست من طبقتهم ، غير أنهم شرفونى بأن أدخلونى فى زمرتهم . فكان إفطاراً لا ينسى .

وصرت بعد ذلك أقضى صباح كل أحد مع آل ستانلى ، وكانت السيدة ستانلى تبدو فى كل زيارة أشد عطفاً وحنواً ، وكان هو يزداد محبة أبوية ، وكانوا يأخذوننى إلى الكنيسة ويتعهدوننى بطرق أخرى شتى .

وكان صيف ١٨٥٩ غاية فى الوخامة ، فمرض المستر سبيك ذات يوم وبعد أربعة أيام توفى ، فبيع المحل بالمزاد ولكن الذى اشتراه احتفظ بى .

وبعد بضعة أسابيع ذهبت أزور المستر ستانلى على عادتى يوم الأحد ، فراعنى أن أسمع من وصيفتها أنها مريضة جداً وأن بها حاجة إلى عناية دائمة ، وكان المستر ستانلى مسافراً وتبينت فى وجه الوصيفة مرجريت آية

التعب والقلق، فرجوت منها أن تستعين بى، فقالت بعد تردد إنى قد أساعدها على الظفر بحظ من الراحة إذا أنا جلست عند الباب، فإذا سمعت أى صوت أو حركة فى الغرفة دعوتها ولزمت مكانى طول النهار والليل. ومع أنى دعوت مرجريت مراراً إلا أن ما كانت تختلسه من فترات الراحة أعانها على الاحتفاظ بقوتها. ووعدت وأنا عائد إلى عملى أن ألتمس إجازة بضعة أيام، وأن أعود إليها فى مدى ساعة، ولكن مستخدمى الجديد رأى أن يعد ما التمست من الإجازة بضعة أيام عملا متكراً، وقال لى بجفوة إنى أستطيع أن أذهب إذا شئت ولا أرجع، وقد كان هذا الرد الخشن لو سمعته قبل بضعة شهور خليقاً أن يجعلنى أتضاءل، ولكن جو نيو أورليانز ينضج شعور المرء بالاستقلال والكرامة، فأجبته بقولى:

« حسن جداً ياسيدى. تستطيع أن تطردنى على الفور! »

وصار وقتى كله بعد ذلك تحت تصرف مرجريت، وكانت المسز ستانلى المسكينة تزداد فى أثناء ذلك سوءاً، فلما كانت ليلة الأربعاء قال الطبيب إن حالتها خطرة. وقبيل منتصف الليل أومأت مرجريت إلى — وكان وجهها مكفهراً ممتقعاً — أن أدخل غرفة المريضة، فدخلت على أطراف أصابعى وقلبى يخفق خفقاناً مؤلماً، ورأيت سريراً عريضاً عليه أستار بيض من القطن الرقيق يرقد عليه جسمها النحيل، وكانت من الوهن والرقة بحيث خيل إلى أن من الوقاحة أن أكون قريباً منها وأنا فى هذه العافية العاتية.

وفتحت عينيها الرقيقتين وقالت بصوت كأنما يجىء من بعيد: « كن فتى طيباً والله يبارك فيك! » وبينما كنت أرهف أذنى لأسمع، اتسعت العينان وثبتتا، وغمرت محياها سكينة جميلة، فلما التفت لأنظر فى عينى مرجريت عرفت أن الأجل قد وافى.

ولبثت فترة لا أكاد أجعل بالى إلى شىء من فرط الأسى، ثم انقشعت السحابة شيئاً فشيئاً عن ذهنى، فذهبت أنشد عملا، غير أن الحظ لم يكن مؤاتياً فى هذه المرة. وبعد أسبوعين من السعى المخفق انحدرت إلى كل ضروب الأعمال، وبعد شهر من هذا العناء ركبت باخرة إلى سنت لويس حيث قدرت أن أجد المستر ستانلى.

على أنى علمت حين سألت عنه فى الفندق فى سنت لويس، أنه رجع إلى بيته قبل أسبوع وكان ما معى من المال قد قارب النفاد، ولكنى لحسن الحظ استطعت أن أعود إلى نيو أورليانز لقاء أن أعمل مساعداً للطباخ فى سفينة مسطحة لنقل الخشب.

وجدت أباً

وفى نيو أورلينز حيث وجدت المستر ستانلى كان استقباله كاستقبال الأب، حتى أن الولد الضال ما كان يمكن أن يشعر بأكثر من هذا السرور .

بين هذه الجملة الأخيرة ، وما تلا ذلك ، فترة ... ، وكنت لما أنا فيه من السرور الذى يملأ شعاب نفسى ، لا أبالى بغير اغتباطنا المتبادل . غير أن العاطفة مالبثت أن حركت أعمق أعماق نفسى ، فقد كان يقول بشىء من التأثر إن مستقبلى ينبغى أن يكون أمانة يحملها . ذلك أنه تأثر تأثراً بالغاً بما حدثته به مرجريت عن آخر ما كان وزوجته تجود بأنفاسها ، فعاد لايستطيع أن ينحّى عن تفكيره فيها، وقد سأل نفسه عما ترانى أصنع، ولما كان يعرف أنى غريب ولا صديق لى، فقد كان كل مايتخيله من حالى يحزنه، فاعتزم لما عاد إلى نيوأورلينز أن يبحث عنى وأن يكفلنى .

وكنت فى أحلامى قديماً كثيراً ماأتصور النشوة المستفادة من حب الأب ، كما أراه مُغدقاً على غيرى من الأطفال فأغبطهم عليه. والآن ، ومن حيث لا أحتسب ، تلقيت هذه الاستجابة لدعائى .

وقبل أن أدرك كل ما ينطوى عليه هذا التصريح من أثر فى حياتى، نهض، وضمنى إليه ضماً رقيقاً ، فتهافت وبكيت ، فقد كان هذا هو الحنو الوحيد الذى ذقت طعمه ، وما كانت القسوة مهما بلغ من أمرها لتسيل دموعى، ولكنها انهمرت لهذه الضمة الرقيقة .

وقال لى إنه لاولد له ، وأنه هو وزوجته كثيراً ما سألا الله أن يمنحهما نعمة الذرية، حتى أضناهما التمنى والانتظار، وكثيراً مافكر فيما أدار فى نفسه سؤالى له : «بك حاجة إلى غلام ياسيدى؟» ، فقد كان هذا السؤال كأنه إعراب عن مناه طول حياته : «وأنا أعدك أن أتخذك ابناً لى ، وأن أعدك لمستقبل تجارى، وستحمل فى المستقبل اسمى ، هنرى ستانلى » .

وقد بدأ العهد الذهبى فى حياتى من هذه اللحظة الجليلة .

ولاشك أن كثيراً من الناس قد عرفوا من وجهى المشرق وعينى الملتمعتين ، ونحن نجتاز الشوارع معاً ، أنى ممتلىء جذلاً ، وما استطعت إلا بجهد شديد أن أكبح نفسى عما تغرى به خفة الفرح مما لايليق .

وانقضى معظم اليوم فى تجهيزى لمنزلتى الجديدة ، فزودت بثياب جديدة أنيقة، وملابس تحتية، وأحذية فاخرة ، وأدوات زينة لا عهد لى بها ، مثل فرشة الأسنان وفرشة الأظافر .

ثم مضوا بى إلى حمام طويل فى إطار من الخشب الأسود ، وبينما كنت أعجب

بحسنه سمعت عن المزايا الكثيرة المسندة إلى استعماله اليومى ما أغرانى بحبه .

وغمرت نفسى فيه عصر ذلك اليوم كأنما كنت أريد أن أغسـل ما لوثنى به الفقر والشقاء . والأطفال الذين ينشأون فى بيوتهم يتبعون بالفطرة الآداب السائدة فيه ، ولم يكن لى بيت ، ولهـذا كان ينقصنى تلك اللباقات الصغيرة المستفادة من الحياة المنزلية ، غير أنى من اللحظة التى خرجت فيها من الحمام فى ثيابى الجديدة ، شرعت عفواً فى تلك التربية الأولية التى ستجعلنى جديراً بأن يرانى الناس إلى جانب رجل محترم .

ولبثنا سنتين تقريباً نتنقل بين نيوأورلينز ، وسنت لويس ، وسنسناتى ، ولويزفيل ، ولكنا كنا نقضى معظم وقتنا على فروع نهر المسيسيبى السفلى حيث كنا نقـوم بمهام رابحة فى معاملاتنا مع التجار المحليين . وقد اكتسبت فى هذه الأسفار التجارية معارف جغرافية تفوق كل ما كان يمكن أن تعلمنيه المدارس . وكان تذكرى للأسماء والوجوه والتفاصيل التجارية عظيم النفع لأبى .

وكنا حين غادرنا نيوأورلينز فى آخر ١٨٥٩ قد جلبنا معنا ملء حقيبة من الكتب المتخيرة ، وقيل لى إن علىّ أن أواصل الدرس كأنى فى مدرسة . ولم تكن رحلة على النهر مع رجل مثل أبى ، لتعوق تعلمى . بل لقد بلغ من حرصه على اغتنام الدقائق التى تمر خطفاً ، أن تسرى حرصه إلى فصرت مثله .

وكنا نقرأ معاً فى هذين العامين ، ونتدارس كتباً كثيرة ، فاتسعت معارفى حتى كأنما كنت مع مؤدب .

وكنت حريصاً على العمل بأيسر اقتراح له ، غير أنى أخشى أنى لم أكن فى كل وقت جديراً بما يولينى ، أو كفؤاً لما يرجو لى ، فقد كنت امرءاً لا أستطيع دائماً أن أفعل الواجب أو اللائق ، ولا بد أنى امتحنت صبره فى بعض الأحيان .

شريد ثانية

قابلنا فى سبتمبر ١٨٦٠ رجلا مديد القامة أنيقاً اسمه الماجور إنجهام ، على ظهر سفينة ذاهبة إلى نيوأورلينز . وقبل أن نبلغها ائتلفنا إلى حد جعله يدعونا إلى قضاء شهر معه فى ضيعته بأركنساس . ولما صرنا فى نيوأورلينز تلقى أبى رسالة من أخيه فى هافانا أقلقته وأحوجته إلى السفر لرؤيته ، فكانت دعوة الماجور إنجهام عوناً على تذليل الصعاب ، فأنا أذهب مع الماجور إنجهام ، وأبى يقوم برحلته ، ولو كنا اطلعنا على الغيب وعلمنا أن هـذا الفراق سيكون إلى الأبد لأحجم كلانا عنه ، غير أنا كنا قد بلغنا مفرق الطرق ونحن لا ندرى . . .

ولما آن لأبى أن يرحل رافقناه أنا والماجور إنجهام على باخرة مسافرة إلى هافانا ثم مضينا إلى أركنساس ، وصرت أتلقى من أبى الرسائل بانتظام ، ثم تلا ذلك شهر بعد شهر من الصمت التام . وقد بقيت حتى دخلنا فى شهر مارس ١٨٦١ أنتظر كل يوم أن أتلقى منه خبراً أو أن أراه مقبلا ولـكنه كان قد كتب علينا أن لا نلتقى مرة أخرى فقد مات فجأة فى ١٨٦١ — ولم أسمع بموته إلا بعد زمن طويل .

وفى أثناء ذلك وقعت حوادث مدهشة . فقد تحدى كثير من الولايات الجنوبية حكومة الولايات المتحدة وخرج من الاتحاد معظم الولايات التى تنتج القطن ، وفى أوليات شهر مايو انفصلت ولاية أركنساس أيضاً ، فتلهبت النفوس وفارت وسَرَت فىَّ هذه الحماسة الحربية ضد همج الشمال ، فتطوعت فى الجيش الجنوبى .

وكنت إلى ذلك الوقت قد تفاديت فى حياتى الأخطار الجسام ، ولـكن هذا التطوع كان غلطة فاحشة — الأولى من كثير غيرها . غير أنى كنت قد حمست كغيرى من أهل الجنوب وصرت « آكل نار » ، وأدار الثناء العام رءوسنا الصغيرة فصقلنا الأزرار النحاسية والأسلحة وما إليها من عدة القتال ، وطبعت صورنا على قطع من الصفيح ، على هيئات وحشية ، والمسدس فى يد ، والخنجر فى الأخرى ، والوجه عبوس منذر بالشر .

وبعد بضعة أسابيع اجتزنا شوارع عاصمة أركنساس للمرة الأخيرة ، وكانت تخفق فيها الأعلام ، والناس يصيحون ويهتفون ، ونحن نرفع عقائرنا بأغنية « ديكسى » والبنات يلوحن بمناديلهن ويبكين . وكان الضوء المنعكس عن بنادقنا اللامعة وسنانها المصقولة يخطف الأبصار ، والنسيم يعبث برايات الـكتائب والفصائل ونحن سائرون إلى مكان العرض « وعيوننا إلى أمام » .

ولو أن السيدات الصغيرات شهدننا حين وصلنا إلى المعسكر فى الهزيع الأول من تلك الليلة ، بعد مسيرة يومنا الأول ، لركبهن الخزْى إلى الأبد ، فقد كنا كمسع المتطوعين الجديدين ، موقرين بكثير مما ليس له نفع من العدة ، وقد أضنانا التعب ، واتسخنا . وفى أسبوعين اثنين مات خمسون بالتيفوس أو الملاريا ، أو من سوء الجراية . وبعد ثلاثة أسابيع كنا جميعاً مهددين بمثل ذلك.

على أننا تعودنا على الأيام لحم الخنزير المقدد والفول ، وتعلمنا الرضى بالنوم على وسادة من الحجر ، وتمرّسنا بالمصاعب والمناوشات ففقدت الحرب ثقل وطأتها شيئاً فشيئاً .

شيلو

وفى اليوم الثانى من إبريل ١٨٦٢ تلقينا أمراً بإعداد جرايات من الطعام المطبوخ تكفى ثلاثة أيام ، وبعد يومين زحفنا لنشترك فى معركة من أحمى المعارك التى دارت فى الغرب . ففى الساعة الرابعة صباحاً ، تركنا معسكرنا الرطب ، وتقدمنا للهجوم فى شيلو على جبهة طولها ثلاثة أميال .

وظل القتال دائراً طول الصباح ، ونحن نحشو بنادقنا العتيقة ونطلقها ، وأخيراً قوبلنا بوابل من الرصاص بلغ من شدته أن صدر إلينا الأمر بالاستتار . ولما نهضنا مرة أخرى لنواصل الهجوم — وكنت قد استترت أنا واثنى عشر آخرين وراء شجرة مقطوعة — أصابتنى ضربة عند معقد الحزام وطرحتنى أرضاً ، ولم يطل انطراحى إلا دقائق ثم أفقت من الصدمة ، فوجدت مشبك الحزام منقوراً نقراً عميقاً ، ولما كنت لا أرى فصيلتى فقد سرت شمالا فى الاتجاه الذى سارت فيه الكتيبة فوق أرض مغطاة بجثث القتلى وحطام الحرب . وكان ماشهدت فى تلك الأرض كتلة من الفظائع سأظل أذكرها كلما ذكر اسم شيلو .

وأدركت كتيبتى حوالى الساعة الأولى وألفيتها مشتبكة فى هجوم عنيف ، واستمرت المعركة بعد الظهر كله . وأخيراً حوالى الساعة الخامسة ، قمنا بهجمة فاستولينا على معسكر كبير ، وبعد أن طردنا منه العدو وأبعدناه عنه أمرنا بالارتداد ، وكنت قد استحلت إلى شخص يتحرك كالآلة وليس لى إلا هم واحد هو أن أنام .

واستيقظت قبل الفجر بساعة ، وقد أنعشنى الرقاد . وبعد أن أكلت وهنئت ، لحقت بكتيبتى عند طلوع النهار ، فأرسلت الكتائب على الفور تقريباً إلى خط القتال بسرعة ، فتقدمنا فى النظام الخاص بالمناوشات . وكنت أنشط مما كنت خليقاً أن أكون ، ولعل السبب أن الكبتن سميث قال لى : « والآن يا مستر ستانلى أرجو أن تخطو إلى الأمام بهمة ! » فجرح كرامتى أنى أفردت بهذه الملاحظة ، وتقدمت كالصاروخ ، وبعد قليل لاقينا أعداءنا وكانوا على مثل نظامنا ، وكانوا مقبلين بعزم صادق ، فألقينا بأنفسنا وراء الأشجار القريبة ، وأطلقنا نيراننا ، وحشونا البنادق ووثبنا إلى مخبأ آخر ، وأخيراً وجدت نفسى فى أرض خضراء مكشوفة ليس فيها شجرة أو أصل شجرة على مقربة منى ، ولمحت منخفضاً من الأرض على مسافة عشرين ياردة تقريباً أمامى ، فعدوت إليها وحشوت بندقيتى بسرعة ، وشغلت بأعدائنا ذوى الثياب الزرق حتى أنى لم ألتفت

إلى جماعتنا ذوى الثياب الرمادية . ولم أفكر قط فى التراجع ، ولكن لما كان الزرق يتقدمون ويدنون منا دنواً لا يدعو إلى الاطمئنان على الرغم من نيراننا ، فقد نهضت من مكمنى ، فأذهلنى أنى الوحيد من جماعتى فى خط من مقاتلة الزرق ! فقد تقهقر رفقائى ، وما سمعت بعد ذلك إلا قائلا يقول : « ألق بهذه البندقية والإرميتك برصاصة تنفذ من عظامك ! ألقها بسرعة ! »

وكان ستة من الزرق مسددين بنادقهم إلى ، فألقيت بندقيتى وأنا لا أكاد أملك نفسى . وأصبحت أسيراً لهمج الشمال !

أسير حرب

فى الثامن من إبريل نقلنا بباخرة إلى معسكر دوجلاس على مشارف شيكاغو . كان بناء هذا السجن الموحش غاصاً بالحشرات والهوام ، فما مضى أسبوع حتى فتك بجماعتنا من الأسرى ما يحيط بنا ، وعاثت فينا أمراض الكبد والدوسنتاريا والتيفوس ، فصارت جماعتنا تزداد كل يوم نقصاً ، وكانت المركبات تأتى كل صباح إلى المستشفى ودار الموتى لتحمل الجثث .

وأقبل على ، ذات يوم ، المستر شيبان أحد المشرفين على المعسكر وقال لى : إنى أستطيع إذا كنت قد مللت الأسر ، أن أنال حريتى بأن أكون جندياً من جنود الاتحاد ، فقلت : « كلا ! لا أستطيع أن أفعل هذا ! »

فأخذ يفيض فى الكلام على تفوق الشمال ، وأن الجنوب سيهزم لامحالة ، وأن مما يدعو إلى الرثاء أن يضحى الشبان بأرواحهم فى سبيل قضية كقضية الرقيق ، ولكنه كان من العبث أن يحاول التأثير فى من الناحية السياسية ، فقد كنت أجهل بالسياسة من أن يجدى معى ذلك ، ثم إن أبى الذى تبنانى كان من أبناء الجنوب ، وقد أعمانى جميله وشكران نعمته .

ولكن فى خلال ستة أسابيع اصطلحت عوامل أقوى من منطق المستر شيبان على نقض عزمى على إيثار البقاء أسيراً ، فقد خفت أن يعصف بعقلى تفشى الأمراض وأهوال السجن ، وأنى قد أظل فى الأسر سنوات ، فقبلت شروط الإفراج عنى ، والتحقت مع كثيرين غيرى من الأسرى بمدفعية الولايات المتحدة ، وفى الرابع من شهر يونية استعدت حريتى مرة أخرى .

ولكن بعد ثلاثة أيام من العمل فى الجيش استعلت على جراثيم السجن ، فلما وصلنا إلى معبر هاربر ، صرعتنى الدوسنتاريا والحمى فثقلت وأثبتت فسرحونى من الخدمة ، وأنا حطام .

وكانت حالتى من التضعضع أقصى ما يمكن أن يصير إليه إنسان خارج السجن ، ولم يكن معي مليم ، ولا كنت أدرى أين أقصد ، ولم يكن فى وسعى أن أمشى ثلاثمئة ياردة دون أن أقف وأفهق ، وكنت ، وأنا أرقد فى الليل كالخشب تحت أعين النجوم ، والحمى ترمضنى والنزف يلح على فى جوفى ، لا أحس برغبة فى مكافحة الموت ، ولكن كل فجر يطلع كان يجىء بومضة أمل تدفعنى إلى طلب القوت والمأوى. وكانت هاجرز تاون على مسافة أربعة وعشرين ميلا من معبر هاربر ، ولكن أسبوعاً تقضّى قبل أن أصل إلى ضيعة دون منتصف الطريق ، فرجوت صاحبها أن يأذن لى فى النزول بكوخ على أطرافها ، فجاءنى ببعض الدريس فانطرحت عليه وليس لى أدنى رغبة فى النهوض مرة أخرى. ومضت عدة أيام قبل أن أفيق ، فوجدت مرتبة تحتى ، وغطاءً من قطن مطروحاً على ظهرى ، واستعدت قوتى ببطء بفضل العطف المتواصل وغذاء اللبن .

وقد بقيت مع هذا المحسن الكريم إلى منتصف أغسطس وكان يعنى بى أحسن عناية ، ولما رحلت أبى إلا أن يدفع لى أجر الطريق إلى بلتيمور .

القسم الثانى

"بولا متـــارى" أو محطـم الصخور

تأليف جاكوب واسرمان

آخر ما كتبه ستانلى فى ترجمته لنفسه بين وأولى رحلاته الكشفية العظيمة فترة من حياته مستسرّة إلى حد ما ، وكل ما نستطيع أن نتبينه فى الظلام الذى اشتمل عليها هو أنه كان لا يستقر أبداً ، وأنه كان يجاهد مستئيساً ضد انقلاب الحظ عليه .

ففى خريف ١٨٦٢ كان يعمل أجيراً فى الحصاد ، ثم عمل فى البحر فى سفن شتى ، وتحطمت به سفينة تجاه برشلونة فسبح إلى الشاطىء وهو عريان ، وفى أغسطس ١٨٦٤ تطوع فى بحرية الولايات المتحدة، وفى ١٨٦٥ شهد الاستيلاء الدموى على « فورت فيشر » . وقد وصف هذا الهجوم فى رسائل رحبت بها الصحف ، وكانت تلك أول عمل صحفى له .

وبعد ذلك صار مراسلا صحفياً يجوب كرة الأرض ، ويروى وقائع الحروب والثورات ، ولفت إليه نظر جيمز جوردون

بنيت صاحب جريدة النيويورك هرالد .

فحدث ذات يوم فى ١٨٦٩ أن كان ستانلى يوافى الصحيفة بحوادث فتنة فى إسبانيا ، فاستدعاه إليه بنيت وكان فى باريس .

وقال بنيت : « عندى لك عمل مهم : هل تظن أن لفنجستون حى ؟ »

« لا أدرى يا سيدى »

« أنا أظن أنه حى ، وأن من الممكن الاهتداء إليه ، وسأبعث بك لتجده »

فلم يسع ستانلى إلا أن يتعجب لهذا الأمر الهادىء، بأن يذهب إلى قلب إفريقية المجهول باحثاً عن رجل يعتقد العالم كله أنه مات .

فسأل : « هل فكرت تفكيراً صحيحاً فى التكاليف الجسيمة ؟ »

« نعم . اسحب ألف جنيه الآن ، ومتى أنفقتها فاسحب ألفاً أخرى ، ثم ألفاً ثالثة، وهكذا ، ولكن اهتد إلى لفنجستون . هذا كل ما عليك : أن تهتدى إليه والله معك » .

وكان دافيد لفنجستون « الباحث عن النهر » كما كان أهالى إفريقية يسمونه ، طبيباً مبشراً أسكتلنديا يجوب إفريقية مرتاداً لها منذ ١٨٤٠، وكان رجلا جديراً بأعظم التقدير، فاز عمله الجرىء فى إفريقية بالإعجاب العام. وفى سنة ١٨٦٦ غادر زنجبار مغرباً إلى قلب القارة وقد خامرته فكرة الاهتداء إلى منابع النيل ، فلم يسمع عنه شىء بعد ذلك ، فقلق الناس عليه وجعلت الصحف تسأل بإلحاح : « ماذا جرى لدافيد لفنجستون ؟ »

على أن أصدقاء لفنجستون الذين كانوا يعتقدون أنه لا يزال حياً ما كانوا ليتصوروا ما صار إليه من سوء الحال فى ذلك الوقت. فقد كان فى السابعة والخمسين ، وقد ذهبت أسنانه ورثت ثيابه ، وألح عليه المرض ، وتكسر وهزل من الجوع ، وخذله وتخلى عنه أتباعه من الأهالى ، وقد بقى هذا الرجل المستفرد ، مقيما على غير أمل فى قرية يوجيجى على شاطىء بحيرة تنجنيقا يفصل ما بينه وبين البحر القبائل المقتتلة، وتسعمئة ميل من الأدغال .

لما وصل ستانلى إلى زنجبار — نقطة البداية فى بحثه التاريخى — لم يجد خبراً عن لفنجستون ، ولا رسالة من بنيت تؤيد الأمر الشفوى بأن يبحث عن الرحالة ، ولا حوالة مالية ، وكان كل ما بقى من المال مع هذا « المراسل الخاص » ٨٠ ريالا . غير أن تعليماته كانت أن « يجد لفنجستون » فلابد من العثور عليه ، وظاهره القنصل الأمريكى فاستطاع أن يسحب على حساب بنيت ما يكفى من المال لتجهيز القافلة : ٣١ من الأهالى المسلحين يسمون « الجنود » ، و١٥٣

من الحمالين . وفى فبراير ١٨٧١ خرج إلى أرض مجهولة كل الجهل ، على أنه كان له هدف — وإن كان غامضاً — هو المنطقة التى تلى بحيرة تنجنيقا ، حيث قيل قبل عامين فى رواية مبهمة أن الرائد هناك . وكان الطريق الذى سلكه (وهو لا يعد «طريقاً» إلا تخيلا ، والحقيقة أنه لم يكن يعدو أن يكون اتجاها قائماً على التخمين) لم تطأه قدم أوربى قط ، ولم تكن دولة أوربية قد فكرت فى استعمار هذه النواحى ، وكان معظم إفريقية الوسطى يمثل على الخرائط باللون الأبيض .

وفى الأيام الأولى من رحلته فى الفيافى الألغاز ، كانت تأخذه الحمى الاستوائية ، وكان مسها أحياناً من الشدة بحيث يضطر إلى الرقاد أياماً على الشبكة التى يتخذها للنوم وهو غير مستطيع حراكا ، ولا يكاد يعى شيئاً .

وكانت الصعاب التى اعترضت القافلة ، عند عبور الأنهار الكثيرة التى وسعت الأمطار لجتها، وعبابها ، مما لا يكاد يستطاع تخطيه ، وكانت تأخذ عليها الطريق أدغال ألفاف لا تخترق، وأشجار متشابكة متداخلة، وكانت الأشواك تحدث جراحاً عميقة فى الجلد ، وكان هناك نبات يكفى مسه لإحداث خراجات مؤلمة فى الخدين والجبين، وبطائح من الوحل منتثرة بين الحشائش التى تناهت فى الطول ، وكانت الأدغال المنخفضة تخرج منها أبخرة وبيلة لا تنقطع ، ولا تكاد القافلة تصعد إلى الأرض المرتفعة المكشوفة حتى يسهل على المغيرين رؤيتها ، فتتعرض للهجوم باستمرار، وكان خط الحمالين المتلوى يثير ضجة بين طيور لا عداد لها : حمائم خضر وغربان ودراج ذهبى وبجع ....

ثم كان هناك بلاء الحشرات ، ويصف ستانلى جموعاً لا تحصى من الزواحف جيوش جرارة من النمل الأسود والأبيض والأحمر تعيث فى الأرض الموبوءة، وحشرات من كل لون تمرح على الشجيرات والنباتات ، والبراغيث وذباب تسى تسى الذى لا يطاق ، وترى على العشب أعشاش زنابير صفر الرءوس لدغها كلدغ العقارب .

وكان يغيظه دائماً ويخنقه ما يراه بين أتباعه من الشك والخوف والقحة والتحايل ، وما يطلبه الطغاة الصغار على طريقة من «الجزية» . وقد تعلم المساومة الرفيقة مع الشيوخ الذين يتوعدونه ثم يؤدى «الجزية» خرزاً وقماشاً وأسلاكاً مما اشترى لهذا الغرض .

وكانت الأسابيع تمضى فيمرض الحمالون وينطرحون ، وكانت القافلة كلها تكف عن السير من فرط الإعياء . « وقد غاصت الحمير فى الأوحال كأنما سمرت فيها ، أو غرست » . وكانت أيام المطر المنهمر، والغابات التى يقطر منها الماء ويلفها الضباب ، والأرض المغمورة

وألفاف الأعشاب فى الماء الموحل وألواح الأشجار الهامدة والقصب — كل هذا كان كافياً لإفشاء الحمى » . ثم جعلت الحصبة تأخذ نصيبها . ويصف ستانلى حوادث موت شبيهة بما كان يحدث فى معارك الإسكندر .

وكان ستانلى بطبيعة الحال يسأل فى كل مكان عن أخبار لفنجستون ، ولكن السؤال كان إلى الآن عبثاً ، على أنه مضى على سننه . وفى أكتوبر قامت فتنة خطيرة ، أخمدها بجرأة بأن واجه ببندقية زعيمها باحتقار . وواصل السير فى الوهاد والمستنقعات ، وقال الدليل : « هنا اختفى عن الأنظار تاجر عربى وقافلته المؤلفة من ٣٥ من العبيد » . وجاء الليل وجلس رجال ستانلى حول النار ينتفضون من الحمى ، ولا يجترئون أن يناموا خوفاً من زئير الأسود ، غير ان ستانلى استطاع ببسالته وصدق عزمه أن يواصل السير على الرغم من المصاعب جميعاً . وكتب فى مذكراته يقول : « تحدثنى نفسى أنى سأجده ، سأجده ! سأجده ! حتى الألفاظ لها قوة الإلهام » .

وأخيراً فى صباح اليوم الثالث من نوفمبر التقت جماعة ستانلى بقافلة من يوجيجى ، فسأل عن الأخبار فتأثر تأثراً بالغاً حين قيل إن فى يوجيجى رجلا أبيض .

« رجل أبيض ؟ »

« نعم مثل السيد (أى ستانلى) وعلى وجهه شعر أبيض ، وهو مريض » .

« مرحى ! » بهذا يعلق ستانلى فى مذكراته « إنه لفنجستون . لا بد أن يكونه ، ولا يمكن أن يكون سواه ! » ودعا رجاله إلى السير السريع إلى يوجيجى ، وانطلق هذا المنقذ والصحفى فى الفيافى كالعاصفة .

وفى يوم الجمعة العاشر من نوفمبر ١٨٧١ وهو اليوم السادس والثلاثون بعد المئتين مذ غادر الساحل ، دخلت القافلة يوجيجى ، فأحاط بستانلى حشد صاخب ، وتقدم رجل أسود مديد القامة فى قميص أبيض طويل ، وقال إنه خادم لفنجستون . فأمره ستانلى بأن يعدو إلى سيده ، فانطلق الرسول وقميصه الأبيض يخفق خلفه كأنه راية يعبث بها النسيم . ومضى الركب فى طريقه وعلى الجانبين الجماهير تتلاغط ، وبلغ القوم السوق حيث لمح ستانلى شيخاً له سمت ، « ولما اقتربت منه لاحظت أنه حائل اللون متعب » . ثم كان الحوار الشهير — وجيزاً خالياً فى ظاهر الأمر من العاطفة حتى فى ساعة الفوز هذه .

« الدكتور لفنجستون فيما أظن ؟ »

« نعم » قالها لفنجستون بابتسامة رقيقة ، ورفع قبعته قليلا .

وكان ستانلى قد خلع خوذته التى يتقى بها الشمس ، فأعادها ، ورد لفنجستون قبعته

إلى راسه ، وتصافح الرجلان . ثم جرى حديث كشف عن شيء من التأثر ،

« إني أحمد الله الذي وفقني إلى رؤيتك يا دكتور » .

« وإني لشاكر له أني هنا لأرحب بك » .

وكان من فكاهات التاريخ أن يلتقي هذان الرجلان المختلفان في أقصى الأرض الموحشة ، وفي لحظة فريدة من تاريخ كل منهما — ستانلي الذي سيطبق الخافقين ذكره بفضل بحثه وما أثمره ، ولفنجستون حين تم عمله ودنا أجله .

ودهش لفنجستون حين شرح له ستانلي مهمته ، فما خطر قط على بال الرحالة الهرم أن العالم معنيّ بأمره أقل عناية .

وقضى الرجلان أربعة شهور معاً يرتادان المنطقة ، ولكن الشيخ الرائد أبى أن يصحب منقذه إلى أوربة كتذكار حيّ لتوفيقه ، وكان يعلم أن منيّته قريبة ، ومن الأوفق له أن يلقى أجله في إفريقية الوسطى حيث قام بعمله . إن إفريقية أحق به ، وفي إفريقية آلى أن يلاقي الموت .

وهكذا — في مارس ١٨٧٢ ، بدأ ستانلي رحلة الإياب إلى الشاطىء ، وقد شق عليه أن يفارق لفنجستون ، وكان كلاهما يعرف أنه لن يرى صاحبه مرة أخرى ، وبعد شهرين وصل ستانلي إلى زنجبار ، ومات لفنجستون بعد ثمانية عشر شهراً على شاطىء بحيرة بانجيولو .

إن الذين هم من طراز ستانلي لا بد أن يؤدوا ثمن النجاح نقداً من خيبة الأمل ، فما بلغ ستانلي إنجلترا حتى قوبلت أقواله في كل مكان بالارتياب ، وكذبه الناس ولاموه وعاملوه بازدراء ، وتولى رئيس الجمعية الجغرافية زعامة هذه الحملة عليه ، نافياً أن ستانلي يمكن أن يكون قد قابل لفنجستون . وكان ستانلي قد جاء معه برسائل من لفنجستون غير أنه اتهم بتزويرها عمداً . وهبت على هذا الصحفي وأساطيره عن إفريقية رياح باردة من جمعيات علمية شتى ، وكانت الجمعيات والصحافة تؤثر أن تعتقد أن دافيد لفنجستون ذهب إلى غير رجعة ، على أن تصدق أن هذا الصحفي الأمريكي قد اهتدى إليه — لأنه لا من علماء الجغرافية ولا من الخبراء !

ثم كان اجتماع للقسم الجغرافي من الجمعية البريطانية ، ووقف ستانلي أمام جمع من ثلاثة آلاف فيهم طائفة من كبار العلماء الجغرافيين يدافع عن نفسه كأنه متهم بجريمة ، وقال رئيس الجلسة بلهجة لاذعة إنهم مجتمعون هنا ليسمعوا حقائق صادقة لا ليصغوا إلى حكايات مثيرة . فرد ستانلي بثناء حار على لفنجستون ، وبمقارنة أليمة بين الجغرافي المضطجع على كرسيه الذي يضيق من اعتقاداته

فيتحدث بلهجة الجزم عن إفريقية المجهولة ، وبين ذلك الشيخ الباسل الذى قضى سنوات هناك ينشد الحقيقة بين أعداء مستوحشين على الفطرة . وقد استولت هذه الخطبة على القلوب ، ولما حدث بعد ذلك بقليل أن اعترفت أسرة لفنجستون بصحة الرسائل ، لاذ النقاد بالصمت ، وبعثت إليه الملكة فيكتوريا برسالة تهنئه فيها ، وبعلبة نشوق ذهبية مرصعة بالماس .

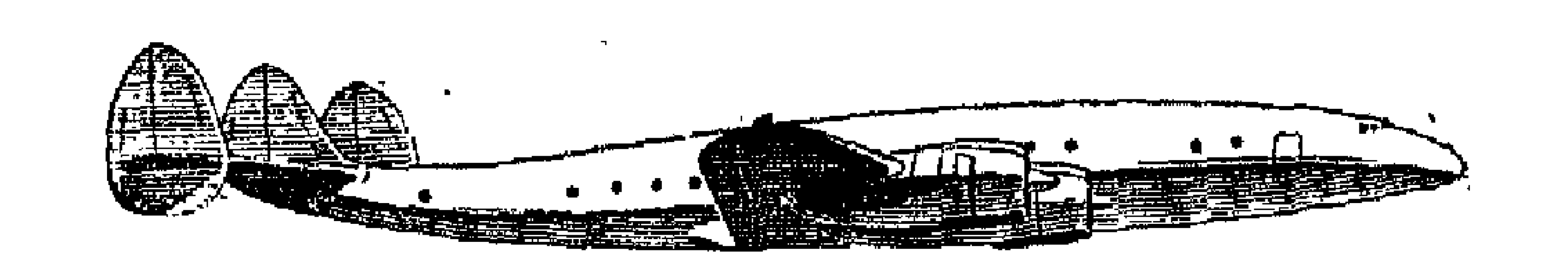
ولكن الشهرة كانت قد ثقلت وطأتها عليه ، وصارت المدنية فى نظره أكذوبة ، وأصبح « قلب إفريقية الكبير » هو الذى يجرى الدماء فى عروقه ، وصورة إفريقية لا تبرح عينيه — جدتها الرائعة ، ووحشتها العظيمة ، وجلال مناظرها ، وفتنة ألوانها ، وشفوف نورها كالأحلام ، وأبعادها المترامية التى تورث النفس قلقاً لذيذاً ، كأن عليها صبغة رحلة إلى كوكب غير كوكبنا . فأغراه هذا السحر بتجديد السعى لحل ألغازها .

وراح ستانلى بعد ذلك يصنع تاريخاً لا يعرف عنه هذا الجيل شيئاً ، حتى أن مصاعب رحلاته تكاد تكون مجهولة أو منسية . ولم يكن اهتداؤه إلى لفنجستون إلا فاتحة كشوف غيرت وجه نصف قارة ، مادياً واقتصادياً ، وكان تتبعه لمنابع الكونجو من أعظم أعمال الارتياد . وحسم كشفه عن منابع النيل فى بحيرة ألبرت خلافاً قديماً .

وكان هنرى ستانلى آخر العظماء من أهل الخطار — غازياً تلكأ به الزمن ، واسمه يجاور اسم كولمب كمستكشف ، وقد مضت قرون بعد كولمب قبل أن ترسم أنهار أمريكا وجبالها ، وتعمر أرضها الشاسعة بالسكان ، ولكن خريطة إفريقية الاستوائية غطيت بالأسماء فى زمن ستانلى نفسه ، وقسمت مجاهلها إلى مستعمرات بريطانية وفرنسية وألمانية وبرتغالية .

ولعله كان من المناسب ، حين مات ، أن يأبى عليه أن يدفن فى وستمنستر ذلك المجتمع الذى زج به فى الملجأ فى صباه ، وحقر أعماله وهو رجل . ولا يحمل الحجر المنصوب فوق قبره فى إقليم سارى إلا هذه العبارة : « هنرى مورتن ستانلى — ١٨٤١ — ١٩٠٤ » مع اسمه الإفريقى « بولامتارى » ثم هذه الكلمة المفردة « إفريقية » .

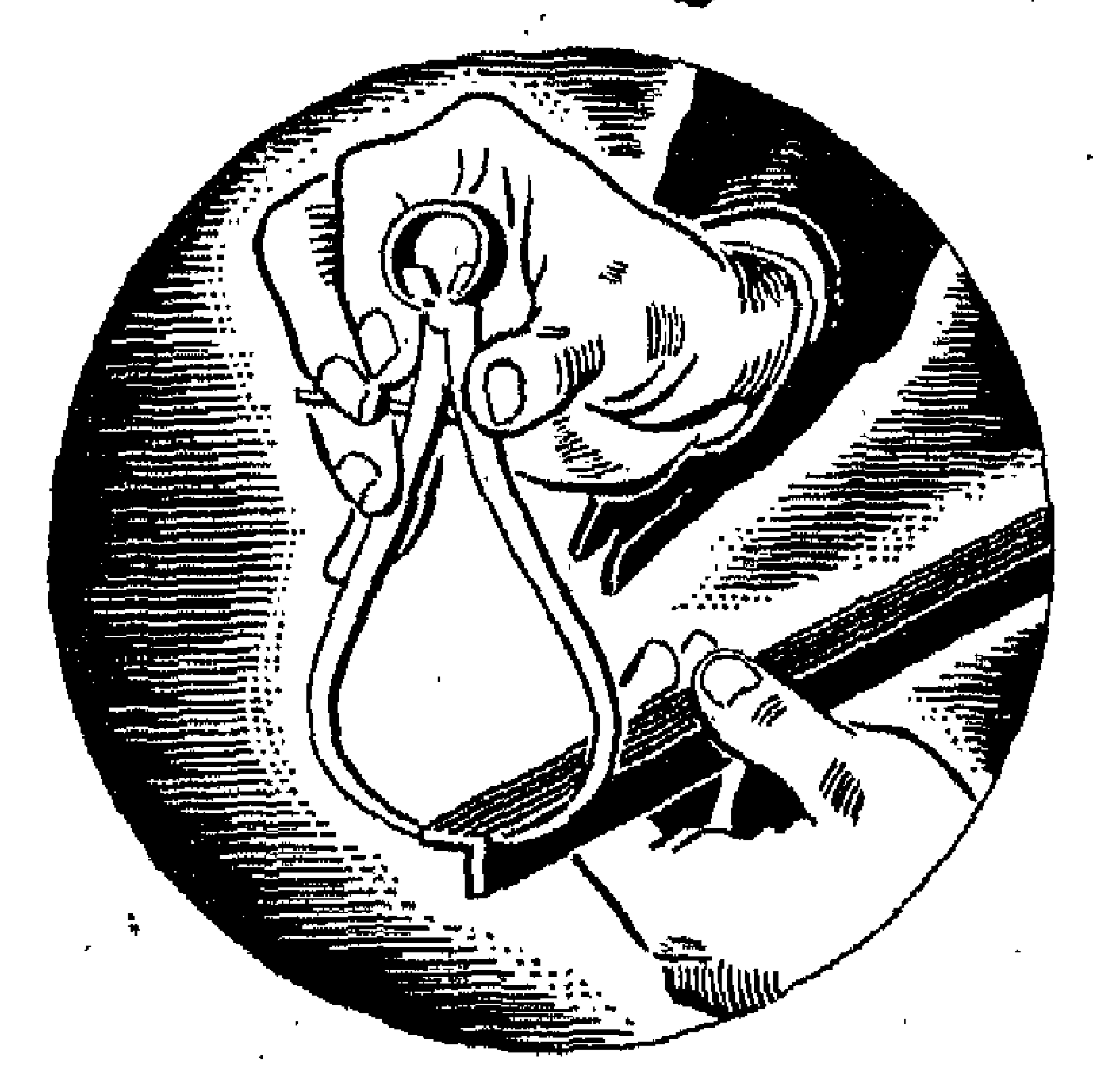


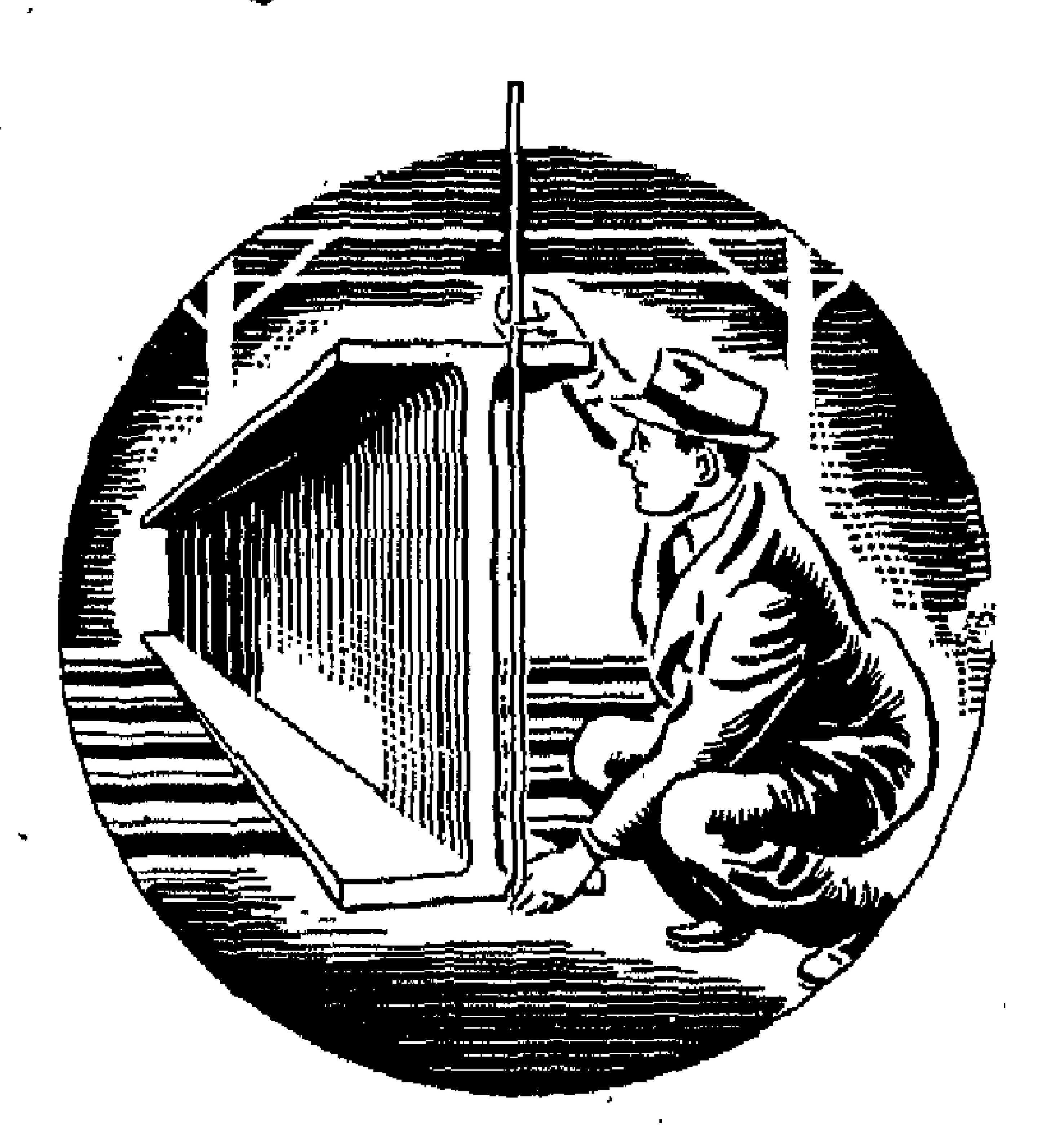




شحنة من الفتنة
من مصانع « كاسونز »
بمانشستر (إنجلترا) خرجت
أحدث الروائع فى أنواع
«أحمر الشفاه» البريطانية فى
خمسة ألوان جديدة . وقد
روعى فى صنعها أن تكون
ممتازة فى مادتها ولونها ،
فهى تحتل اليوم مكان الصدارة
فى صالونات التجميل فى
جميع أنحاء العالم .
Cussons أحمر شفاه

صلب للبناء





إن البنائين فى جميع أنحاء العالم يعتمدون على الصلب الذى تنتجه شركة « بثلهيم » والمتاح فى أشكال مختلفة مثل الصلب الدارج وصلب البناء واسع الأطراف وصلب القنوات والزوايا .

إن شركة بثلهيم التى تعد من أكبر شركات العالم لإنتاج الصلب . تقدم مجموعة كاملة من المنتجات الفولاذية منها الأسلاك والأنابيب والرقائق والصفائح الفولاذية والفولاذ الخاص بالسكك الحديدية والطرق الزراعية الخ .

إن مصنع « سباروز بوينت » العظيم التابع لشركة « بثلهيم » ، هو مصنع الصلب الوحيد فى الولايات المتحدة ، المشيد على حافة ماء المد . فالرسائل المعدة للأصدار تنقل رأساً من المصنع إلى السفينة فتقل بذلك الأضرار المحتملة التى تصيب المنتجات من جراء تكرار مرات الشحن .

Bethlehem Steel Export Corporation

25 BROADWAY, NEW YORK, U.S.A.



الوكلاء فى القطر المصرى : شركة الدلتا التجارية ش . م . م .

فى العراق : ستانلى شعشوعة — فى فلسطين : رافائيل ملتز

فى سوريا ولبنان : مشيل صحناوى وولده

82E

فى طريقها إلى الشرق الأوسط



إن منتجات شركة « وليامز » المشهورة فى جميع أرجاء العالم ، مصنوعة بمهارة خاصة تنتجها خبرة مئة عام فى صناعة أرقى مستحضرات الزينة للرجال . وسيكون فى وسعك أن تنعم بأفخر مستحضرات الحلاقة حالما تعود العلاقات التجارية إلى سابق عهدها . وحينئذ ستجد منتجات « وليامز » فى أشهر محلات الشرق الأوسط . ويمكنك أن تثق من حصولك على أفضل حلاقة وأكثرها راحة حين تستعمل :

كريم وليامز الفاخر للحلاقة : يحتوى على مادة « لانولين » الملطفة التى تتيح لك حلاقة ناعمة دون أن يتهيج الجلد .

أكوا ڤلڤا : أشهر لوسيون فى العالم للاستعمال بعد الحلاقة . مبرد ، منعش ، نقى ، ذكى الرائحة .

كريم جليدر وكريم إسكواير للحلاقة بدون فرشاة : خاليان من المواد الشحمية أو اللزجة ، مصنوعان خصيصاً بحيث يتيحان للذين يحلقون كل يوم ، حلاقة ناعمة دون أن يلتهب الجلد .

قلم صابون وليامز للحلاقة : مشهور برغوته السخية ، الندية ، اقتصادى للغاية يخدمك ستة أشهر يعطيك خلالها أنعم الحلاقات وأكثرها راحة .

The J. B. Williams Co. GLASTONBURY, CONN., U.S.A

شركة ج ب . وليامز ، جلاستونبرى ، كونيكتيكت ، الولايات المتحدة

منتجو مستحضرات الحلاقة الفاخرة منذ أكثر من ١٠٠ سنة

حيث تنضح الأقــلام العــادية
ترى إيفرشارب هذا مستمرًا فى كتابته !



إن الخزان السحرى يمنع رشح الحبر وتسربه فى الطائرة المحلقة فى الجو — وعلى الأرض أيضاً بالطبع !

فى الطبقات العالية تنضح الأقلام العادية وينتثر حبرها حتى ليخيل للمرء أنها « انفجرت » . أما قلم « إيفرشارپ » المزود بخزان سحرى لمنع تسرب الحبر ورشحه ، فيستمر فى الكتابة على أحسن وجه . وكما يكتب « إيفر شارپ » فى الطائرة كذلك يكتب على اليابسة . . . بطلاقة ويسر . . . حتى آخر نقطة من الحبر . . . كما أنه يكتب عدداً أكبر من الكلمات بين تعبئة وتعبئة !

أما ريشته السحرية الجديدة فقد بلغت من النعومة حداً يجعلك تعجز عن سماع صريرها وهى تكتب .

وهناك قرينه قلم الرصاص « إيفرشارپ » ، وزن الريشة ، فيمتاز بزره السحرى ذى الطلقات . ويكفى ضغط بسيط على زره ليظهر الرصاص تماماً على طريقة المدفع الرشاش !

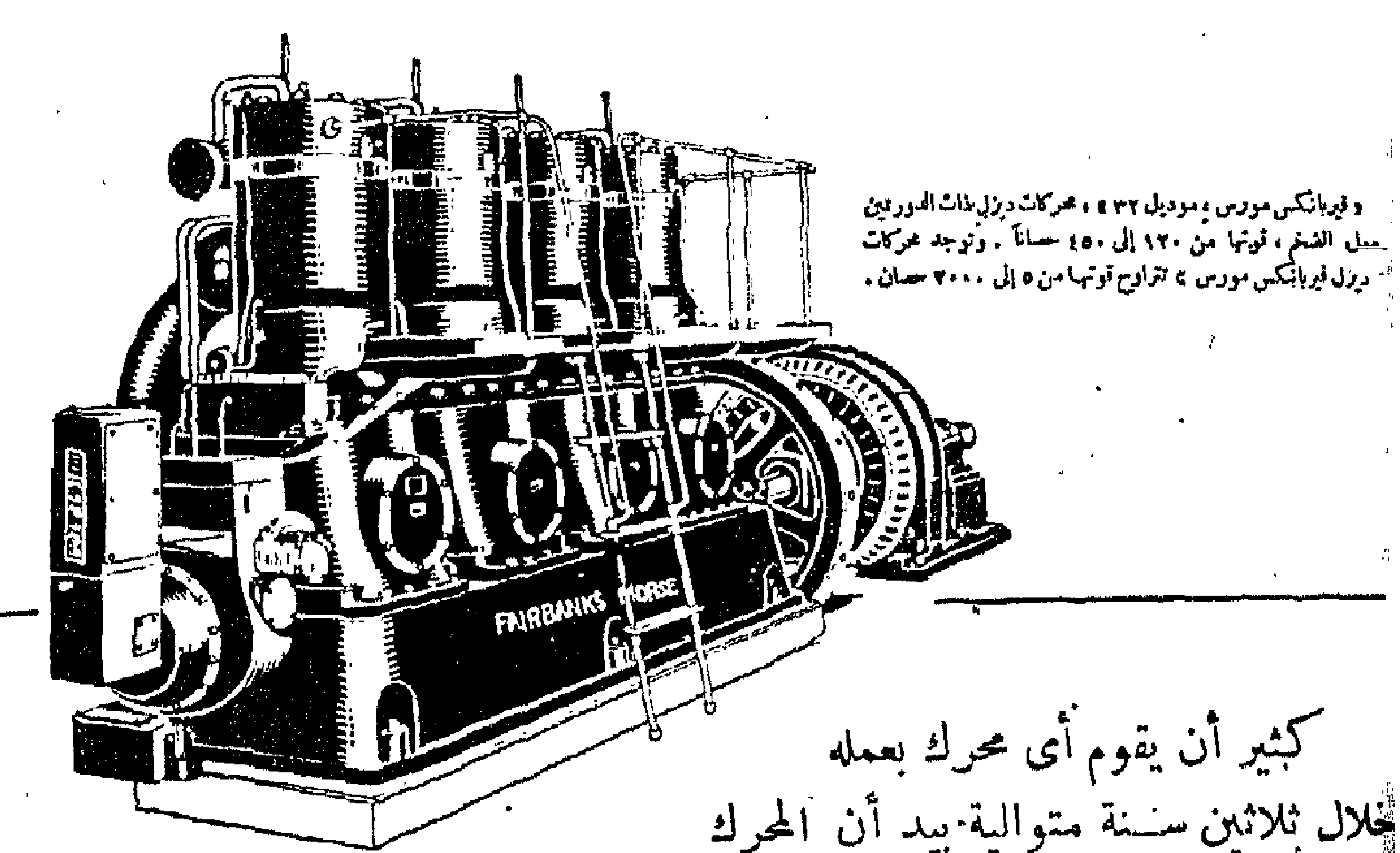
EVERSHARP, INC., CHICAGO, U.S.A.

وعلاوة على كل ذلك فإن خدمة القلمين مضمونة ، لا عدداً معيناً من السنين ، ولا مدى الحيـاة وحسب بل هو ضمان للأبد !

غطاء ذهبى - قصبة من الجواهر على مختلف الألوان الممتازة

قدم إيفرشارب ... تكون قدمت أبدع هـدية !

عطل أقل بفضل هذا الدّيزل



و فيربانكس مورس ، موديل ٣٢ ، ، محركات ديزل ذات الدورتين
حمل الشحم ، قوتها من ١٢٠ إلى ٤٥٠ حصاناً . وتوجد محركات
ديزل فيربانكس مورس ، تتراوح قوتها من ٥ إلى ٢٠٠٠ حصان .

كثير أن يقوم أى محرك بعمله
خلال ثلاثين سنة متوالية بيد أن المحرك
المبين هنا أدى هذا النوع من الخدمة وقام بهذا
الضرب من العمل مرات عديدة ، فى أحوال عديدة ، ولمؤسسات عديدة .
سواء كنت تتأهب لمشروع بلدى ، أو صناعى ، أو زراعى يلزمه القوة
المحركة فهيء لنفسك أقصى ضمان وأقل نفقة باستشارة وكيل « فيربانكس
مورس » لتظفر بالمحركات التى تعطيك هذه الخدمة القياسية التى قام عليها البرهان!

شركة شمال شرق أفريقيا التجارية القاهرة ـ الاسكندرية	ف . ا . كتانه دمشق بيروت ــ طهران	ف . ا . كتانه وشركاه لميتد بغداد	چوزيف ج . روزچولد . تل أبيب (مضخات التربين ذات التشحيم المائى)	م . برجر . تل أبيب (جميع المنتجات ما عدا مضخات التربين ذات التشحيم المائى)

Fairbanks, Morse & Co., Inc. سنة ١٨٣٠

إسم جدير بأن تتذكره

Export Division
80 Broad St. New York 4, U. S. A.

محركات ديزل . محركات كهربائية . مولدات . مضخات .
أجهزة مائية . معدات المزارع . مطاحن هوائية . مقاييس .
معدات السكك الحديدية .

امتياز قديم مأثور في الراديو والأجهزة الأليكترونية

إن علامة RCA التجارية ترمز إلى خير أجهزة الراديو والمعدات الأليكترونية التي تملأ النفس بروعتها ومزاياها — وهي ثمرة الخبرة والتجربة التي كسبتها شركة « راديو كوربوريشن أوف أمريكا » خلال ٣٦ سنة قضتها في الأبحاث الفنية والهندسية . إن RCA رمز يدل على اختيار قديم مأثور . . تراه بيناً في إقبال الزبائن على منتجات RCA وحرصهم على اقتنائها .

وشركة RCA تفوق كل شركة أخرى في مالها من قدم راسخة وأصل ثابت في كل ميدان من ميادين الراديو . . . والصناعة الأليكترونية . . . والتلفزيون . . . والصمامات . . . والأسطوانات . . . والإذاعة . . . وأجهزة الصوت في المدارس والمصانع . . . وتسجيل الصوت على الأفلام . . . وآلات عرض الأفلام المسجلة ، وكثير غيرها من المنتجات المماثلة .

والمنتجات التي عليها علامة RCA يراها كل مشتر حصيف في جميع أرجاء العالم أفضل المنتجات .



RCA INTERNATIONAL DIVISION

RADIO CORPORATION of AMERICA

745 FIFTH AVE., NEW YORK, N.Y., U.S.A.

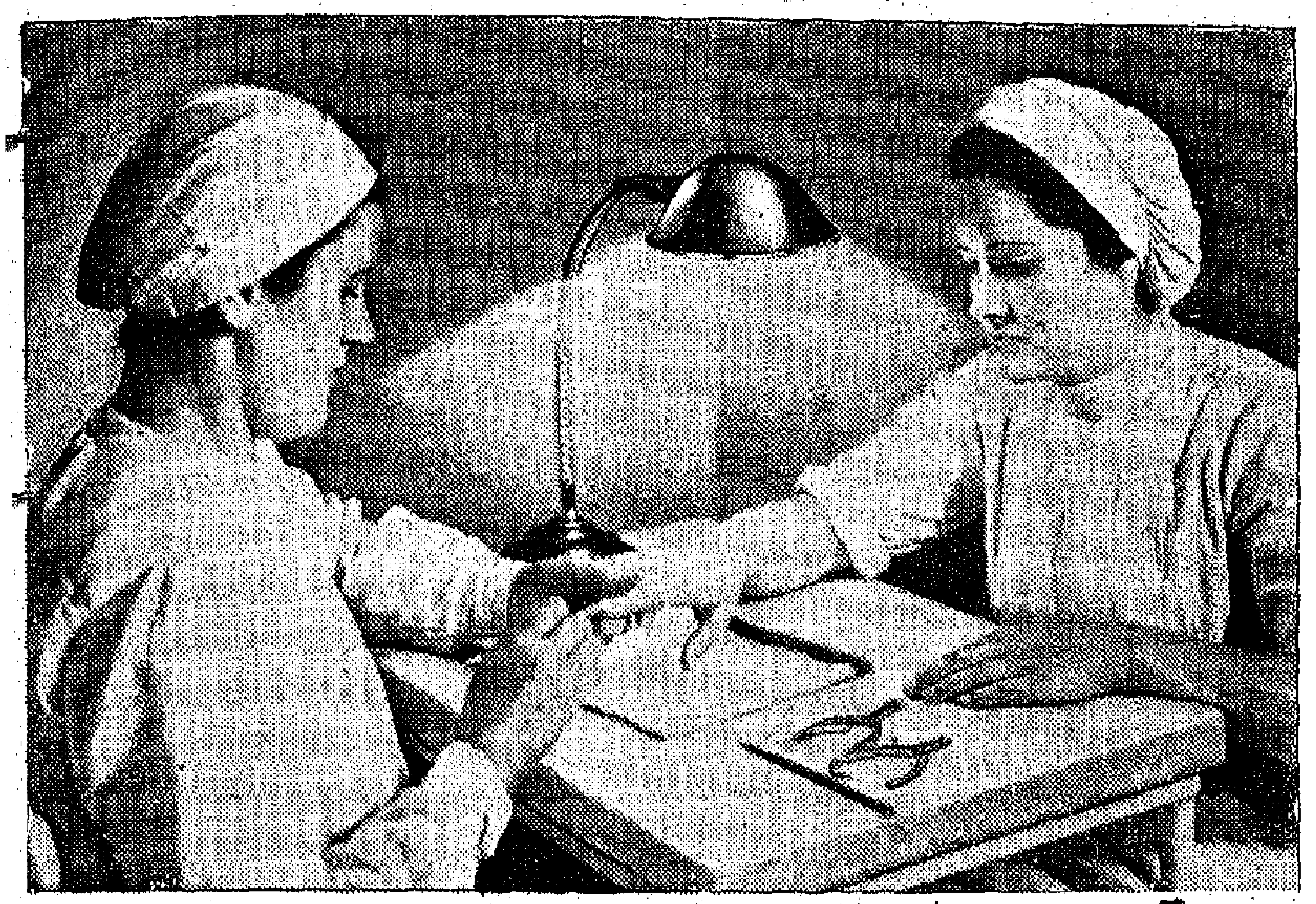
GILLETTE BLADE

MADE IN ENGLAND

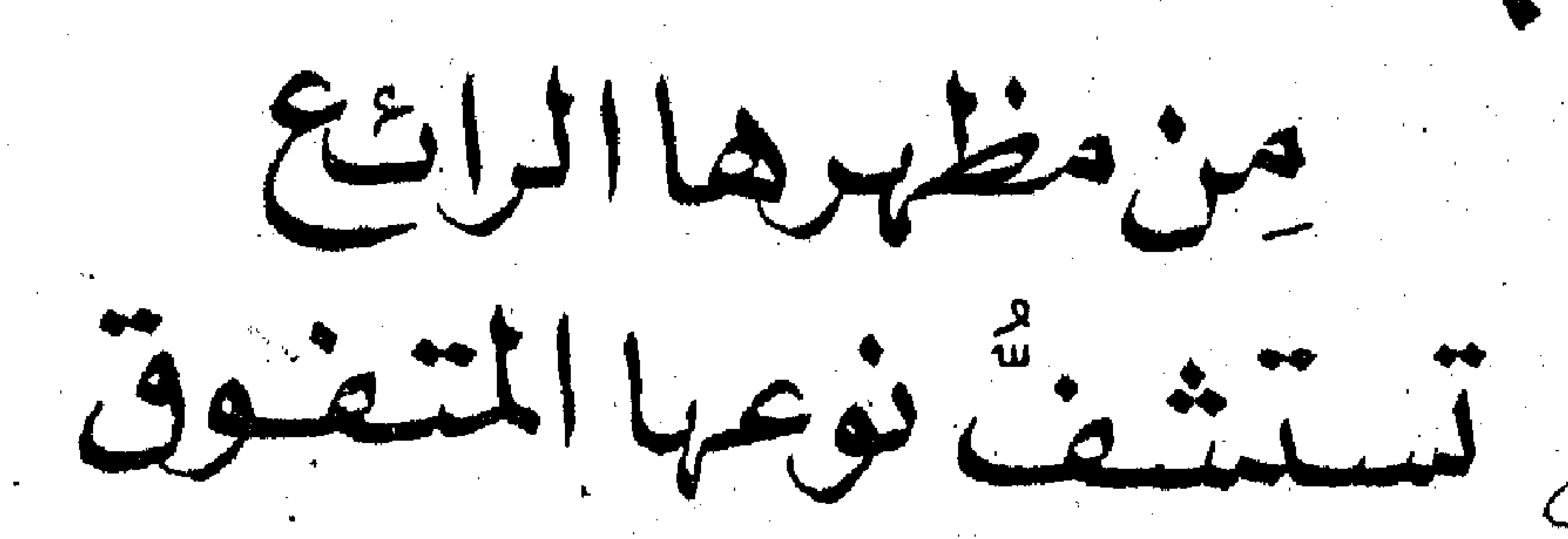
شفرات جيليت

الشفرة الجيدة هى التى تعطى حلاقة سريعة ناعمة . وهذه المميزات تتحقق فى شفرات جيليت . لذلك يفضلها ملايين الرجال فى انحاء العالم . وحيث ان انتاجها لا يزال محدوداً فاعتن بها .






Kodak


مِن مظهرها الرائع
تستشفُّ نوعها المتفوق

البَرد حاذر منه

بعد تعرضك المفاجئ له
تغرغر فى الحال بمطهر ليسترين!

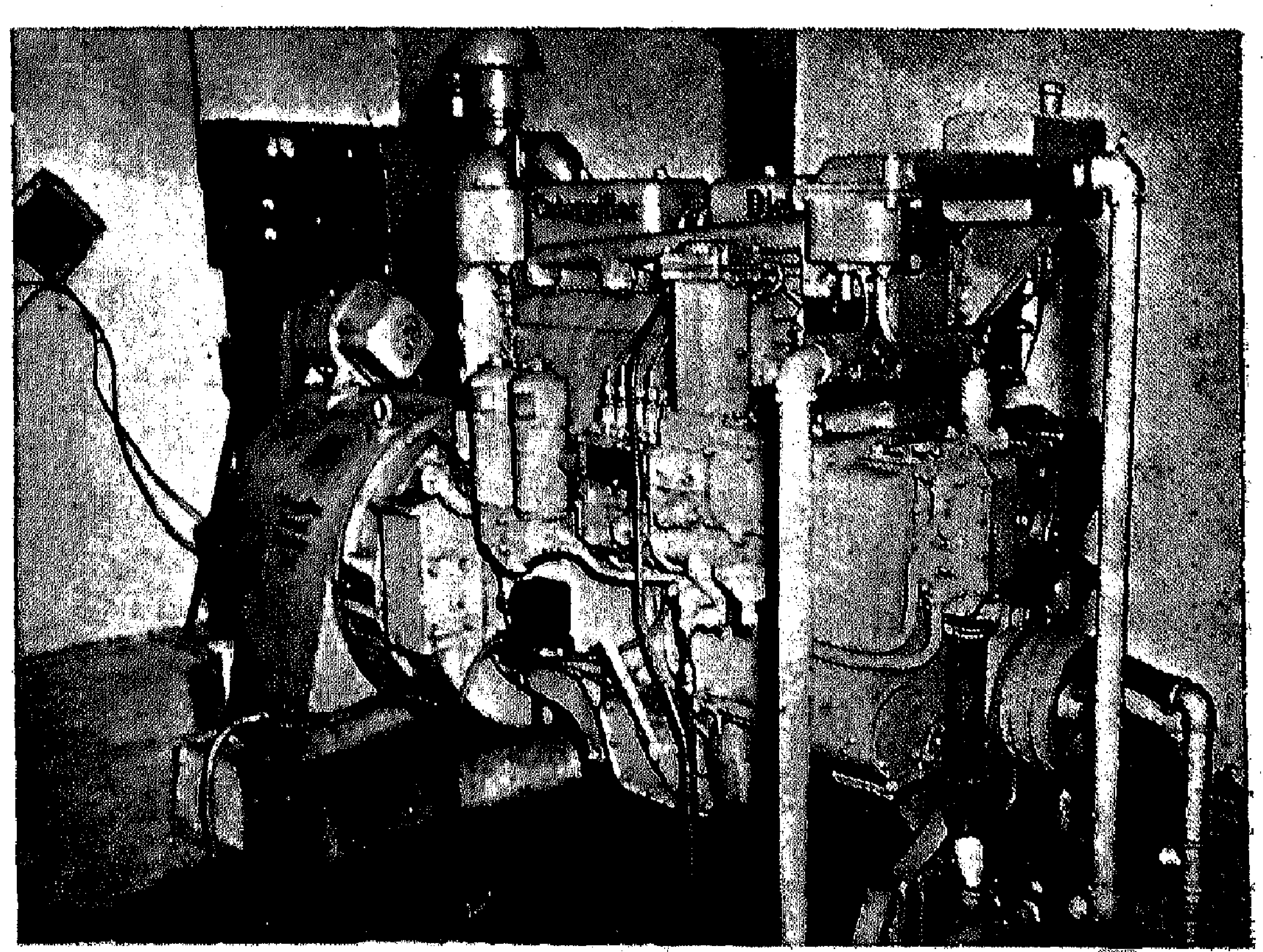
أثبتت التجارب أن الجراثيم التى تغشى سطح الفم والحلق تقل وتتلاشى بمعدل ٩٦ر٧ ٪ بعد خمس عشرة دقيقة من التغرغر بمطهر Listerine وبمعدل ٨٠ ٪ بعد ساعة من الغرغرة .

وأعظم من ذلك شأناً ، أن التجارب التى أجريت خلال اثنى عشر عاماً أثبتت أن الأشخاص الذين يدأبون على الغرغرة بمطهر Listerine مرتين فى اليوم كانوا أقل تعرضاً للاصابة بالزكام واحتقان الحلق من سواهم وفى حالة إصابتهم كانت حالتهم أخف وطأة من أولئك الذين لا يستعملون غرغرة Listerine .

مطهر ليسترين

LISTERINE





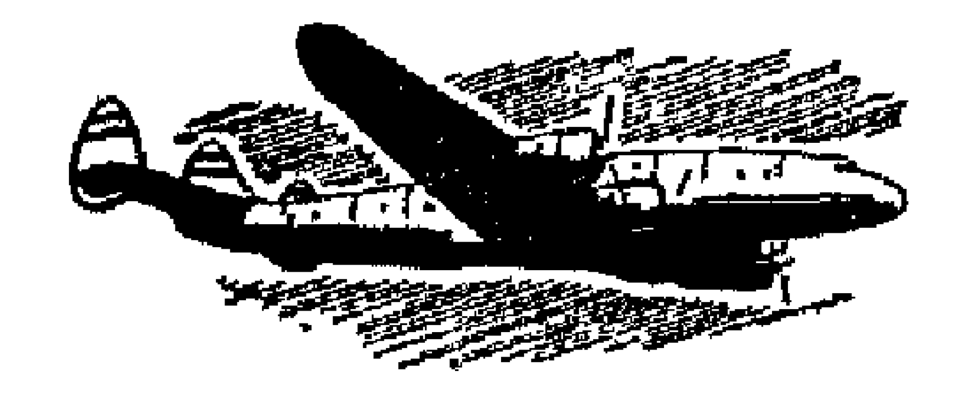
تستطيع أن تتناول الغذاء فى نيويورك غداً — حين تسافر طائراً

إن جمال برودواى ، وروعة استعراض ناطحات السحاب من الجو فى أكبر بلد فى العالم — لا يبعد عنك فى الزمن أكثر مما تستغرقه رحلة آخر الأسبوع .

إن السفر إلى نيويورك كان يتطلب فى الماضى أسابيع تحضير وتأهب — وحقائب لا حصر لها ، وأمتعة ضرورية لغياب بضعة أشهر عن البيت أو العمل ، أما الآن فهو البساطة بعينها ، إذا سافرت طائراً .

إن نيويورك اليوم لاتبعد عنك أكثر من أى بلد تسافر إليه حاملاحقيبة يدك الصغيرة تحت إبطك . فكل شخص ، فى أية بقعة من بقاع الأرض ، يمكنه أن يستقل طائرة حديثة تقله إلى نيويورك وتعود به إلى بيته فى ظرف أسبوع واحد — بفضل طائرات كونستليشن التى تسيّرها « محركات رايت سيكلون » ، المزودة بمراوح « كيرتس » الكهربائية .

القوة التى تختصر المسافات



لا تكاد تخلو جريدة من الجرائد من البرقيات التى تتناول ما تسجله طائرة كونستليشن — تلك الأميرة بين طائرات الركاب — كل يوم من أرقام قياسية فى رحلاتها عبر المحيطات وفوق القارات . وإن القوة التى أتاحت هذه الأرقام القياسية هى نفس القوة التى كانت تسير الطائرات الجبارة التابعة لسلاح الطيران الأمريكى . ونعنى بها المحركات الجبارة ، منقطعة النظير ، « محركات رايت سيكلون ١٨ »

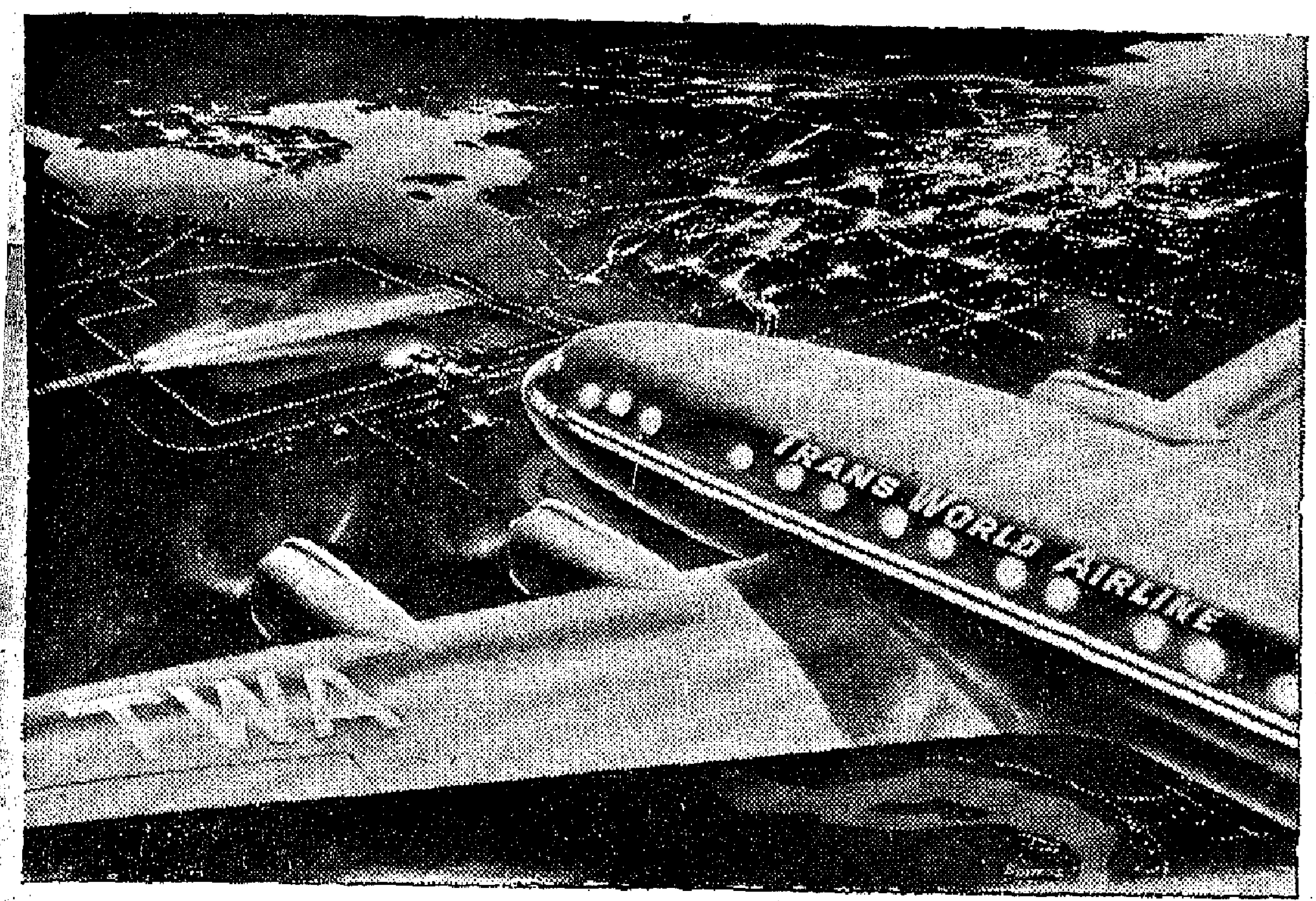
Curtiss-Wright

Export Division

30 ROCKEFELLER PLAZA, N. Y. 20, N. Y



باركر
"٥١"
يكتب كتابة جافة بمداد سائل!
أعز الأقلام وأكثرها طلباً ... لجماله الرائع
وأدائه الباهر . وهو يبدأ الكتابة فى التو والحال
ولا يتطلب أى مجهود ، وسنه مغلفة ندية دائماً ،
وهذه مميزات تأتيك من «باركر» المعروف بسبقه
ودقته فى الصناعة . أضف إلى ذلك أن هذا القلم هو القلم
الوحيد الذى صمم وصنع خصيصاً ليستخدم
أسرع حبر فى العالم أى الجفاف . حبر « باركر ٥١ » !
THE PARKER PEN COMPANY
Janesville, Wisconsin, U.S.A.



توشيق أواصر الصداقة مع شعوب الأرض

إن الأنوار المتلألئة فى المطارات القائمة فى طرق T W A المنتشرة فوق سطح الأرض تقول : « مرحباً » بشتى اللغات . على أن ما تتضمنهُ هذه الكلمة من معنى الودّ واحدٌ لا يختلف باختلاف اللغة . ففى الثمانية عشر بلداً التى صرّحت لشركة T W A بالعمل فيها توثقت أواصر الودّ منذ زمن طويل ، بين طائرات T W A ورجالها من ناحية وأهل البلد من ناحية أخرى . . . وهى صداقة قد ظهرت فى ٤٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ميـل قطعتها طـائرات T W A فى الطيران بين أمم الأرض .



ماهى TWA

* TWA لها خبرة نيف و ٢٠ عاماً فى الطيران .
* TWA أول من استخدم طائرات النقل ذات المحركات الأربعة فى الأسفار التجارية .
* TWA لها بين شركات الطيران ، أكبر هيئة من خبراء الظواهر الجوّية .
* TWA سبّاقة فى الطيران فوق أطباق الجو المضطرب ، وقد صنعت لذلك طائرات خاصة تطير على ارتفاع عظيم .
* TWA سجلت ٤٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل فى المواصلات الدولية تشمل أكثر من ٩٥٠٠ رحلة فوق المحيطات لأجل الجيش الأمريكى .
* TWA أول من نظم رحلات منتظمة الجداول على مدار العام فوق شمال المحيط الأطلسى .
* TWA صممت طائرة لوكهيد كونستليشن ذات الشهرة العالمية ، التى سجلت فى طيران المدى البعيد أرقاماً قياسية للسرعة لم تسجلها طائرة تجارية أخرى .
* TWA أول شركة طيران وضعت نظاماً لخط جوى يدور حول العالم ، وتُراعى فيه حاجات النقل لجميع شعوب الأرض .

رحلات مباشرة مصرح بها بين : الولايات المتحدة . نيوفوندلاند . إرلندة . فرنسا . سويسرا إيطاليا . اليونان : مصر . فلسطين . شرق الأردن . العراق . المملكة العربية السعودية . اليمن . عمان . الهند . سيلان . البرتغال . إسبانيا . الجزائر . تونس . ليبيا .

الفطري فإن فى الوسع شحذه وطبعه وتدريبه ، وليس بالعسير توسيع أفق النفس إلى الحد الذى تسمح به طاقتها ، وفجر بعض الينابيع فيها وتعميقها أيضاً ، وإكسابها قدراً من القوة والجرأة والثقة والجلد ، وهذا لا يتأتى إلا بالتربية الصالحة والرياضة الذاتية معاً ، فإن التربية تهذب وتصقل وتعد الإنسان على الجملة للحياة وتهيؤه لخوض عبابها . غير أن الإنسان ليس آلة تركّب وتنظف وتزيت ثم لا تعمل إلا بأن يديرها غيرها ، وإنما هو كائن أوتى القدرة الذاتية على العمل ، والجهد الذى يبذله من نفسه هو اليد التى تدفعه وتسيره وتوجهه ، والقدرة على بذل الجهد الكافي تكتسب وتزداد بالرياضة وصحة الإدراك وحسن الفهم ، فلا غنى بمن يريد أن يحي أتم حياة ميسورة وأن يكون كفؤاً للحياة ، عن مدد يضيفه من ذات نفسه — بالرياضة وبنشدان الفهم والإدراك الصحيحين — إلى ما تزوده به التربية الصالحة .

والقراءة تتيح بعض الوسائل لإدراك هذه الغاية ، ومن خير الكتب فى هذا الباب ما تخيره « المختار » من فصوله الملهمة وأصدره بهذا الاسم الذى يحرك النفس : « هل أنت حى ؟ » ومن واجب كل امرىء أن يلقى على نفسه هـذا السؤال من حين إلى حين ليتسنى له أن يتدارك ما يفوته ، وليجعل هـذا الحساب وتلك المراجعة وسيلة لابتعاث نشاط جديد فى نفسه ، واحتثاث الراقد من همته ، وصقل عزيمته إذا كانت قد كلّت وتوجيه حياته وجهة أصلح وأرشد .

وهو ليس بكتاب للتسلية على سهولته وحسن العرض فيه وشدة الوضوح فيما يتناوله ويعالجه من المسائل ، ولا هو مما يقرأ ويطرح كالصحف ، وخير ما يصنعه القارىء بعد أن يقرأ منه شيئاً هو أن يطويه ويسأل نفسه : ماذا أفدت منه ؟ هل أنا بعد الذى قرأته صرت أحسن فهماً وأصح إدراكا وأقوى نفساً أو أصلب عوداً ، أو أجرأ ، أو أكبر أملا ، أو أكثر ثقة بنفسى ، أو أقدر فيما أحس على ركوب الحياة ومغالبة تيارها وأنا مستبشر ومطمئن إلى الخير والتوفيق ؟ وأنا واثق أن الجواب سيكون فى كل حال نعم » ، فإنه كتاب يفتح العين ويوقظ النفس ويرهف العقل ويؤتى الشجاعة ويمحو الخوف والضعف والحيرة . وحسناً فعل « المختار » بضم مفـرّقه ، وتعبئة قواه الدافعة على هذا النحو السديد .

ابراهيم عبد القادر المازنى



ابرهيم عبد القادر المازني

مؤلف "ابرهيم الكاتب" و "ابرهيم الثاني" و "صندوق الدنيا" وغيرها

حالة « الوجود » وحالة « الحياة » فرق بيّن ، ولكنه فرق معنوى مرجعه إلى الإدراك والشعور ، لا إلى شيء مادي أو مظهر خارجي ، فليس في وسعك مثلا أن تجيل عينك في الناس ثم تقول إن هذا « موجود » وذاك « حيّ » ، كأنك أمام شجرتين إحداهما ذات بهجة وزهر ونور ، والأخرى ضاحية جرداء ذهب ورقها وبان يبسها . ثم إن الحالتين ليستا بدائمتين ، فليس هناك إنسان يكون في حالة وجود لا تتغير ، أو حالة حياة لا تتغير ، وإنما يكون تارة في هذه ، وطوراً في تلك بحسب ما هو فيه وما يحس به . وليست العبرة في نشوء الإحساس بإحدى الحالتين ، بالحوادث والأعمال ومبلغ جسامتها أو ضخامتها ، فقد يكون المرء في عنفوان معركة حامية ، مصير أمم بأسرها رهن بها ، ولا يشعر مع ذلك إلا أنه أشبه بآلة تحركها يد خفية ، كالمدفع الذي يطلقه أو الدبابة التي يقذف بها في أتون المعركة . وقد يستيقظ من نومه مرة ، كما يفعل كل يوم ، فيخطر له خاطر أو يدور في نفسه معنى أو خالجة ، وهو ما يزال يتمطى ويتثاءب وإذا به يحس كأن ينبوعاً من الحياة الجياشة قد تفجر في نفسه ، فيستقبل يومه الجديد بإرادة أقوى ، وعزم أصح ، وأمل أكبر ، وذهن أحدّ ، وخيلة أوسع .

ولاشك أن للاستعداد دخلا في الأمر — وأعني استعداد النفس بفطرتها للاستجابة لدواعي الحياة بسرعة وفطنة — ولكنه ما من إنسان يخلق مصبوباً في قالب أصمّ ، فمهما يبلغ من ضآلة الاستعداد

[التتمة على الصفحة السابقة]